أميـــن الـــزاوي

الأصنام

قابيل الذي رق قلبه لأخيه هابيل



رواية

دار العين للنشر

الأصنام

قابيل الذي رَقَّ قلبُه لأخيه هابيل

الأصنام: قابيل الذي رَقّ قلبُه لأخيه هابيل
رواية

أمين الزّاوي



دار العين للنشر

أسستها د. فاطمة البودي عام 2000

المدير العام

4 ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة
تليفون: 23962475 20+ ، فاكس: 23962476 20+
E-mail: elainpublishing@gmail.com

الطبعة الأولى: 2024 م

الغلاف: إسلام أحمد

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٦٣٤٨/ ٢٠٢٣
I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 706 - 7

الأصنام

قابيل الذي رَقَّ قلبُه لأخيه هابيل

روايــة

أمين الزَّاوِي

دار العين للنشر



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

الزاوي، أمين

الأصنام: قابيل الذي رَقّ قلبُه لأخيه هابيل: رواية/ أمين الزاوي.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠٢٤

ص؛ سم.

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٠ ٧٠٦ ٧

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع / ١٦٣٤٨ / ٢٠٢٣

حين وصل خبر موت كُلَيب إلى أخيه الشاعر المُهَلْهَل بن ربيعة، قال هذه العبارة الموجعة:

- كُلَيبٌ مات! هل ماتَ كُلُّه؟

كنتُ السبب في كل هذا الذي حصل لوالدي مع رفيقه الصرصور في زنزانتهِ الفردية، حشرة صغيرة بحجم رُفْقة غالية وذكرى عالية.

الكائنات كبيرة بأثرها لا بحجمها.

جئنا إلى الدنيا، أختي وأنا مِن حَمْل واحد: أنا حُمَيْمِيد وهي حميدة.

وُلِدنا في يوم أغبر وحارّ، يومَ انقلب العقيد هوَّاري بومدين على الرئيس أحمد بن بِلَّة، كان ذلك في 19 يونيه 1965.

لم يُسمَع لي صراخ ولا لأختي التوأم أيضًا، لا شيء من حولنا سوى الأناشيد الوطنية الحماسية وموسيقى المارشات العسكرية تأتي على أمواج الإذاعة ومن شاشة جهاز التلفزيون بالأبيض والأسود، الموضوع فوق طاولة خشبية قديمة بأقدام عالية في ركن صالونِ عيادة التوليد.

الجميع يردد عبارة: "التصحيح الثوري".

الذين قاموا بالثورة يصححون الثورة وذلك بقتل أو سجن أو عزل الثوار الذين قاموا بالثورة مع مُصحِّحي الثورة.

أتبع أفكاري التي تشبه سُحُب الصيف العقيمة الكاذبة!

الناس حيارَى وما هم بحيارَى.

أمي، وعبر باب الغرفة المفتوح أين تنام على سرير من حديد في عيادة التوليد المُسمَّاة باسم المجاهدة حسيبة بن بوعلي ابنة هذه المدينة، تتابع خطاب الرئيس الجديد على شاشة التلفزيون، خطاب مُوجَّه لوحدات الجيش أكثر مما هو موجه للمواطنين. تتابع أمي لالة رحمة الصور وهي تتناول صحن بركوكس بالتوابل الحارة، هي أكلة خاصة بالمرأة بعد الولادة.

أمي التي لم تهتم يومًا بالشأن السياسي تتابع ما يجري وهي تلتهم صحن البركوكس.

لأخبار السياسة طعمٌ آخَر حين تكون مُغمَّسة في مرق البركوكس الحار!

لم يَرُقْ لها وجه الرئيس الجديد المنقلب على الرئيس، لم يعجبها لا شكله ولا لباسه ولا أسنانه الصفراء المنخورة جرَّاء الاستهلاك الشره للتبغ الأسود الرخيص، وكان هذا أيضًا رأي جميع الممرضات إلا واحدة كانت تردد بصوت مسموع بأن الرجل العسكري النحيف هو ابن قريتها، وأن اسمه الحقيقي محمد بُوخروبة وأنها فَخُورٌ به، ولا واحدة استطاعت أن تقف ضدها وتوقفها عند حدها.

جميع الجزائريين اسمهم محمد. الجزائري ينادي الجزائري: السي محمد، مهما كان اسمه، وحين يصحح الواحد للآخر اسمه يرد عليه الأول: "أفضلُ الأسماء ما حُمِّد وعُبِّد".

أمي التي لا تحب السياسة ولا سماع الأخبار باستثناء برنامج يومي خاص بالثورة الفلسطينية يذاع على القناة الأولى للإذاعة الوطنية، والذي تستمع إليه دون أن تفهم شيئًا من لغته الفصيحة جدًّا، لكنها سعيدة لأن المذيع ذا الصوت الجهوري لا يتوقف عن ذكر المسجد الأقصى وعن القدس وعن القائد أبو عمَّار.

من خلال الصور يبدو الرئيس الجديد مترددًا غير واثق من نفسه، نظراته فيها كثير من الحذَر والحَيْطة والمكر وذكاء الثعلب.

الأناشيد العسكرية خنقت صوت بكائي لمجيئي للحياة.

قضت أمي ثلاثَ ليالٍ في عيادة التوليد حسيبة بن بوعلي، في صباح اليوم الرابع وقبل أن تشتد الحرارة أكثر، فالمدينة معروفة بصيفها الجهنمي، وقد بدأت الحياة تعود تدريجيًّا إلى طبيعتها في الشوارع بعد الإعلان عن تشكيل مجلس الثورة، لكن الإذاعة والتلفزيون لا تزال مقتصرة في برامجها على إذاعة نشرات الأخبار المتتالية والأناشيد الوطنية وموسيقى المارشات العسكرية، وصل والدي عَللًا فليتا إلى العيادة على متن جرَّار فلَّاحي، هو ملك للتعاونية الفلاحية للحمضيات يقوده أحد أصدقائه الذي يشتغل مساعد مهندس زراعي، على عَجَل وحتى دون أن يوقف السائق محرك الجرار، حيث اكتفى برَكْنه على الرصيف المقابل، بسرعة وبمساعدة ممرضتين ركبنا الجرار، جلست أمي في الخلف بين كومة من صناديق العنب الفارغة، افترشت غطاء بورابح من الصوف أحضره والدي معه خشية البرد مع أننا على أبواب فصل الصيف، تضعني على اليمين وأختي التوأم التي تكبُرني ببعض الدقائق على اليسار، وجلس أبي إلى جانب السائق وانطلق الجرَّار وأبي صامت لا يتكلم.

بعد بضعة كيلومترات التفت أبي جهة أمي، نطق بعبارة واحدة ثم لاذ بصمته: "سمَّيتُ الطفل الذَّكَر حميميد على اسم الرئيس أحمد بن بلَّة، سجلتهما البارحة بالحالة المدنية للبلدية"، قالها بحذر مما جعل صديقه السائق ينظر إليه برهبة متفحصًا وجهه بدقة وكأنما يتأكَّد من صحة عقل مرافقه،

ثم قال وصمت نهائيًا: "وأطلقت اسم حميدة على البنت".

قالت أمي بصوت خافت: "الحمد للّه، اسمان فيهما الحمد: حميميد وحميدة".

قال السائق بحذر: "أفضل الأسماء ما حُمِّد وعُبِّد".

وإذ وصلنا البيت وجدنا بالباب رجلين غريبين مسلحين واقفين وكأنهما في انتظارنا، هكذا بَدَوَا من حركاتهما، نزلت أمي من الجرار بمساعدة أختي نوارة وإحدى الجارات، على الفور غادر الجرار المكان وكأنما السائق كان يستعجل هروبه، تقدم الشخصان تجاه والدي، كلّماه بهدوء وأمراه بمرافقتهما نحو سيارة عادية كانت متوقفة على بُعد أمتار من باب بيتنا، أدخلاه السيارة بعد أن وضعا على رأسه كيسًا من الخش الأسود، وبسرعة جنونية غادرت السيارة المكان ومعها اختفى والدي.

أنا اللعنة الكبرى، ضيَّعتُ والدي في المرة الأولى وأنا أدخل البيت العائلي للمرَّة الأولى، وضيعته في المرة الثانية وأنا أدخل بيت اللّه للمرَّة الأولى لأداء صلاة الجمعة في مسجد جامع اليهود.

مسجد جامع اليهود: السبت في الجمعة!

مسجد جامع اليهود: الجمعة في السبت!

اختفى والدي لمدة عشرة أيام كاملة؛ مما اضطر حنَّة منصورة إلى تأجيل موعد الاحتفال بالعقيقة التي تُقام عادةً في اليوم السابع للمولد، يحدث هذا للمرَّة الأولى، فحنة امرأة لا تخلف موعدها ولا تغيره، وهو ما جعلها حزينة، دخلت على أمي وهي بصحبة أختي نوارة، قالت وهي في حالة كالهذيان:

"حتى ولو أن موعد الاحتفال بعقيقة المولودين قد تأخر، فموعد رحيلي لن يتغير أبدًا، سأبدأ في التحضير لجنازتي بمجرد عودة سيدي علّلًا فليتا، وسأخبره بيوم موتي بالتدقيق"، قبّلتني وقبّلت أختي التوأم على الجبين ثم خرجت مُرددّةً: الحمد لك يا رب في حميميد وفي حميدة.

أفضل الأسماء ما حُمِّد وعُبِّد، قالتها حنة منصورة رافعةً ذراعيها متذرعة للسماء.

عاد والدي إلى البيت بعد عشرة أيام من الاختفاء، لم يجرؤ أحد على السؤال عنه خلال غيابه، الكل يعرف بأنه عند الحكومة، وحين يكون الواحد عند الحكومة فلا فائدة من سؤال الحكومة عن أبنائها الذين هم ملكيتها المطلقة تفعل بهم ما تريد!

نحن مَشَاعٌ للحكومة وتحيا الاستقلال، وتحيا الثورة وليسقط الاستعمار الغاشم!

دخل والدي علينا وقد فقدَ نصف وزنه تقريبًا أو أكثر، وعلى الفور حضرت له أختي نوّارة الحمّام، اغتسل بسرعة وعاد إلى الصالون برائحة الصابون الحلبي المنعش، سأل أمي عن صحتي وعن صحة أختي، كنا نائمين كالملاكين، رفع الإزار عن وجهي لامسَ وجنتي ومثل تلك الحركة فعلها أيضًا مع أختي.

أراد أن يبتسم، لكن أبي علّلًا فليتا لا يعرف كيف يبتسم، حتى حين يكون سعيدًا لا يستطيع أن يبتسم أو يضحك، ملامح وجهه لا تساعده على رسم شكل ضحكة أو ابتسامة، كلما حاول ذلك فشل؛ ولذلك يبدو متعصبًا حتى وهو في لحظة الفرح، يُغبط أبي الذين يُحسنون الضحك والابتسام

ويحسنون أيضًا التعبير عن الغضب والحزن.

صعب جدًّا أن تكون سعيدًا ولا تعرف ولا تستطيع التعبير عن سعادتك من خلال تصفيف أسارير وجهك واستدارة عينيك.

حاول أبي مراتٍ كثيرة أن يتعلم كيف يبتسم أو يضحك، يحدث معه ذلك كلما قابل المرآة لحلق لحيته، فهو يحلقها كل يوم تقريبًا وخاصة صبيحة يوم الثلاثاء الذي هو يوم السوق الأسبوعي الشعبي في المدينة.

كنت أراقبه وهو يحرك أسارير وجهه أمام المرآة محاولًا رسم تعبير الابتسامة، لكن دون جدوى، وحين يخفق يبدأ في الحديث مع نفسه بصوت مرتفع فأهرب من جنبه معتقدًا بأنه فقد عقله، كانت حنة منصورة تقول: "مَنْ نظر إلى المرآة بعد العصر، يرى وجه الشيطان عِوَضَ وجهه".

هل كان أبي يرى وجه الشيطان كلما أطلَّ على المرآة؟

كانت أمي فرِحةً بعودة والدي سالمًا حتى ولو كان منكسرًا.

جلس بمحاذاة أمي على هيدورة خروف، أحضرت أختي إبريق الشاي، صبَّت له كأسًا شربها بنَهمٍ مع قطعة خبز وزُبدة بلدية.

في ظرف عشرة أيام من الاختفاء شابَ شعر رأسه بالكامل، أصبح مثل كومة ثلج.

قلت في نفسي: أين يذهب البياض حين يذوب الثلج؟

قلت في نفسي: أين يذهب السواد حين يشيب الشعر؟

قلت في نفسي: أين تذهب العاصفة حين تنتهي الصحراء؟

بعد صمتٍ نطقت أمي قائلةً له: "قلتُ لك ابتعد عن السياسة، فهي وجع الرأس وسوس الأسنان ومأساة العائلة".

لم يردَّ عليها، كان يتأمل أصابع رِجْليه، ومثله كانت تفعل أختي نوَّارة المعجبة بشكل رجليه وبياضهما وبأصابعه المُرتَّبة بشكلٍ مثير.

صبَّت له نوَّارة كأسًا ثانية، أسند ظهره على الحائط وظل صامتًا لدقائق يحدق تارةً في رغوة كأس الشاي وهو يمسك به بين يديه، وتارةً أخرى في أصابع رجليه، ثم علَّق بصوتٍ يكاد لا يُسمع: "لم أكُن أتصور أن يصل الأمر بهؤلاء إلى هذا الحد". كان يتكلم بصوتٍ خافتٍ كأنما يحدث نفسه أو خوفًا من أن تكون هناك أذن تتنصَّت عليه أو عين تراقبه.

للحيطان آذان.

لقد اختطفوني لا لممارسة السياسة أو النقابة، فأنا لست منتميًا إلى حزبٍ سياسيٍّ محظور ولا لنقابة تعاكس الحكومة، أنا عضو ملتزم ومنضبط في حزب النظام، الحزب الذي هو جهاز الدولة: "جبهة التحرير الوطني"، أوقفوني لسببٍ آخر هو أنني أطلقت على ابننا اسم حميد، وهو تصغير اسم أحمد وهو اللقب الذي كان يُنادَى به أحمد بن بِلَّة الرئيس المُطَاح به.

بمجرد أن أوصلوني إحدى الثُّكُنَات بعد أكثر من ساعتين من الدوران داخل المدينة بين شوارعها وأزِقَّتها للتمويه، ألقوا بي في غرفة فارغة مظلمة رطبة، سحبوا من فوق رأسي كيس الخَشِّ الأسود، لم يكلمني أحد حتى اليوم الثالث، إذ جاء أحد العسكريين فتح الباب من الخارج أمرني بمرافقته، صعدنا بعض الأدراج، لحظتها أدركت بأنني كنتُ في قبو، تبعته، قطعنا ساحة فارغة عارية ونظيفة تحت شمس رصاصية، من قوة أشعة الشمس

لم أكُن أرى سوى الظلام، قادني إلى مكتب أحد الضباط السَّامِين كما يبدو.

مسدس مُلقى فوق المكتب.

لا أوراق ولا أقلام على المكتب.

مكتب لوحي وكرسي حديدي ورجل بدون ملامح.

آلة كاتبة ميكانيكية موضوعة على الأرض.

نظر إليَّ الضابط السامي قائلًا دون مقدمة: "تطلق على جَرْوِك الجديد اسم حميميد، إنك تُحسن اختيار الأسماء الثورية أيها الزعيم السياسي؟ أنت عميل ضد التصحيح الثوري، أنت من القوى الرجعية ضد الاشتراكية وضد الشعب، هذا يومك"، ثم تناول المسدس الذي كان على المكتب، لاعبَه بيد ثم غرسه في خصره اليُسرى، تركني واقفًا كالعمود الكهربائي المطفأ وغادر المكان.

دخل الجندي الذي رافقني من القبو إلى هذا المكتب، وقادني ثانيةً في الاتجاه المعاكس إلى الغرفة نفسها أو ربما أخرى تشبهها تحت الأرض.

قلت في نفسي: الحمد للّه لم يطلق عليَّ رصاصة أو رصاصتين في الرأس.

جلست في الظُّلْمة قرب دلو ماء وقطعة خبز يابس، أغمست الخبز في الماء والتهمته في لقمة واحدة، وأنا أنتظر متى سيظهر الضابط وهو يلاعب مسدسه ومتى سيُطلق عليَّ رصاصات النهاية، وفجأةً ظهر صرصور في الغرفة، بدأت ألاعبه اقترب مني، قلت: "مَنْ رمى بهذا المخلوق البريء في هذا المكان الخانق الرطب الذي يشبه القبر؟".

قلت: "في انتظار الرصاصات في الرأس، وتحسُّبًا لقضاء ما بقي من أيامي القصيرة صحبة هذا الصرصور، عليَّ أن أعلمه فن الحديث والمحاورة والحكي وعليه أن يعلمني فن العيش في مثل هذه الأماكن الرطبة المظلمة والمغلقة".

الحياة نبدعها.

كان الصرصور سعيدًا بوجودي.

بدأت أتابع حركة الصرصور الجميل النظيف وللمرَّة الأولى تُدهشني تموُّجات ألوان جميلة على جلد ظهره، وبدت لي حركة أقدامه المتناسقة كأنما هو يرقص ولا يمشي، مَن اخترع مبيد الصراصير ظالم ومجرم، الكائنات الجميلة مثل هذا الصرصور لا تُباد ولا تُؤذى، كلما اقترب الصرصور من الباب خشيت أن يتركني لوحدي ويغادر الغرفة بالتسلُّل من خلال الفراغ الموجود ما بين دفة الباب الحديدي والأرضية الإسمنتية حيث يتسرَّب ضوء خافت.

ربما كان يفعل ذلك قصدًا كي يتأكَّد من أنه رفيق عزيز.

نزعت عني قميصي ووضعته تحت الباب لسد الفراغ حتى لا يغادرني الصرصور ويتركني لوحدي في هذا المكان الموحش.

قد نواجه الوحدة ونغلبها بمساعدة وحضور كائن صغير يعطي للحياة فينا ومن حولنا معنى، به ننتصر على الموت وعلى الانتحار وعلى اليأس.

هذا الصرصور أنْسَانِي الوقت.

فجأةً بدا لي الصرصور شبيهًا بابني حميد القادم الجديد، الآن أستعيد

وجه الرضيع ذي الأيام الثلاثة إنه يشبه الصرصور تمامًا بتمام.

اختفى الصرصور بين طيَّات قميصي الذي وضعته تحت الباب، وكأنما يلعب معي لعبة الغُمَّيْضة، اختفى وبقيتُ وحدي في الرطوبة والظُّلْمة والسؤال أنتظر ظهوره من جديد.

لم يظهر الصرصور.

بعد ليلتين ونهار، دار مفتاح الغرفة التي أقيم بها دورتين من الخارج، بسرعة سحبت القميص ووضعته على كتفيَّ العاريتين، شعرت بالصرصور يمشي على ظهري فأحسست براحةٍ عميقة، كأنما عثرت على عزيزٍ فقدته، استحسنت حركات أرجله الصغيرة فوق جلدي، سعادة كبرى لا تضاهيها سعادة، إنه لا يزال هنا معي في قميصي، رفيق لم يخذلني، اعتقدت بأن جميع مَنْ في الثُّكْنَة قد غادر المكان وتم نسياني ها هنا في هذه الظلمة والرطوبة، وقف عسكري قصير القامة برأسٍ بِطِّيخيّ الشكل مُحلَّق الشعر في فوهة الباب قائلًا بأسلوب الأمر: "حضرات يطلبك يا صرصور".

تحرك الصرصور على ظهري، فوق جلدي الرطب أشعر بحركة سيقانه الجميلة وكأنه يرقص ولا يمشي.

هل اعتقد الصرصور بأن الحديث موجَّه إليه فخاف أو انزعج؟

لمست خدي لأكتشف بأن شعر لحيتي قد غطى وجهي بالكامل، سار الجندي القَزَم قدامي وتبعته، سرنا في اتجاهٍ آخر، أو هكذا بدا لي، الصرصور لا يزال يتحرك فوق ظهري وعلى كتفي، يدغدغني فأشعر بالسعادة، أمرني بالجلوس في رُواقٍ فارغٍ إلا من ثلاثةِ كراسٍ حديدية عارية وصدئة، قائلًا:

اجلس يا صرصور والصرصور يجري صاعدًا من الحزام إلى الكتفين ثم يهبط؟

جلست ولم يجلس الصرصور لأنه لا يزال يمشي جيئةً وذَهابًا فوق ظهري، اختفى العسكري تسلل إلى مكتب مقابل للكراسي، ترك الباب نصف مفتوح، سمعته يدق على آلة كاتبة ميكانيكية.

انتظرت طويلًا ولم يكلمني أحد، ثم جاء عسكري آخر، قال لي: "أنت هو الصرصور؟"، قلت له: "نعم".

قال لي: "عُدْ من حيث أتيت".

وقفت، تبعت عسكريًّا آخر في الاتجاه المعاكس، عسكري بقامة زرافة، عدتُ إلى غرفة تحت الأرض، ليست الغرفة التي كنتُ بها، لم يسقط الصرصور من فوق ظهري، ظل متشبثًا بي، هذه المرة الغرفة بسقفٍ عالٍ بها نافذة صغيرة عليها قضبان حديدية لا يمكن الوصول إليها، منها يدخل ضوء ضئيل وهواء ساخن جدًّا.

نحن في بداية فصل الصيف.

ما إن جلست على الأرض وبدأت في التدقيق فيما هو موجود بالغرفة حتى دار مفتاح الباب بعنف، هذه المرة كان الواقف أمامي رَجُلًا بلباسٍ مدني وربطة عنق حمراء مخططة بالأسود.

حَيَّانِي بلطفٍ غريبٍ وبهدوء، ثم طلب مني مرافقته، سرتُ في ظلِّه الطويل، كان يعرُج قليلًا أو هكذا تخيلته، لم يعُد الصرصور يمشي على جلد ظهري، حزنت، خفت أن يكون قد سقط مني، دخلنا مكتبًا ضيقًا

بدون نوافذ، جلس السيد خلف آلة كاتبة وشرع في طرح أسئلة عليَّ، بعضها عادي وأخرى غريبة: اسمك، اسم أبيك، اسم أُمِّك، عدد الأولاد والبنات، طبيعة عملك، أسماء الناس الذين لك علاقة بهم في العمل، في المقهى، عن أسفاري، الإذاعات التي أستمع إليها، البرامج التي أُفضِّلها، من يختار أسماء أبنائي، هل سبق لي وأن انتميت إلى حزب سياسي، هل تصلِّي، هل تشرب الخمرة...

كنت أجيبه بكل أريحيَّة وصراحة وأفكر في الصرصور الذي لم يعُد يمشي على جلد ظهري فيُحدث فيَّ سعادة كبرى.

وكان يعيد ما أقوله كلمة بكلمة قبل أن يكتبه، دون أن يرفع رأسه عن الآلة الكاتبة.

ثم بعد الانتهاء من تسجيل ما صرحت به، نظر إليَّ قائلًا:

- أنصحك، بل آمُرك بتغيير اسم مولودك الجديد، فحميميد هو لقب الخائن، لقد جئنا بالتصحيح الثوري فلا تكُن مع العملاء والخونة ورثاء فرنسا العدوَّة، لا تكُن صرصورًا.

في المرة القادمة إذا ما بدر منك تصرف أو سلوك يوحي بحنين أو مناصرة للخائن فستختفي نهائيًا من فوق وجه البسيطة كما اختفى هو، سنسحقك كما يُسحق الصرصور.

كنت ساكتًا، أفكر في الصرصور الذي ضيعته وقد منحني لحظات سعادةً لا تُقدر، كانت رُفْقته عامرةً بالحياة.

جاء عسكري أشار عليَّ بإصبعه دون أن يتكلم، تبعته حتى مرآب

السيارات تحت الأرض، وضعوا على رأسي كيسًا أسود كما يوم جاءوا بي، أجلسوني في المقعد الخلفي وانطلقت السيارة، سارت قرابة الساعتين أو أكثر، وحين توقفت ورُفع عن عيني الكيس الأسود الذي كان ملفوفًا به رأسي، وجدتُ نفسي قُبالةَ مسجد جامع اليهود.

السبت في الجمعة.

الجمعة في السبت.

تركوني هناك وانصرفوا.

مشيتُ في الشارع الطويل وأنا أفكر في الصرصور وأتمنى أن تتحرك أقدامه على جلد ظهري المُتعرِّق واللَّزِج والوَسِخ.

دخلَتْ حنَّة منصورة، سلمت على والدي، قائلةً دون مقدمات: لقد اشتريت كفني، قطعة من حرير بعرض مترين وطول ثلاثة أمتار، سأخبرك بموعد رحيلي غدًا قبل موعد صلاة العصر يا سيدي عللًّا فليتا.

قلتُ لأبي عللًا فليتا: "يا بْنَ جدي، اشْترِ لي علبة شوكولاتة؟".

نظر إليَّ أبي مبتسمًا، أنتبه الآن إلى أن أسنانه تبدو أكثر بياضًا وأجمل ترتيبًا من ذي قبل، قائلًا: "سأقتني لك علبة كاملة غير منقوصة بمجرد الوصول إلى بقالية الحي".

شعرتُ بإحساس مثير وأنا أتخيل قطعة الشوكولاتة تذوب شيئًا فشيئًا في فمي.

فجأة تكلَّمت الأرض، صرخت، ضاعت يد أبي الضخمة من يدي الصغيرة، تسللت، أينك يا أبي؟ اختفى شبحه في الغبار الكثيف، ضيعته، ضيعني، مثله أنا أيضًا اختفيت في الغبار الكثيف، لم أعد أرى شيئًا، لم أعد أراني، امتلأ فمي بالحصى وبالتراب وبالغبار وبالصراخ بعد أن كان، قبل قليل، يسيل لعابًا لمذاق الشكولاتة المُتخيَّلة وهي تذوب فوق لسانه ومن تحته.

سمعت صراخ أبي، لم أتبيَّن فحوى كلماته، أول مرة أسمع أبي يصرخ، لم أكُن أتصور بأن الآباء يصرخون، إنهم أشدَّاء، الأب أعظم من أي ألم، لكن أبي كان يصرخ كالأطفال ومثله صرخت أنا أيضًا كما يصرخ الكبار.

طار عقل أبي من رأسه، ذهب في الغبار.

مشيتُ في الضياع والغبار والنَّوَاح.

الناس تجري في كل اتجاه، في اللااتجاه، كل واحد هارب من الموتِ إلى موت آخر.

زلزال، زلزال.

أجري، دون أن أدري إلى أين أنا أجري، ضيعتُني، ضعتُ مني.

على الرصيف الذي انزلق نحو وسط الطريق وقد غاص جزء منه في حفرة كبيرة، هاوية، قنوات الصرف الصحي انفجرت، ماء قذر يجري في اتجاه العقبة، وانفجرت قنوات الماء الشَّرُوب أيضًا، كل شيء اختلط في رأسي وأمامي.

تساءلت: "لماذا لم يَحْمِنا اللَّـه الرحيم من هول الأنقاض ونحن ساجدون له في الصلاة، في الصلاة الكبيرة، صلاة الجمعة، كيف لم يحمنا وقلوبنا كانت عامرة بفيضه وبنوره، الكبار مثل الصغار؟".

نحن في يوم المسلمين، يا رب، لا الأحد ولا السبت يا رب.

نحن في بيتك يا اللَّـه حتى وإن كان هذا البيت جامعًا لليهود سابقًا، إنه اليوم، مسجد جامع اليهود.

أنظر إلى الماء المتدفق نحو الأعلى بعد أن تعذر عليه السيلان نحو المنحدر، الانحدار نحو الأعلى، رأسي يغلي، ضاع مني أبي علاَّ فليتا.

حاولت أن أطرد هذه الأفكار الخبيثة، الشيطانية من رأسي وأنا أجري وهي تجري في رأسي، تدور فيه فتدوِّخني.

أشعر بالخوف منِّي، من أفكاري.

نظرتُ إلى السماء بحثًا عن اللَّـه الذي أحبه حبًّا كبيرًا، فلم أجد سوى الغبار ومن حولي الأنقاض، اللَّـه لا يسكن الأنقاض، إنه الخير وإنه العافية، إنه العمران.

تخيفني أفكاري واللَّـه يراقبني من فوق غيمة، هكذا أتصوره لا تنام له عين عنا، عني.

كلما حاولت مطاردة الأفكار القبيحة التي تلتصق برأسي التصاقًا، أرى صورة والدي وهو يختفي في الزحام مهرولًا صارخًا فتتمكَّن مني أكثر، من قلبي ومن ذهني، أرتجف.

شيء ما زُلْزِل بداخلي: أصبحت أخاف من اللَّـه الذي كنت قبل قليلٍ أحبُّه.

المسافة كبيرة بين الحب والخوف!

شعور مجنون وغريب بالانتقام سكنني فجأة، الانتقام ممَّنْ ولِمَنْ؟ لست أدري.

أحاول أن أبصق الغبار والتراب من فمي فيمتلئ ثانيةً أكثر من السابق.

كنت أعتقد دائمًا بأن اللَّـه يحمي بيته من السقوط، وضيوف بيته من الأذى، منذ الصِّغَر تعلمنا بأن المساجد بيوت اللَّـه، هكذا قِيل لنا في المدرسة القرآنية كما في المدرسة الجمهورية، أمشي والتراب في فمي وأفكر تارةً في اللَّـه بخوف وليس بحب وتارةً أخرى في قطعة الشكولاتة التي لم تذُب في فمي.

لماذا أسقط اللّـه سقف بيته أو جزءًا منه على رؤوس المُصلِّيات، وأكثر من ذلك في يوم الجمعة، يوم المسلمين المفضل.

أهَلْ إله المسلمين لا يحب النساء؟

اللّـه الذي يُحَبُّ اختفى، وفي قلبي استقر اللّـه الذي يُخيف!

أجري وأفكر في أبي الذي تلاشى فجأةً في هذا الحشر وأنادي: "يا ربي، يا ربي!".

سيارات الحماية المدنية تزمر.

رأسي يزمر.

الناس تردد كلمة واحدة: الزلزال، الزلزال، الزلزال.

الهزَّات الارتدادية المتتالية من تحت قدمي تجعلني أرقص، جسمي الصغير يتمايل كالريشة في مَهبِّ الريح وأنا أفكر دائمًا في اللّـه الذي أسقط بيته على عباده في يوم جمعة؟ وأردد وحنجرتي يابسة وفمي مليء بالتراب: "يا اللّـه! ستبلعنا الأرض!".

أين أبي؟

يمتلئ رأسي فجأةً بصورة تشبه صورة أخي المهدي الطالب المقيم في المدينة الجامعية بالعاصمة وبأخرى شبيهة بأختي نوَّارة التي أكل الدود جزءًا من ساقها اليُمنى، وثالثة بوجه زوجها مصطفى أوبختي الذي أبدع قصة شعر سماها قصة موس Coupe Mus وأصبح بها مشهورًا في بلاد تونس الخضراء كلها.

أتقدم إلى الخلف؟!

سألني رجل ضائع هو الآخر في الغبار وفي اللغة عن اسمي، وقد أدرك بأنني ضائع، لم أتذكر اسمي ضاع هو الآخر كما صاحبه ضائع، لكني ويا سبحان اللّه، تذكَّرت اسم أخي، مهدي، فقلت له: "أنا أخ مهدي".

قال لي: "المهدي المنتظر"، ثم تركني ومضى أو اختفى من أمام عيني.

قال آخر: "المهدي، ابن مَنْ؟"، قالها هذا الرجل الثاني بصوتٍ عالٍ، فأجبته: "مهدي أخي الذي يدرس بالجامعة في العاصمة، أنا أخوه وهو أخي"، "ما اسمُك أنت؟" قالها ثم مضى، اختفى في الغبار والضجيج كما الأول.

الضائع لا يدل الضائع على طريق! كلنا ضائعون.

وقال صوت ثالث لم أتبَّين من شكله سوى أسنانه الصفراء الكبيرة وغير الكاملة، هذه المرة حدثني بالفرنسية: "Ton nom de famille?"، "لا أتذكره، فجأةً تذكَّرت اسمي الحقيقي حميد، لكني خشيت التصريح به لما جلبه لأبي من مصائب". وقد أجلب له أخرى وهو الضائع التائه، نظرت إلى أسنان الرجل وهي كُلُّ ما يظهر منه فبدت لي كأسنان كلب جائع يبحث عن شيءٍ ما يلتهمه.

اختفت أسنان الرجل في الغبار وظل الصوت يزعق في الهواء بدون وجود لمُتكَلِّم؟

قلت في نفسي: أين يذهب البياض بعد أن يذوب الثلج؟

قلت في نفسي: أين تذهب العاصفة بعد أن تنتهي الصحراء؟

مَن يتفرج على مَنْ، الوقت يتفرج علينا ونحن نختفي فُرادَى وجماعات من هذه الحياة، أم نحن الذين نتفرج عليه من سماء غبائنا ونحن نتوارى إلى العدم معتقدين أنه هو الزائل وهو الباقي الشاهد على الخلود؟

نمضي نحن البشر إلى العدم، والوقت وحده باقٍ يتفرج علينا من علياء خلوده مستهزئًا من حيرتنا ومن لهفتنا عليه ومن غبائنا أيضًا.

سخرية الأيام.

انقضى بشرٌ كُثْرٌ وما انقضى الزمن.

تلك الجمعة، يومَ المسلمين المفضل، لم تَكُن لا يوم سبت اليهود ولا يوم أحد النصارى، الساعة تشير إلى منتصف النهار و25 دقيقة و23 ثانية، ساعة المسجد المعلقة على الجدار خلف المنبر لا تخطئ أبدًا في تواقيت الصلاة.

المسلمون يُخطئون في كل التواقيت، ويضيعون جميع المواعيد إلا مواقيت الصلاة فهي دقيقة عندهم، بالثانية وكسر الثانية!

نعق البوم ونُفِخ في الصُّور، هذه ساعة النُّشُور.

زُلزِلت زلزالها.

فجأة، من حولنا ومن فوقنا تحولت الأرض إلى وحش خرافي فتح فمه على اتساع مخيف فبلع في رمش عين آلاف البشر، صغارًا وكبارًا، نساءً ورجالًا وحيواناتٍ وشجرًا وحجرًا، صراخ وبكاء وغبار وهلع وكأنما المدينة في ساعة القيامة.

قيامة منتصف نهار الجمعة.

نمضي والوقت باقٍ، هل نحن من خَلْق الوقت أم الوقت هو من صنعنا.

خراب عام والحلم باقٍ يحاول أن ينهض من بين مفاصل الموت الملون بالغبار وبالأسود والأبيض وبالبكاء.

بدت الحياة فينا ونحن نتحدى ساعة القيامة كتلك النبتة التي تتمسك بالحياة، وهي طالعة من شقوق حجرة صمَّاء أو من فراغ صغير جدًّا بين بلاطتين من إسمنت أصَمّ أو من رخام بارد عتيق.

مَنْ يسبق مَنْ: الموت يسبق الحياة، أم الحياة هي التي تسبق الموت؟

زُلزِلت الأرض زلزالها.

أخرجت الأفواه ألسنتها.

حدث ذلك في العاشر من أكتوبر العام 1980، عند موعد الصلاة الكبيرة، حيث الناس تتخشَّع إلى اللَّه وتتذرَّع، في هذا اليوم من كل أسبوع تكثُر الخُطَب التي تُرفع إلى اللّه عبر مُكبِّرات الصوت اليابانية أو الألمانية القوية، تخترق حُجُب السماء، وكأن اللَّه سبحانه - تعالى - يحتاج إلى مكبر صوت

كي يسمعنا، يستعمل هؤلاء البشر مكبرات الصوت كي يؤكدوا لبعضهم البعض بأنهم ينادون على اللَّـه، نرفع الصوت عاليًا كي نتباهى بأن صوتنا هو من يصل إليه قبل صوت الآخرين، ونتسابق في تغيير مكبرات الصوت من القوي إلى الأقوى وننصبها فوق رأس منارات مساجدنا وعلى سطوح عماراتنا.

غباء، حمق أم نفاق؟

عفوك يا اللَّـه!

لكن في ذلك اليوم ورغم مكبرات الصوت والخطب وتلاوة كتابه المجيد، ونحن سُجَّد تأكد بالبرهان للجميع بأن السماء لا تسمع خطب أهل هذه المدينة، أو ربما لأن اللَّـه في عليائه يدرك ما في القلوب الخافتة الصامتة قبل أن يسمع تلك الأصوات التي ترفع إليه جهرًا من مكبرات الصوت بماركات أمريكية ويابانية وألمانية، ماركات متطورة جدًّا.

صلوات خالية من الصلاة.

بدا لنا وكأن الشمس طلعَتْ من المشرق وعادت إلى سريرها جهة الغرب.

في لحظة كالبارقة، نزل ستار حديدي ثقيل ومخيف كالمقصلة على المدينة الهادئة فحوَّل ساكنتَها إلى يوم الحشر المبكر أو المتأخر، لا أحد يدري.

كنت مقرفصًا إلى جوار والدي ونحن نستمع إلى خطبة الشيخ عبد الحميد البودالي الذي يجيئه المصلون من أحياء المدينة كلها، ويفدُ للاستماع إلى خطبته خلق كثير من قرى ومناطق بعيدة كل جمعة.

يقولون عنه إنه خطيب "مُفوَّه".

لم أفهم ما تعنيه هذه الكلمة: مفوه إلا بعد سنين، ولست متيقنًا بأنني أفهمها!

يُقال عن هذا الخطيب "المُفوَّه" بأنه يرى الرسول محمد - عليه الصلاة والسلام - في المنام كل ليلة الخميس التي تسبق الجمعة، فيُملي عليه نَصَّ الخُطبة شفويًّا فيحفظها عن ظهر قلب، فهو كما يقول ويكرر كل جمعة لجمهور المصلين الغفير: "لا فضل لي فيما أقوله لكم سوى شرف النقل عن سيدنا خاتم الأنبياء والمرسلين".

ويبكي الحضور بالدموع الحقيقية، الورع، الخشوع.

كنت أستمع ولا أفهم شيئًا من كلام الخطيب المفوه، ومع ذلك لا أشعر بأي ضجر بل على العكس كنت سعيدًا لأنني لا أفهم، وعدم الفهم يجعلني أفكر في أخي المهدي الذي أحبه كثيرًا والذي لطالما دافعت عنه في الزُّقاق، وهو الهَشّ الرقيق، خضت معارك عديدة طاحنة، معارك يومية، ضد كل مَنْ تسوِّل له نفسه المسَّ به من أطفال الحي، وانتصرت عليهم جميعًا، أسلت دم الكثيرين وكسرت أسنان الكثيرين، الآن وهو بالمدينة الجامعية بالعاصمة مَن يا تُرى سيدافع عنه من تغوُّل الأشرار هناك؟

أرى أخي مهدي ضائعًا في شوارع العاصمة، والناس من حولي تشهق خشوعًا لكلام الإمام عبد الحميد البودالي المفوه وهو يحدث المصلين عن علامات قيام الساعة، مُذكِّرًا الجميع وبصوت جهوري أسبابها: "أول علامات الساعة أيها الناس هي تفشِّي ظاهرة المِثْليَّة وانتشار التخنُّث بين الصبيان، والعُرْي عند النساء في الشوارع، وانتشار الاشتراكية، تلك هي علامات الساعة التي لا ريب فيها وما أكثر هذه المظاهر في مدينتنا اليوم".

أفكِّر في أخي مهدي، وفجأة زعق شيء من حولنا، من حولي، كالرعد، التفتُّ وأول ما رأيته قبل أن أصرخ وأجري نحو الخارج، لأسقط بين أقدام المصلين الهاربين، هو انهيار جزء من سقف المسجد وسور الفصل الجنسي ما بين النساء والرجال في قاعة الصلاة في هذا المسجد الذي كان كَنِيسًا يهوديًا، وقد كان الجميع يطلقون عليه اسم "جامع اليهود" أيام الاستعمار، والآن حتى وبعد أن تحول إلى مسجد فهم لا يزالون يطلقون عليه اسم: مسجد جامع اليهود.

اختلط السبت بالجمعة.

اختلطت الجمعة بالسبت.

هُرع الجميع إلى الشارع بمَنْ فيهم الإمام المفوَّه في تدافع كتدافُع يوم الحشر.

لم أكُنْ أتوقع ولم أتخيل أن يهبَّ الإمام خائفًا من قدَر اللّه وهو الذي يعرف علامات الساعة جيدًا، ويقول بأن لكل نفس مكتوبها وقدرَها الذي لا يُؤخَّر ولا يُقدَّم.

في الخارج الشوارع هاجرت من الشوارع.

لا سماء فوق المدينة.

سحابة كبيرة كثيفة من غبار غطت كل ما حولنا وما فوقنا واختفت البنايات والأشجار وقطط كثيرة تجري وتجري وتموء، والكلاب الضائعة تنبح في الفراغ.

ضاع مني والدي في الزحام، الظلام ونحن في منتصف النهار، والتفتُّ

إلى مسجد جامع اليهود، السبت في الجمعة أو الجمعة في السبت؟

أحس بأن الضوء رحل من عينيَّ، انطفأتا، مع ذلك ميزت شيئًا يشبه السقف والمنارة وقد هوت في الشارع على رؤوس المارَّة الذين هربوا من الموت إلى الموت؟

أبحث عن والدي في هذا الغبار، فلا أجد سوى الغبار، الناس أشباح والكل يصرخ على الكل، الأرض بلعت المدينة التي كانت واقفةً في شكل بنايات وكائنات وأحلام.

أبحث عن والدي.

أبحث عن نفسي.

جَوٌّ أبوكاليبتيكيّ apocalyptique مخيف، أغبَر ورَمَاديّ بل ولا لون له، بل ويكل الألوان في الوقت نفسه.

اختفت السماء.

فُسَيْفساء الموت.

زليج الخوف البارد المرصع.

ضجيج في رأسي الصغير وأشباح قدام عينيَّ المظلمتين، ضوء أسود!

أفكر في أخي مهدي وأستعيد ما قاله الإمام.

أحاول أن أسترجع أناي وأطرد آخر غريب استوطنني، وأنا الذي هزم كل مراهقي الحي، طرحهم أرضًا واحدًا واحدًا.

أنا مَلِك غبار الحي ورَبُّ الزقاق.

لست أنا الذي في هذا الذي "أنا" فيه، أمر غامض.

أشعر بأني لا شيء أو شيئًا آخر.

أمشي، حيث لا أدري أين أنا ماشٍ، كلما استجمعتُ بعضًا من شظاياي التي تفرقت، الشظية بعد الشظية، كلما رتبتُ قطعة من قِطَع البوزل وأعدتها إلى مربعها الصحيح تضيع قطعة أخرى، حيرة، أستعيد قليلًا من العالم الذي اختفى وأضيِّع كثيرًا من عالمي.

ضاع والدي، وللمرَّة الأولى أشعر بأن الآباء يضيعون في الهلع للأبد كما قد نضيع نحن الأطفال في الأسواق الشعبية لساعات.

ضياع الكبار مأساة وضياع الصغار مغامرة.

مشيتُ ولا أحد سألني عن الطريق الذي أبحث عنه، فلم تَكُن تحت أرجل الناس الهلوعين الذين يلهثون من حولي أي طريق.

فاقدُ الطريق لن يدلَّك على أخرى.

اختفت مدينة الأصنام أو Orléansville كما كان يسميها الفرنسيون زمن الاستعمار من الوجود أو كادت، أصبحت أنقاضًا وقبورًا وبكاء، في هذه المدينة الزراعية وُلِدت وفيها كبرت حتى أصبح طولي مترًا ستين سنتيمترا تقريبًا، كنتُ فَخُورًا بقامتي مقارنةً مع أقراني من التلاميذ الذين يهابون شيطنتي، كبرت كجُرْذ قنوات الصرف الصحي عند مفترق زنقتين شهيرتين بحي كارميلة، من جهة زنقة سليمان الطرَّاح سُمِّيت باسم صاحب الفرن الشعبي التقليدي بها، وهي ممرّ ضيقة بين بيوت متواضعة، لا تمرُّ بها السيارات الميكانيكية ويعتمد الساكنة في جلب أغراضهم الثقيلة ذات الحجم الكبير على استئجار عربات تجرُّها بغال، أو أخرى تدفعها سواعد بعض الحمالين وهي زنقة لا تنام، ومن جهةٍ أخرى زنقة رابح الحرايري سُميت باسم صاحب أشهر مطعم شعبي يرتاده خلق كثير، وهي واسعة نسبيًّا والتي توصل حتى ساحة "الحرية" بأشجارها العتيقة التي تعود إلى ثلاثينَّات القرن الماضي، يُقال إنها غُرست بمناسبة الاحتفالات بمئوية الاستعمار التي أُقيمت في كل المستعمرة بكثير من الابتهاج لدى المُعمِّرين الفرنسيين والأوروبيين، أشجار سَرْو معمرة ذات الظلال الكثيفة التي يأوي إليها الساكنة للمقيل أيام الصيف الحار. كنت أخرج من بيتنا حافيًا، أحب المشي حافيًا حتى وقد بلغت الخامسة عشرة من عمري على الرغم

من غضب أمي على تصرفي الأحمق هذا، حين أمشي حافيًا أشعر بأنني جزء من الأرض، جزء من التراب الذي أسير عليه، هو امتداد لقدمي، أحب الزنقة أكثر حين ألتصق بها من خلال قدمين حافيتين، أشعر وكأنني نابت فيها كشجرة ثابتة الجذور، أتمنى لو أن لي جذورًا تدخل في أعماق الأرض كلما جريت حتى باب فرن مولاي سليمان الطراح، حيث رائحة الخبز الصاعدة في السماء ترفع من درجة شهيتي لخبزة ساخنة مع قطعة زبدة ذائبة فوقها، ومن الزنقة الأخرى تأتي روائح التوابل المنعشة قادمةً من مطعم عمي رابح الحرايري المتخصص في طبخة الحريرة ببهارات عجيبة، لا أحد يعلم من أين يجيء بها، ككل يوم بعد منتصف النهار بقليل، يصطفُّ أمام باب المحل عشرات العمال الذين يعملون بشركة الإسمنت ومصنع الخزف الصناعي الموجودين في مدخل المدينة الشرقية باب الدزاير، على عَجَلٍ يلتهم كل منهم ما في صحنه مع قطعة الخبز الساخنة على عجل وهم وقوف على الرصيف، لا كراسي في المطعم ولا طاولات، ليعودوا لاستئناف عملهم بعد أن يسجل عمي رابح الحرايري في دفتر كبير دَيْن كل واحد، يضع علامة X أمام اسمه دلالةً على تناوله وجبة اليوم، تعوَّد العمال على الدفع مرة واحدة نهاية كل شهر، وذلك بمجرد أن يتمَّ صبُّ رواتبهم في حساباتهم البريدية أو قبضها نقدًا مباشرةً من محاسبي المصنعين.

أمشي حافيًا في الزنقة على ترابها الساخن، فأراني وسط هذا الخراب المريع الذي من حولي، في هذه القيامة التي ليست بالقيامة وليست بالحياة الدنيا، الناس تقوم من تحت الأنقاض في هلع كما يقومون يوم الحشر من القبور بعد أن يُنفخ في الصور، أتذكَّر الزقاقين، أمام هذه الفظاعة الشاملة شعرت بفراغ في داخلي، تجويف، تقلُّص في الأمعاء، جفاف في الدمع، بي رغبة في البكاء

العميق لكن ما نزل الدمع، البكاء كالمطر رحيم بالروح وبالجسد، أردت أن أصرخ متحديًا الاختناق فلم تطاوعني الحبال الصوتية في حنجرتي، شعرت بقدميَّ الحافيتين فوق التراب تعودان لتلتصقا بجسدي، المشي حافيًا الآن لا يشبه ذلك المشي حافيًا في زنقتَي رابح الحرايري وسليمان الطراح. تركت حذائي عند مدخل المسجد الذي انهار، وضعته بجوار زوج حذاء والدي، الجميع يمشي حافيًا، لا أحد يستغرب أن يمشي الناس حُفاة، أول ما استرجعته من ذاكرتي وأنا أمشي حافيًا هائمًا بين حشود الهائمين من خلق لا يشبهون سوى الأشباح، هي رائحة توابل الحريرة ورائحة خبز الفرَّان، أشعر وكأني أعود إلى الحياة من أنفي، بعدها شيئًا فشيئًا استرجعت اسم أمي؛ رحمة، جميل هو اسم أمي، مع أنني لم أفكر يومًا ما في العلاقة ما بين معنى الرحمة كقيمة إنسانية وبين اسم أمي، الآن يخطر ببالي ذلك، لست مُتأكِّدًا بأن أمي قد أخذت اسمها من الرحمة، مرات كثيرة أشعر بأنها شقية وعنيفة وأنانية، هي لا تحمل من اسمها الشيء الكثير، بجهد كبير تمكَّنت من تذكُّر اسم أبي المجاهد عبد اللّه فليتا أو علَّلا فليتا كما يسميه أهل الحي، أخيرًا استعدت اسم والدي وهو الذي ضاعت يدي من يده قبل قليل واختفى في الزحام، وها أنذا أجهد نفسي كي أسترجع اسمي وإذا بأحد أعوان الحماية يشدني من كتفي ويسألني مكررًا: "ما اسمُك يا فتى؟"، قالها بالفرنسية، لم أميز شكل الرجل فقد كنت مركِّزًا على صورة والدي في ذهني خوفًا من أن أنساه أو تسقط صورته من رأسي كما سقطت يده من يدي، الناس في هذا الانهيار الشامل يشبهون البنايات التي تهاوت، يشبهون بعضهم بعضًا، بشر كالأنقاض إنهم جزء من الأنقاض أحياء كانوا أم أمواتًا، كان الرجل الذي سألني شبيهًا بحائط انهار على التوِّ جراء ردة اهتزازية،

لا أراه ولا أسمعه وحين ميزته أو هكذا بدا لي، قلت له: "اسمي حميميد، فليتا حميميد، لم أكن مُتأكِّدًا من اسمي، حميميد أم يونس؟".

يونس هو اسم خالي الذي اختفى، أكله البحر كما تقول أمي بكثير من الحزن كلما تذكَّرت أخاها الذَّكَر الوحيد في الأسرة، البقية وعددهن ثمانية كلهن إناث، تزوجن جميعًا بالتسلسل ولم يُخلِّفن سوى البنات أيضًا.

منظر حطام الأرواح أكبر فجيعة من مشهد حطام الأشياء.

في الأول اختلط في ذهني اسمي حميميد باسم أختي التوأم حميدة، ثم تمكنت من الفرز بينهما بصعوبة بالغة.

حدث معي هذا مراتٍ كثيرة، قبل هذا الحشر وقبل سؤال رجل الحماية المدنية الذي يشبه الحائط المنهار، أنني كلما نسيت اسمي في المدرسة أتذكَّر اسم أختي الذي يحضُرني على الفور فيوصلني إلى اسمي، لست أدري لماذا لم أكُن أنسى اسم حميدة أختي وأنسى اسمي؟ ربما لأنها توأمي ولأنها كما تقول أمي وُلِدت قبلي ببعض دقائق، لذا لا يمكنني أن أنساها فقد تركتني في ظُلمة الرَّحِم وحيدًا بعد تسعة أشهر من العيش المشترك وغادرت إلى الخارج، إلى الضوء وحدها.

ربما لهذا لا أعرف هل إنني أكره أختي حميدة أم أحبها؟

مرات أحبها حدَّ الجنون ومرات أكرهها حدَّ القرف، هي ليست كراهية لكنها نوع من النفور والاشمئزاز الذي يشبه ضيق التنفس.

لماذا تركتني في ظُلمة الرَّحِم مُلقى في سائله اللَّزِج واستعجلت الخروج إلى الدنيا، هي أنانية أختي حميدة!

أصوات سيارات الإسعاف والشرطة تزعق في كل مكان، وفي رأسي أيضًا.

ثلاث طائرات هليكوبتر عسكرية تحوم فوق غيمة كبيرة دَكْنَاء من غبار تراقب الخراب على ارتفاع قريب جدًّا، قريبة من رؤوسنا ومن خوفنا وبكائنًا.

بافتخار، كان أبي عللّا فليتا يروي لنا حكاية أبيه الغريبة، أي جدي، يحدث ذلك كل ليلة عيد الاستقلال وليلة عيد انطلاق الثورة، وفي كل مرة كان يزيد فيها بعض التفاصيل ويُقسم بأنها الحقيقة الحقة، وكنت معجبًا بما يرويه:

في العام 1860 وصل نابليون الثالث إمبراطور فرنسا، نعم الإمبراطور بشحمه ولحمه وحاشيته إلى المستعمرة في زيارة قادته إلى منطقة الغرب الجزائري، حيث قرر الاحتفال ببعض التجارب الزراعية الجديدة في منطقة غيليزان الفلاحية، وعلى رأسها زراعة الأرز، التي تُقام على أراضٍ تعود لأبناء قبيلة فليتا التي منها تنزل عائلتنا، كان والدي بوطالب فليتا ولم يقفل العاشرة من عمره وربما السابعة، يشتغل مُزارعًا في قطعة أرض حرشاء جبلية ناحية قرية رهيو، وتلك كل ما تملكه العائلة، بقية الأراضي الخصبة وضع المستعمرون أيديهم عليها، طردوا منها الأهالي أصلحوها وأخرجوا منها الغلة والأرز والذهب.

وفي يوم الزيارة وبمجرد أن تناهى إلى مسامع الأهالي وخاصة أفراد قبيلتنا فليتا، خبر اقتراب وصول موكب الإمبراطور الرهيب بحرسه وحريمه وعرباته وخيله وباروده إلى باب مدينة غيليزان حتى تجمعوا عند مدخلها، عند باب وهران، رجالًا ونساءً وأطفالًا وفي رمشة عين حاصروه ومنعوا

موكبه من التقدم إلى داخل المدينة، وإذ انتبه نابليون الثالث لهذا الحشد من البشر شبه العرايا يحاصرون عربته وقد ثارت ثائرتهم وكأنما يستعدون للَّهجوم عليه، أُصيب بالهلع، لم يفهم شيئًا من لغتهم، ولكنه أدرك بأن الجموع في غضب، فملامحهم وحركات أياديهم تدل على ذلك، التفت إلى محاسبه والمشرف على صندوق المال المرافق له، وأشار عليه بأن يلقي إليهم ببعض كمشاتٍ من القطَع النقدية كي يتفرقوا، أخرج المحاسب كيس المال ورمى ببعض حفنات من القطع النقدية فوق رؤوسهم لكن الحشد لم يتحرك، لا أحد من المتظاهرين، الأطفال كما الكبار، مد يده لالتقاط قطعة نقدية واحدة من الأرض، ولم يتخاطفوها في السماء كما اعتقد الإمبراطور وأعوانه، بل كانوا يزدادون صراخًا وهيجانًا وتهديدًا مرددين شعارات بالعربية العامية، لم يفهم الإمبراطور فحوى ما يريدونه ومعنى ما يرددونه، استدار نحو حاكم المدينة العسكري الذي على رأس مستقبليه وأمره بإحضار مترجم خاص فورًا كي يفهم ما يطالبون به، وفي الحين تقدم الترجمان العسكري إلى حشود الواقفين وسط الطريق والمعترضين سبيل الإمبراطور وسألهم عمَّا يرغبون فيه؟ فردت امرأة بصوتٍ عالٍ يقف إلى جانبها طفل لا يتعدى السابعة من عمره: أعيدوا لنا أبناءنا وأزواجنا الذين نفيتموهم إلى كاليدونيا، إنهم أكبادنا أيها الإمبراطور، لم يرتكبوا جُرمًا ولا ذنبًا، كُلُّ ما قاموا به هو دفاعهم عن قطع أراضيهم التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم والتي صادرها منهم رجال غرباء جاؤوا من بلاد بعيدة وغريبة، من خلف البحر.

شرح المترجم لنابليون الثالث ما يطالبون به، اصفرَّ وجهه وأشار عليهم

من خلال حركة من رأسه بالإيجاب، وطلب العودة إلى وهران فورًا قبل أن ينزل الليل فيحصل له ما لا تُحمد عقباه.

ظل موقف أبي بوطالب فليتا يُشعرنا بالفخر أننا ننتمي إلى قبيلة فليتا الشُّجاعة، التي قررت اختطاف نابليون الثالث ومقايضة رأسه بقوافل الرجال والشباب الذين رمت بهم الإدارة العسكرية الاستعمارية في مُحتشَد نوميا Nouméa الكائن بواحدة من جزر كاليدونيا الجديدة البعيدة، حتى لا يفكر أحد منهم في الرجوع إلى المستعمرة والمطالبة باستعادة أرضه.

كم ثمن رأس نابليون الثالث يا تُرى؟

هكذا كان أهالي قبيلة فليتا يفكرون وهم يحاصرون موكب الإمبراطور، بحثًا عن مقايضته بإطلاق سراح أبنائهم المعتقلين في مُحتشَدات المنافي البعيدة.

لم تَكُن قوات الأمن رحيمة بالأهالي الذين اعترضوا الموكب الإمبراطوري ولا متجاوبة مع مطالبهم، فمجرد أن غادر الإمبراطور المنطقة عائدًا إلى وهران هجمت قوات محمولة على الخيل مساكنَ ما بقي من أبناء القبيلة، فقتلت بعضهم وجرحت الكثيرين منهم من النساء والشيوخ ولم يَنجُ من الضرب والتعذيب حتى الأطفال.

عاد نابليون إلى وهران ومنها إلى باريس سالمًا ولم يعُد أحد من أبناء قبيلة فليتا من منفاه إلى أهله، كما طالب بذلك المحتجون، وفي اليوم التالي تم إلقاء القبض على جدِّي الطفل بوطالب فليتا، كان في السابعة من عمره مع ثلاثة أطفال آخرين لم يتجاوزوا العاشرة، ربطوا أياديهم بحبل خلف عربة يسوقها بغلان قويان وسحبوهم من مدينة غليزان حتى مدخل مدينة

الأصنام، وتركوهم هناك مثخنين بجراحهم، غير بعيدٍ من وادي شلف، وعلقوا في عنقهم قرارًا عسكريًّا بموجبه يمنع عليهم منعًا باتًّا العودة إلى أرضهم، ويمنع على أهلهم الاتصال بهم أو السؤال عنهم.

مارس جدي بوطالب وهو في عمره المبكر كل المهن، اشتغل راعيًا لقطعان الغنم والبقر لأحد المعمرين لمدة سنوات في ضواحي مدينة أورليئون Orléansville الأصنام، ومنظفًا لحظيرة تربية الخنازير وسقَّاءً يسحب دِلَاء الماء من البئر لسقي المزارع وإرواء الدَّوابّ.

وبعد سنوات من أعمال السُّخْرة والمياومة قادته قدماه صدفةً إلى سوق الصوف الشهير بالمدينة، وكان قدَره أن يتزوج هناك بلالة سلطانة بنت الصوفي، وهي طفلة صغيرة لم تتجاوز الثالثة عشرة من عمرها حين دخل بها، كان صهره هو شيخ الصوف في المنطقة كلها، يملك أكبر محل في سوق الصوف، أصبح بوطالب فليتا يعمل صوَّافًا في محل صهره، ومع كل موعد جَزِّ الأغنام، يحدث هذا في شهرَيْ يوليوز وأغسطس، يدور على مُربِّي المواشي بالأرياف والبوادي لشراء الصوف بثمن رخيص، ليتم غسلها في وادي شلف من قِبل نساء عاملات موسميات يتم جلبهن لهذه المهمة، ثم بعد ذلك تُنقل الصوف إلى محل كبير لتنقيتها مما قد يكون علق بها من بقايا أجسام صغيرة تقوم بها نساء أخريات، لتوضع لاحقًا بين أيدي نساء القرداش والغزل، ثم تُغمر في أحواض الصباغة الموجودة على سطح محل الصوف الكبير في السوق الشعبي من قِبل مجموعة من الرجال ذوي العضلات المفتولة، يدرسونها بأقدامهم حتى تسكنها الألوان جيدًا، بعد أن تجفَّ وتيبَس جيدًا يتم تسويقها إلى مدن بالداخل والخارج،

لكن أغلبها كان يوجه لنساجي بيوت النَّوْل بمدينة تلمسان حيث تُصنع منها أجود الجلابيب والبرانيس والأغطية الفاخرة.

لم يُرزق جدي بذُرِّية إلا بعد أن تجاوز الستين، وهو الذي عاش قرنًا وأكثر، فقد منحته جدتي لالة سلطانة بنت الصوفي بنتًا ثم طفلين ذَكَرَيْن توأم قضى أحدهما في الأسبوع الأول بعد الولادة وعاش الثاني الذي هو أبي.

لكن شيئًا فشيئًا أغواه وهج المدينة بالمغامرة، وقد ملَّ من عالم الصوف الذي فقدَ بريقه ولم تعد سوقه تدرُّ مالًا يكفي لإطعام الأفواه الكثيرة، قرر التحرر من رائحة صوف الأغنام وشعر الماعز، وذات صباح نزل بأزقة مدينة الأصنام وحيدًا بعد أن ترك زوجته لالة سلطانة بنت الصوفي في رعاية أبيها صاحب الزوجات الأربع ودزينة من الأطفال لا يعرف لا عددهم ولا أسماءهم، اشتغل حمَّالًا وكنَّاسًا ومساعدَ خبازٍ شعبي وبائعًا متجولًا للزَّرابي وحارس مقبرة النصارى واليهود، لمرات كثيرة كان يبيت في عراء الشوارع، على الأرصفة أو في مداخل العمارات، تعرَّف إلى اللصوص الصغار والكبار وإلى العاهرات المسلمات والنصرانيات واليهوديات وإلى الفارِّين من العدالة ومن الخدمة العسكرية وإلى المجرمين الصغار والكبار وإلى مُهرِّبي الحشيش ومستهلكيه المرضى، جاع فأكل من بقايا قُمامة المعمرين، ومع ذلك كان وفي كل خطوة، مع كل جرح يحلم أن يغير من عالمه قليلًا.

الشارع مدرسة الحياة الكبرى.

حياة الشوارع لها صُدَفها الجميلة ولها أيضًا هداياها ولها فرصها التي لا يتركها الذكي تضيع من بين يديه.

وكان بوطالب فليتا تلميذ الشوارع الذكي الفَطِن، ذات مساء التقطه أحد الأهالي الميسورين من فوق الرصيف كما يُلتقط قِطٌّ ضائع، وعرض عليه العمل في الحمَّام الشعبي الذي يملكه لما لاحظ عليه من عضلات مفتولة ولياقة جسدية بادية، فراقت له الفكرة باعتبار أن هذا العمل سيسمح له على الأقل بالاستحمام والنوم تحت سقف مأمون، وطعام بسيط مضمون، في انتظار فرصة أخرى، منذ البداية شعر بارتياح لشغله، يستيقظ قبل الفجر بساعة أو أكثر، يوقد نار سخَّان الماء الذي يعمل على الحطب، ينظف الجِرَار الفردية في قاعة الحمام الكبرى ويرتب بيت الصَّوْنَا، ويطوي الفوطات التي تبات منشورةً على السطح كي تنشفَ لتستعمل في اليوم التالي. قبل موعد صلاة الفجر بقليل يبدأ الحمَّام في استقبال أول الزبائن، ومنذ الأيام الأولى تعلم مهمة التكييس، فكان يتولى فرك وتمسيد ظهور الزبائن المُستحمِّين وحَكِّ أطرافهم بقُفَّاز مصنوع من قطعة ثوب حرشاء أو لفَّة نباتية، وبمرور الأيام أسقط الزبائن وكذا صاحب الحمام وبقية العمال عنه اسمه الحقيقي بوطالب فليتا ومنحوه لقب بوطالب الكيَّاس.

كان الحمَّام يعمل أيضًا كمرقد جماعي للغرباء القادمين لزيارة المدينة لقضاء أمر إداري أو قضائي أو تجاري، أو للعابرين الذين لا يستطيعون دفع ثمن غرفة في فندق أوروبي، وكان لبوطالب الكيَّاس هو أيضًا مطرحه الخاص به في آخر الزاوية عند الباب. ينام زبائن المرقد في صفين طويلين، الواحد جنب الآخر على مطارح من إسفنج رطبة بها رائحة مقرفة، وكثيرًا ما كانت تسمع في الليل بعض أصوات وتنهدات غريبة؛ حيث لا يتردد بعض الزبائن في الاعتداء جنسيًّا على بعض المراهقين من أبناء الشوارع، وكان بعض الزبائن المعروفين يجلبون معهم أشخاصًا للمبيت بغرض

الاستمتاع بهم. كان صاحب الحمام على علم بهذه الأمور التي تحصل في حمَّامه وكان يغضُّ الطرف عنها ما دامت السلطات الفرنسية لا يزعجها هذا الأمر، هي أمور غير سياسية وهو ما جعل بوطالب الكياس هو الآخر يغضُّ الطرف عن مثل هذه الأفعال التي كان يقف عليها كل ليلة، كل ذلك خوفًا من أن يُطرد أو تمتد إليه يد هؤلاء، وهو ما حصل بالفعل ذات ليلة، حيث وبعد أن أطفأ القناديل الزيتية وتمدد على سريره وإذا بيد خشنة تمتد لتلامس جسده، وحين حاول التمنُّع امتدت يدٌ أخرى لتضع فوطة على فمه وتخمد صوته، لكنه استطاع أن يفلت من قبضتهم بعد معركة ساخنة، وفي اليوم التالي قرر التوقف عن العمل.

غادر بوطالب الكيَّاس الحمَّام دون أن يخبر صاحبه أو يشرح له سبب ذلك وحتى دون أن يطالب بالمتأخر من راتبه الأسبوعي، بحس غريب قادته قدماه مباشرة إلى مطعم، حانة الاستقبال الجيد "Le Bon Accueil". كان اليوم يوم سبت والمحلُّ غاصٌّ بالزبائن من الرجال والنساء وبعض العائلات بأطفالها، فتقدم من المشرف على المحل السيد بيير لو كليرك وطلب منه إذا ما كان بحاجة إلى يدٍ عاملة تقوم بجلي الأطباق وغسل الأرضية والاعتناء بالحديقة، نظر المشرف بعين متفحصة إلى جدي بوطالب الكيَّاس، وربما لأنه بدا له نظيف المظهر فهو الخارج للتوِّ من حياة الحمَّام، وافق على طلبه ومنحه فترة تجريب، ومن لحظتها بدأ العمل في هذا المطعم - الحانة - الشهير الذي يتوسط مدينة الأصنام، ومنذ اليوم الأول أبدى كثيرًا من الحماس والإرادة، ومكافأة لما أبداه الشاب بوطالب الكياس من نشاط وانضباط في الأسبوع الأول فقد رخَّص له صاحب المحل أن يتخذ له

ركنًا في غرفة التخزين مرقدًا كي يتمكّن من البقاء حتى آخر الليل والبدء صباح اليوم التالي مبكرًا.

في مطعم الاستقبال الجميل هذا الجو مخالف تمامًا لما هو عليه في الحمام الشعبي، الزبائن هنا كلهم من الأوروبيين على عكس الحمام فزبائنه جميعهم كانوا من الأهالي الريفيين أو من مُشرَّدي المدينة ولصوصها.

في مطعم الركن الجميل، ولم تمضِ على وجوده فيه سوى بضعة أسابيع، تذوق بوطالب الكياس أول جرعة بيرة، هي الحياة هكذا، كل شيء فيها إلا وله بداية، المرة الأولى لها مذاق خاص، المرة الأولى لا تُنسى أبدًا، في السفر والخمر والسيجارة ومعاشرة النساء، حدث معه ذلك في تلك الليلة حيث كان يجمع القناني الفارغة من فوق طاولات الزبائن، يحملها إلى المطبخ، يضع كأسًا فارغة جانبًا فوق الطاولة بالمطبخ ثم يصبُّ فيهما ما قد يكون تبقَّى في قاع القناني من بعض القطرات، حين تجمعت له كأس شبه ممتلئة شربها، فانتشى، كانت نشوة الخمر الأولى، نشوة الحياة الجديدة.

كان بوطالب الكيَّاس سعيدًا بعمله في هذا المطعم الغامر بالحيوية والاحترام، حيث الجميع يعرف الجميع، جو يكاد يكون أسريًّا، الواحد ينادي الآخر باسمه الصغير، وبسرعة تحسَّن حديثه بالفرنسية، بعد أن كان قد سبق له أن تعلم بعض الكلمات حين عمل راعيًا في مزرعة المُعمِّر البرتغالي السيد ألبيرتو سيليكتو وتعلم أخرى من عالم التشرد والمخافر، أما هنا فالفرنسية مغايرة تمامًا، بدأها بتعلُّم العبارات المرتبطة بطقوس العمل وبشكلٍ خاصٍّ تلك المرتبطة بأصول الاستقبال من عبارات الترحيب والتوديع والتقديم والاعتذار والمجاملة، وشيئًا فشيئًا تعلم أسماء الأنبذة

وأنواع البيرة واللحوم والأسماك وأسماء الوجبات الفرنسية والإيطالية والإسبانية والمالطية.

كان السيد بيير لو كليرك راضيًا على ما يقدمه بوطالب الكياس من خدمات متميزة، كما أن الزبائن لم يبخلوا يومًا بالثناء عليه، حتى أصبح أفضل عامل في المحل، لا يحدث أمر في المطعم إلا بعد استشارته، فهو مَن يسهر على راحة الزبائن والزبونات ومراتٍ لا يتردد في أن يسليهم بأن يروي لهم بعض حكاياته الليلية السخيفة في الحَمَّام الشعبي، فكانوا وهم في قمة نشوتهم يقهقهون نساء ورجالًا، وكان الجميع سخيًّا معه، في آخر كل سهرة يمنحونه بعض قطع نقدية، لم يتغيب يومًا واحدًا عن عمله، حتى حينما يُصاب بوعكة فصلية كان يكابر ويظل بَشُوشًا وخَدُومًا حتى آخر نَفَس من الليل.

كانت النساء لا يترددن في مغازلته في حضور أزواجهن غَزَلًا خفيفًا، ولا أحد ينزعج أو يتحرَّج لذلك، أصبح بوطالب الكياس لا يتردد في تقبيل بعض الزبونات المعتادات على المحل على وجوههن، يعانق هذه وتلك دون حرج. في ظرف خمس سنوات من العمل الجاد أصبح بوطالب الكياس شخصية محبوبة ومُقرَّبة من قِبل جميع رواد وعمال مطعم، حانة الاستقبال الجيد "Le Bon Accueil". كل شيء في المطعم يدور بأمره، لا يحدث أمر إلا ويُذكر اسمه ويُسمع رأيه فيه، يُستشار في كل صغيرة وكبيرة من قبل مالك المحل، وهو من يشرف على تفاصيل المطبخ انطلاقًا من رَكْن العربات مرورًا بالتسوق لشراء السمك أو اللحم الممتاز أو طريقة تبريد البيرة، وصولًا إلى كيفية توزيع الزبائن على الطاولات كُلٌّ حسب

مكانته الاجتماعية والعسكرية ودرجة علاقته بالسيد بيير لو كليرك، وإذ تعمقت العلاقة الحميمة بينه وبين جميع الزبائن بات يخاطب بعض الزبائن والزبونات بأسمائهم الصغيرة.

حدث ذلك وما كان له أن يحدث!

لكل أمر مهما طال نهاية!

كانت سهرة ساخنة تلك الليلة الطويلة، استهلك فيها بعض الزبائن مشروبات كحولية بكمية زائدة، هي ليلة رأس السنة الجديدة، موسيقى وأكل وشراب وأفراح، توديع سنة واستقبال أخرى، وفي غمرة هذه البهجة لعب الكحول برأس امرأة جميلة لعبه، كانت بصحبة زوجها الضابط العسكري وكالعادة ساعدها بوطالب الكيَّاس للوصول إلى بيت الراحة لكي تُفرغ ما في بطنها، وهي عملية عادية تحدث وباستمرار مع زبائن المحل في كثيرٍ من السهرات، هذه المرة كانت السيدة تمشي متعثرة مستسلمة في ارتخاء جسدي كامل بين أحضانه، وحين وصل بها إلى حوض المغسلة أفرغت ما في بطنها دفعة واحدة، بعد لحظات شعرت بقليل من الراحة، نظرت إلى وجهها في المرآة وهو لا يزال يحيطها بذراعيه خوفًا عليها من السقوط، مرَّرت بكفِّها المبلل على وجهها، انتعشت قليلًا، ثم انتبهت إلى ذراعيه المشعرتين وهما تمسكان على كتفها وخصرها، فاستدارت نحوه وبطريقة مفاجئة قبَّلته بعنف على فمه واحتضنته بحرارة والتصقت به أكثر، أراد أن يتخلص منها بتهدئتها وإعادتها إلى حالتها الطبيعية لكنها لم تترك له الفرصة، وإذا بزوجها يدخل عليهما وهما في وضعيَّة ساخنة، فلم يتمالك الضابط أمام المشهد المثير، فصفع بوطالب الكياس حتى أسقطه أرضًا وانهال عليه

ركلًا، وهو يُقسم بأنه سيقتله، بحث عن المسدس فلم يجده، لحُسن حظه فقد تركه في جيب المعطف المعلق على المشجب بعيدًا عند المدخل.

وهو ممدَّد على أرضية الحمام عند قدم المغسلة، تذكَّر بوطالب الكياس عسكر الإمبراطور نابليون الثالث، وهم يسحبونه من يديه المربوطتين إلى العربة بحبل طويل ويجرونه من غليزان حتى ضفة وادي شلف صحبة ثلاثة أطفال آخرين.

ومن لحظتها غادر مطعم - حانة الاستقبال الجيد - ولم يَعُد.

يُقال إنه اختفى في العاصمة خوفًا من أن يعثر عليه الضابط فيسكن ببرودة سبع رصاصات في رأسه.

"مات بوطالب الكياس هاربًا ولا أحد عرف متى مات ولا كيف ولا أين دُفن".

وإذا انتهى أبو عبد اللّه فليتا من رواية تفاصيل قصة جدي، أي أبيه الذي قفل قرنًا وأكثر في الحياة وهو في كامل قوته العقلية والجسدية والجنسية، بدت على أمي ملامح غضب لا أحد عرف مصدرها، فأنزلت على الفور إطارَي البكباشي جمال عبد الناصر ومصطفى كمال أتاتورك من مكانيهما، حيث كانا معلقين على جدار الصالون منذ أن وعيت هذا العالم، ولفتهما في فوطة كبيرة وأخفتهما في دولابٍ لَوْحيّ من جهاز عرسها وأدارت المفتاح بإحكام دورتين أو ثلاثة.

ونظرت إلى أبي نظرة غريبة.

أنا الجرو بألقاب متعددة!

أنبح فيدخل جميع الأطفال بيوت أهلهم.

أنا ملك غبار الزقاق.

بمجرد أن علم أبناء الحي بتفاصيل قصة والدي مع رجال الأمن وأن اختفاءَه كان بسبب اسمي حميد، أسقط الجميع اسمي الحقيقي من ألسنتهم، واختار لي كل فريق اسمًا رآه لي مناسبًا، فأصبح البعض يناديني باسم جدي الأول بوطالب الذي أراد اختطاف الإمبراطور نابليون ملك فرنسا في غليزان وهو لم يتجاوز السابعة من عمره، وإثر ذلك جُرجر حتى وادي شلف مربوطًا كالجرو بحبل إلى عربة يجرُّها بغلان قويان، أما حنة منصورة فكانت تناديني باسم النِّمس، وهو الاسم الذي يناسبني كثيرًا، وأما سليمان الطرَّاح فكان يدعوني بـ"خو اختو" (أخ أخته)، وأصبحتُ الواحد بأسماء كثيرة، كانت نانا منصورة تعلق على كثرة أسمائي قائلة: "تريد أن تكون مثل اللَّـه في تعدد أسمائك، وحده اللَّـه الواحد القهار بلغت أسماؤه التسعة والتسعين!".

والدي سيدي عبد اللَّـه بن سيدي بوطالب فليتا كان الاستثناء، إذ لم يتنازل عن اسمي، لم أسمعه مرة واحدة ينادي باسم آخر غير اسم حميد،

أما أمي ومن لحظة عودة والدي وسماعها لقصة التوقيف وحكاية الصرصور فقد وجدت لي اسمًا عزيزًا عليها، ألصقت بي اسم يونس، والذي فرضته على أخواتي جميعًا، فما إن يناديني أحد أفراد العائلة باسم حتى تصححه صارخة: "يونس، قلت لكم يونس". وتواصل الشغل الذي كانت فيه وهي تسبُّ أبي على اختيار اسم حميميد.

ويونس هذا هو اسم خالي الذي لا تتوقف أمي لالة رحمة عن ذكره والبكاء المتواصل عليه، لا يمضي يوم واحد دون أن تتذكره، وقد قضى غرقًا في البحر الذي ليس بعيدًا عنًا، على بُعد كيلومترات قليلة في الجهة الأخرى من تلة البيَّاضة، مع أن يونس هذا وكما يشهد الجميع كان صيادًا متمرسًا وسبَّاحًا ماهرًا، فقد خدعته أمواج البحر الغدارة في ليلة خريفية غريبة ميزتها عاصفة هوجاء اقتلعت الأشجار من جذورها، ورمت بالقوارب الراسية على الميناء في كل اتجاه، يقول بعض الصيادين من أصدقائه الذين كانوا بصحبته في تلك الليلة بأنه أراد تحدِّي العاصفة والسخرية من الأمواج التي بحجم الجبال فدخل البحر وهو سكران، لم يَكُن سكرانَ كثيرًا لكنه كان كذلك، لكن أمي كذَّبت هذه الرواية فهي تنفي أن يكون أخوها شاربًا لشراب يحرِّمه الدين ويشربه الفرنسيس، وأكدت بأن أخاها قد اختاره البحر عريسًا لحوريَّة من حورياته، فالبحر لا يختار إلا الأكبر والأجمل والأقوى والأذكى زوجًا لكائناته الغريبة والجميلة والمجنحة، وكان يونس كذلك.

رجل لا كالرجال! لا تتوقف أمي عن ترديد هذه العبارة.

يعجبني اسم يونس كثيرًا، يحمل إيقاعًا موسيقيًا جذابًا، أشعر بأنه خُلق لي فسرقه مني خالي الغريق، إنه لباسي الذي يليق بي، على مقاسي، وبمجرد

أن سكنتُ اسم يونس تقمصت خالي، وأصحبت أنا الآخر، مغرمًا بالبحر حتى دون أن أراه بأُمِّ عيني، وحين وقعت على صورة البحر للمرَّة الأولى في كتاب نصوص القراءة المدرسي المخصص للسنة الثالثة ابتدائي دهشت وزاد حبي له، وفي تلك الليلة حلمت بالسباحة في الصورة التي كانت مليئة بالأمواج العاتية! تخيلتها بحجم الأمواج التي أغرقت خالي، وفي الصباح حين قصصتُ على أمي حُلْمي وسباحتي في صورة البحر الذي في كتاب نصوص القراءة، صرخت وبكت وأقسمت أن تمنع عليَّ العودة إلى المدرسة، لكنها نسيت قسَمها بعد أن هدَّأ والدي من روعها، وضحك منها وهو الذي لا يعرف كيف يصنع الضحكة، على كل فقد قهقه، أصدر صوتًا ما من فمه، والتحقت في اليوم المُوالي بمدرستي كالعادة، لكن عيونها ظلت مفتوحة على كتاب القراءة، ونظرًا لإعجابي الكبير بصورة البحر فكلما فتحت الكتاب للمراجعة أقلب أوراق الكتاب بسرعة وأذهب مباشرة لأتأملها، فأتخيلني مستمتعًا بالسباحة فيها، وكانت أمي تمنعني من مشاهدة هذه الصفحة والتوقف عندها. حصل ذات يوم وأن فاجأتني وأنا أحاول رسم صورة البحر على ورقة حُرَّة مُقلدًا صورة الكتاب، صرخت فيَّ، جُنَّ جنونها، مزقت صورة كتاب القراءة ومزقت أيضًا ما كنت أحاول تصويره، وبكيت كثيرًا، وهو ما زاد من لهفتي للذهاب للقاء للبحر الحقيقي بمائه وملحه وموجه.

الذهاب للبحر أم للغرق؟

ظللت أحب البحر دون أن أُفصح لأمي ولكنها كانت تقرأ ذلك في تصرفاتي التي أصبحت كما تقول، تشبه تصرفات أخيها يونس الذي كان

أصغر منها ببعض سنوات، والذي لم أعرفه سوى من خلال حكاية الغرق التي تحكيها أمي كل مرة بشكلٍ مختلف، وتبكي بشكلٍ مختلف أيضًا.

لأمي فَنُّ البكاء!

كلما زاد شغفي بصورة البحر في كتاب نصوص القراءة المدرسية، كنت أشعر وكأنما أمي ندمت إذ أطلقت عليَّ اسم أخيها يونس المغامر الغريق السِّكِّير، فها أنذا بُليت بما بُلي به أخوها يونس، وأصبحت تخشى أن يحصل لي ما حصل له، وهي على الرغم من افتخارها الكبير بأخيها لا تريدني أن أكون مثل هذا الأخبل، وكلما أحسست بأنها نادمة على إطلاق اسم أخيها عليَّ كنت، في المقابل، أزداد حُبًّا لاسم يونس وأبتعد أكثر فأكثر عن اسمي حميد.

أنا حميد الصرصور هكذا كان أطفال حي كرميلة يسمونني خفية!

أنا لا أريد أن أكون رئيسَ دولةٍ مثل حميد بن بِلَّة كما كان يريدني أبي أنْ أكون، ربما، أنا أتحرَّق رغبةً في أن أكون من ريَّاس البحر، بحَّارًا في أعالي المحيطات، أقطع الماء سباحة على الظهر من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي.

حميد الصرصور قادر على كل شيء.

كانت أمي تخاف أن توصلني هذه المدرسة الملعونة بكتبها المصورة تصويرًا مثيرًا إلى حب البحر، فأغرق فيه كما غرق خالي يونس ذات خريف.

وبقدر ما كانت أمي حريصة على قطع كل ما قد يربط حياتي بالبحر، حتى لا أرمي نفسي فيه يومًا فيبلعني كما فعل مع أخيها، كنت أحلم أن

أكون في مستقبلي المهني رُبَّان سفينة أعيش عليها طول حياتي وهي تمخر المحيطات بدلًا من العيش على اليابسة التي لا متعة عليها ولا فيها، لم أَكُن لأُفصح أمام أمي بمثل هذه الرغبة المجنونة، ولكني كنت مُستعدًّا لفعل كل شيء من أجل ذلك.

أصابتني لعنة خالي يونس!

لو أن أمي علمت ما يدور برأسي من شغف بالبحر لمنعت عني حتى كأس ماء الشرب كي لا أفكر في السباحة فيه!

مع كل صباح جديد كان حب البحر يكبر فيَّ ويعظُم وعوالمُه وأسرارُه وكائناته تسكنني بقوة وإلحاح، تستعمرني، حين كبرت قليلًا، خلسة عن أمي التي انشغلت كثيرًا بحالة أختي التي أصاب ساقها اليُسرى مرضٌ غريب، بدأت أقرأ بعض القصص عن البحر، كنت أُحضرها من مكتبة خاصة برجال الدين المسيحيين الواقعة غير بعيد من فرن سليمان الطراح، في آخر ذلك الزقاق الضيق الذي لا تعبره السيارات، مكتبة لا يزورها إلا بعض الشيوخ وعدد من الأساتذة والمعلمين المتقاعدين، تعبق منها رائحة غريبة ومثيرة تشبه الخليط ما بين رائحة الرطوبة والفانيلَّا والقرنبيط المسلوق، مع ذلك كنت أحب هذه الرائحة القوية الهجينة، كانت السيدة جانين غروطو المشرفة على المكتبة والتي تبدو قد تجاوزت الخمسين أو هكذا كنت أتصورها، والتي لا تُرى إلا بمِئْزَر أبيض ناصع نظيف وشعر ملفوف مغطى بمنديل أبيض حليبي وصليب من فضة ينزل بين نهدين ممتلئين منتصبين كنَهدَيْ مراهقة، تستقبلني كلما قادتني قدماي إلى هذا الفضاء الخاص بالكبار بابتسامة وحب وحنان، كانت الفرحة مرتسمة في

عينيها دائمًا، كلما دخلت المكتبة كانت تدعوني إلى الفضاء الداخلي، إلى ما خلف الكونتوار الفاصل ما بين قاعة المطالعة ومخزن الكتب، كنت أقف حائرًا بين الرفوف الخشبية الكثيرة العالية والمليئة بالكتب الكبيرة المخيفة، المجلدات ثم المجلدات ثم المجلدات، كلما وُجدت في هذا المكان الغريب أقول بيني وبين نفسي: من يقرأ جميع هذه الكتب سيُجنُّ لا محالة.

بكثير من اللباقة والرقة تدعوني السيدة جانين غروطو للجلوس على كرسيٍّ من خشبٍ عتيق، عليه وسادة رطبة من الصوف ومن فوقها جلد أرنب بوبر نقي مثير، تهمس لي بفرنسية قائلة: "ما الكتب التي تريد قراءتها يا يونس؟" يعجبني نطقها لاسمي يونس، فأجيبها: "القصص التي تحكي عن البحر والبحَّارة!" أقول ذلك وأنا أتصور رد فعل أمي لو أنها سمعت إجابتي الوقحة هذه، بهدوء تختار لي كتابًا من تلك الكتب الجميلة والمرسومة بعناية وذات الأغلفة المصنوعة من الورق المصقول والمقوَّى، تضعه بين يدَيَّ، أغرس نظري في الكتاب، أقلب الأوراق بسرعة باحثًا عن صور البحر، بسرعة أقع عمّا أبحث عنه، وأتخيَّلُني في أعماقه تارةً وفوق موجه تارةً أخرى، أحب زرقته، بهدوء وفي غفلة مني تدخل السيدة جانين غروطو يدها الرقيقة ما بين قميصي وجلد ظهري، وأنا غارق في البحر، بين الحين والآخر أشعر بأناملها الناعمة تتحرك خلف رقبتي لتنزل برفق حتى ما بين لوحتَي الكتفين، إحساس غريب يسري في جسدي كله تذبذب في رُكبتي.

هل كل مَن يقرأ كتبًا عن البحر يشعر بأنامل تداعب جلد ظهره؟

أنا حميد الصرصور، أشعر بأنامل جانين غروطو الناعمة تلامس ظهري فأتذكَّر حكاية صرصور والدي وهو يلعب فوق ظهره!

أفكر في غرق خالي يونس السباح الماهر، وأقول له: ها أنا الآخر أغرق يا خالي، من مكاني هذا شبه المظلم بين الرفوف العالية والمخيفة، أسمع حوار بعض الشيوخ في قاعة المطالعة يتحدثون عن أسعار الزيت والسكر النادر وأكذوبة نزول الإنسان الأمريكي فوق القمر، واجتماع قادة وزعماء عدم الانحياز وهزيمة بعض أندية كرة القدم في منافسات كأس الجمهورية، وملئهم لخانات أوراق اليانصيب الرياضية كل أسبوع دون جدوى. تقلب جانين غروطو صفحات الكتاب الملون المفتوح أمامي على الطاولة وتقرأ لي أو عليَّ، تعود أناملها الرقيقة لتمرَّ على صدري هذه المرة، وتنزل قليلًا تحت السُّرَّة، هل كل من يحب البحر يشعر بأنامل ناعمة تداعب صدره وأسفل بطنه؟ أفكر في ذلك وفي الوقت نفسه أفكر في الأمواج التي خطفت خالي يونس وفي حركات صرصور زنزانة والدي.

الحوت لا يأكل يونس يا خالي يونس؟

وأقول لجانين غروطو: هل يغرق البحَّار الكبير المتمرس على رقص الأمواج؟ لا تجيبني وأشعر بها تغرس أظفارها قليلًا في جلد ظهري دون أن تؤلمني.

أدقق النظر في الكتاب وأتتبَّع حركات أنامل جانين غروطو وهي تصل نهاية أسفل البطن، وأتيقَّن بأن البحر قادر أن يُغرق الإنسان حتى وهو على شكل صورة على صفحة كتاب ملون بغلاف مُقوّى، أمي معها حق، البحر يغرق في الواقع وفي الصور كذلك.

إني أغرق، إني أغرق.

تتركني جانين غروطو لبعض اللحظات، أظل مُتسمِّرًا على الكرسي فوق جلد الأرنب بين الرفوف العالية المخيفة والمحملة بآلاف الكتب، فجأة يقوم الأرنب من الجلد الذي أجلس عليه، ويسير بين الرفوف باحثًا عن شيء يأكله، أراه، إنه جائع، تختفي جانين غروطو لتلبية طلب أحد القراء الراغبين في إعادة كتب والبحث عن أخرى جديدة، تقوم بالواجب بسرعة وبمهنية واحترام، تتسلم الكتب القديمة وتعير أخرى، يفرح القارئ، يزهو، من مكاني وأنا أراقب حركة الأرنب أسمع عبارة التوديع والشكر المتبادلة بأدبٍ عالٍ وبصوتٍ رقيق، تعود السيدة جانين غروطو إليَّ فيختفي الأرنب ذو الألوان البديعة، يختفي في جلده الذي أجلس عليه: أسألها وأنا لا أزال غارقًا في صورة البحر، هل تُحسنين السباحة في البحر، البحر الحقيقي؟ هل تذهبين إلى الشاطئ كما يفعل يونس خالي الذي قضى غرقًا؟ تبتسم لكلامي ولا ترد، أنظر إلى صليبها المصنوع من فضة برَّاقة، فأخاف أن ألمسه فأنسى على الفور ديني وأنسى رسوله محمد - عليه الصلاة والسلام - ويكون مصيري جهنَّم كما يصفها لنا معلم اللغة العربية والتربية الإسلامية، تظل جانين غروطو صامتة لا تجيب وتعود أصابعها الرقيقة لمداعبة شعري المجعَّد وهي تقرأ لي بعض المقاطع عن البحر من قصيدة المركب السكران لرامبو، الكلام معقد والمفردات صعبة، تحاول أن تشرح لي بعض الأبيات: بحر ومراكب وأمواج وشطآن وأسماء أسماك كثيرة وغرق، لا بحر بدون غرق، شيئًا فشيئًا تشرع في فَكِّ أزرار قميصي الواحد بعد الآخَر، أستسلم، أغرق، رامبو والمركب السكران وأنا والأرنب الذي خرج من الفروة التي أجلس عليها ها هو يتمسح بقدمي، أستسلم للسيدة جانين غروطو صاحبة الصليب الفضي وأشعر بصوتها متقطعًا متهدجًا وأنتظر منها أن تجردني من

ثيابي كاملةً كي تلقي بي عاريًا في البحر الذي على صورة الكتاب الملون والذي من فوقه المركب السكران لرامبو، مَن يدخل البحر عليه أن يكون عاريًا!

سيأكلني الحوت كما أكل خالي يونس الذي أحمل اسمه، أنتظر قدَري، رامبو لم يَمُت في البحر ترك مركبه السكران على البحر وهاجر إلى اليمن، السيدة لا تلقي بي في البحر ولكنها تُقبِّلني على فمي، هل يجب أن يُقبَّل الغريق على فمه قبل أن يُلقى به في البحر؟ أشعر بمذاق يشبه مذاق العنب الحامض قليلًا في فمها، لسانها في فمي، أنفاسها تتصاعد بوتيرة عالية كأنما هي تصارع أمواج البحر قبل لحظة الغرق، إنها تستقل المركب السكران لرامبو بعد أن تركه وهاجر إلى اليمن للتجارة في الأسلحة والقهوة والمُخدِّرات والبشر، أحتضنها وأشعر أنا الآخر وكأنني أصارع أمواج البحر من فوق المركب السكران لرامبو، يسقط الكتاب من فوق حجري، فتُخرج عُضوِي الصغير وتبدأ في اللعب به بلسانها، يناديها صوت من الخارج، تلملم لباسها بسرعة البرق وترتِّب خِمَارها على شعرها وتعيد وضعية صليبها الفضي من حول عنقها وبين نهديها، وتجيب: "أنا هنا..".

تغيب للحظات، تقوم بالواجب المهني، وتعود لي، ومرة أخرى تسافر أناملها الرقيقة فوق كل جسدي، تتصاعد أنفاسنا كأنفاس غريقين، تشهق، يتراخى جسدها فتستند على الرفوف، تلتقط أنفاسها، تُقبِّلني على فمي ثم تُزرِّر قميصي وتمشِّط لي شعري، وترافقني حتى القاعة الكبيرة أغادر المكتبة كمَنْ بدأ أول درس في فَنِّ العوم.

غادرت المكتبة وأنا فوق المركب السكران! من يومها لم أَزُر المكتبة، كنت خائفًا من أنني إن عدت ثانية إلى هذا المكان ستلتهمني جانين غروطو بدءًا من حِجْري.

مهدي هو أخي الأكبر، هو الذَّكَر البِكْر، أطلق عليه أبي اسم المهدي تيمنًا باسم المناضل المغربي اليساري المهدي بن بركة، أبي رجل ثوري ضد كل أشكال الملكيَّات، اشتراكي حتى النخاع، وَفيٌّ لحزبه حزب جبهة التحرير الوطني.

تبدأ مشاكل أبي من اختيار الأسماء التي يطلقها على أبنائه، يبدو أنه كان معجبًا بشخصية هذا المناضل اليساري الثوري وبمواقفه السياسية وبمعارضته الراديكالية للنظام الملكي الرأسمالي، كان يرى فيه المناضل الاشتراكي الأمازيغي الأصيل والنموذجي.

لم تكُن حنة منصورة تؤمن بكذبة المهدي بن بركة السياسية التي يدافع عنها والدي، كانت لا تتوقف عن تنبيه الجميع بأنها هي مَنْ أطلقت اسم مهدي على الطفل البِكْر استمطارًا لبركة سيدنا الخَضِر، أي المهدي المنتظر الذي سيطلع ذات يوم من قبره الذي يستريح فيه مؤقتًا ليقودنا أفواجًا إلى الجنة، وكانت سعيدة أكثر من أي أحد في الأسرة بهذا الاسم الذي أعطاها طاقة كبيرة وبدت كأنها صغرت بسنوات.

كلما كبر أخي في اسمه يومًا صغرت حنة منصورة في عمرها يومين.

كانت حنة منصورة تؤمن إيمانًا لا يُناقش بظهور المهدي المنتظر، وكانت

تقول سيعود قبل أن أموت، سأراه بأُمِّ عيني بلحمه وشحمه قبل أن أغلقهما إلى الأبد، سأصلي خلفه يومَ يؤمُّ آخر صلاة على الأرض يجتمع فيها خلفه المسلمون والنصارى واليهود.

يعجبني تفاؤل حنة منصورة، وتعجبني الجنة كما ترسمها.

في الحقيقة، لم تكُن حنة منصورة جدتي لأمي ولا جدتي لأبي، هي امرأة منذ أن كبرنا وجدناها تعيش معنا في هذا البيت الواسع وبهذا العمر الذي لم يتغير، ولأنها أكبرنا جميعًا، أو هكذا كانت تبدو لنا، فقد كان الجميع في البيت كما في الزنقة يناديها: حنة أي جدتي.

لم يسأل أحدٌ منا يومًا من أين جاءت حنة منصورة ولا كيف وصلت إلى هذه المدينة ومن ثمَّة إلى باب منزلنا، وهي التي تبدو من لغتها القبائلية بأنها قادمة من منطقة بعيدة، حتى حين تتكلم اللَّهجة المحلية تفضحها لكنتها الغريبة والجميلة، كنت أحب طريقتها في الكلام، فهي تتكلم مثل الأجانب ولكن بحنان فائق، ومع ذلك كانت لها سُلطة كبيرة على الجميع، لا أحد يرد لها طلبًا ولا أحد يعارضها في رأي.

الغريب له سُلطة غامضة على الأهلي.

لم أشاهدها يومًا تصلي ولكنها كانت أكثر حرصًا من الجميع على الصلاة!

حنة هي مَن يحدد مواعيد الأعراس والحنَّاء ومواعيد الختان لكل أبناء الحي، لها ذاكرة غريبة، تعرف أسماء أطفال الحي جميعًا وتسأل عنهم واحدًا واحدًا.

كنا نحبها على الرغم من صرامتها، حب مشوب بخشية غير مفسرة،

لم أشاهدها يومًا تضحك، لم أشاهدها يومًا تبكي، عاشت بملامح منبسطة، لا مُقطَّبة ولا منفرجة، امرأة نظيفة، تعتني بجسدها عناية تصل حد الهوس، تغسل رجليها قبل أن تنام، تستحم الحمَّام الكبير كل يوم أربعاء، لماذا يوم الأربعاء؟ لا أحد يمكنه أن يشرح ذلك، حنة امرأة أنيقة تحب في ملابسها اللونين الأبيض والوردي.

يُقال في حي كراميلة إنها حجت مرتين، لكن لا أحد يمكنه تأكيد هذا الخبر ولا نفيه، ولا أحد في الحي يتذكَّر شيئًا عن ذلك، ولا أحد لاحظ بأن حنة منصورة غابت أكثر من ليلة أو ليلتين عن بيتنا منذ أن دخلته، والجميع يعرف بأن الحج يتطلب غيابًا يفوق الشهرين وهو حدث لا يمكنه أن يمرَّ بصمت أو بنسيان في المدينة وفي حيِّنا الشعبي هذا، بين الوهم والهوس يحدث أن تُخرج نانا سبحتها الكهرمانية الغريبة وتبدأ في التبتُّل بلغتها القبائلية، تنظر إلينا قائلة: "هذه السبحة جُلبت من مكة المُكرَّمة"

لا أحد يعلق، كنَّا مراتٍ نضحك من كلامها، فلا أحد كان مؤمنًا بهذه الخرافة.

لم يُنادِها يومًا ما أحدٌ في الحي بلقب الحاجَّة.

بقدر ما كانت حنة منصورة مفتونة بسبحتها وبقدميها الجميلتين، تلاعب حبَّاتها بين أصابعها، كان أبي مأخوذًا بسيرة المهدي بن بركة الذي اختفى في نفس السنة التي وُلدت فيها، كل صفات الأنبياء والمناضلين الكبار يُصبغها عليه حتى إنني كنت أعتقد بأنه أحد رفاقه في الثورة أو إنه أحد أقاربه الذي فرَّقت بينهما السنون أو الجغرافيا أو السياسة.

كانت أمي لالة رحمة تكره السياسة وتحب الأعراس ولعبة الفنتازيا بالبارود الحي، وتحب مرآتها وتصبغ شعرها بالحنَّاء الحمراء مرة كل أسبوع، وكانت معروفة في الحي بإتقانها صناعة الطبول من جلد البقر.

لم تَكُن ترتاح لسماع سيرة المهدي بن بركة واختفائه واغتياله، والتي لا يتوقف عن ترديدها والدي كلما سمحت الظروف، وكان يخلق لحكايته ظرفها الخاص حين نجتمع حول مائدة العشاء أو حول قهوة ما بعد الظهيرة، كانت أمي تعتقد اعتقادًا راسخًا بأن اللعنة التي لحقت بأخي مهدي سببها هذا الاسم المشئوم الذي ألبسه إيَّاه أبي.

يكبُرني مهدي بثلاث سنوات وبضعة شهور، كان طفلًا رقيقًا شفيفًا، منذ صِغَره يتحدث بصوت خافت ورخيم يشبه صوت غناء الكناري، أو حفيف احتكاك قطعتين من الحرير الراقي والأصيل على كتفٍ عارية. كان مهدي كائنًا جميلًا أجمل مني بكثير، وُلِد بشَعْر قسطلي وعينين بلون اللوز المائل إلى الزرقة أو الخضرة، في حين جئت أنا بأنف مفلطح وبشرة دَكْنَاء وشعر مجعد وعينين بدون لون.

أخي مهدي قليل الكلام، سخيّ الابتسام، كنت أحب سماع صوته الرخيم، كلما تحدث لست أدري لماذا أشعر بارتخاء داخلي وعلى الفور تشدني رغبة شديدة في التبوُّل أو البكاء.

كلما تكلم مهدي ذكَّرني صوته، لست أدري لماذا أيضًا، بصوت مؤذن الفجر الشجيّ، الوحيد في حيِّنا والأحياء المجاورة حيث تنتصب عشرات الصوامع الذي لا يستعمل مُكبِّر الصوت في رفع الأذان، وكان الجميع يسمعه ويُعجب به أكثر من أولئك المؤذنين الذين يصرخون في مكبرات صوت

عالية القوة والمنصوبة على أسطح المساجد والبنايات العالية المحاذية له.

صوت هذا المؤذن الجميل جعل المُصلِّين يفضلون الصلاة بمسجده عن المساجد الأخرى في الحي وما أكثرها، في كل حي بالمدينة ثلاثة مساجد على الأقل، وهو ما أثار غيرة كثير من الأئمة والمؤذنين فكانوا يخفون له غَيْرةً كبيرة.

لم أكُنْ أعرف بأن بين المؤذنين منافسة وغيرة كما بين المُغنِّين ولاعبي كرة القدم؟

أنا الآخَر أحب صوت مؤذن حيِّنا السي العالمي.

أنا الطفل الذي ضيَّع اسمه وظله.

أنا يونس عاشق البحر ولو في صور الكتب المدرسية أو كتب الأطفال ذات الأغلفة المصقولة والورق المُقوَّى.

أنا أمير العَجَاج وسلطان غبار الأزقَّة.

قضيت طفولتي غارقًا في غبار الشوارع صيفًا ووحلها شتاءً، نَزِقًا، شقيًّا، طائشًا، صعلوكًا، لا أدخل بيتنا مساءً إلا وعلى الفور دقت بابه جارة غاضبة، جاءت تشكوني لأمي لأنني اعتديت على ابنها إذ طرحته أرضًا وفلقت رأسه بخشبة، أو كسرت زجاج نافذتها بحجر، أو طاردت كلبهم بسيلٍ من الحجارة حتى عاد يعرُج ويعوي، أو شتمت أحدهم وعيَّرته بأوصاف قبيحة وبمفردات جنسيَّة عارية.

على النقيض مني تمامًا كان أخي مهدي طفلًا مؤدبًا، خَجُولًا ومترددًا، كبر ملتصقًا بأمي لا يفارقها، وفي ساعات غيابها يحتمي بنوَّارة أختي الكبرى

التي كانت ذكية وجميلة على الرغم من عرجها الخفيف.

كلما دُعيت أمي إلى حفل عُرْس أو خطوبة أو حنَّة أو ختان أو جنازة في الحي أو عند بعض الأقارب في المدن الأخرى، في غليزان أو تلمسان أو وهران، إلا ويكون مهدي أول مرافقيها، ما إن تشرع في تحضير نفسها للخروج حتى يقبض على طرف لباسها ولا يتركها تفلت منه أبدًا.

تتحرك فيتحرك معها من غرفة إلى أخرى، إذا ما دخلت المرحاض انتظرها عند الباب.

في الوقت الذي كانت فيه أمي قلقةً عليَّ لكثرة شيطنتي ولوقاحتي الفائضة، كانت في المقابل سعيدة لهدوء أخي مهدي، وكانت الجارات يُغبطنها على تربيته العالية وسلوكه المهذب المثالي.

كان مهدي صامتًا في أغلب الأحيان، لا يتكلم إلا قليلًا وإذا ما تكلم لا يكاد صوته يُسمع، بل كان لا يريده أن يُسمع أصلًا، مرتبكًا دائمًا، يخاف من مواجهة الأطفال الذين في عمره مما جعله لا يخرج إلى الزنقة إلا مضطرًّا، لا يعرف كيف يتعارك ولا كيف يمد قبضة يده إلى وجه خَصْمه، ما خرج إلى الزقاق إلا ورجع إلى البيت بخدوش أو ازرقاق حول العينين أو بقميص ممزق، وكنت أنا الأصغر منه أجري مباشرة نحو الشارع لأنتقم له، أطارد من تطاول عليه حتى عتبة بيتهم وأرمي زجاج النوافذ بالحجر وإذا ما مسكت به فأطرحه أرضًا وأُشبعه ضربًا وأتبوَّل عليه.

حدث مرة أن جردت أحدهم من ملابسه كلها وأرسلته عاريًا إلى منزله بعد أن تغوَّطتُ فوق قميصه ومسحت مُؤخَّرتي بسرواله، لا لشيء إلا لأنه قال عن أخي مهدي بأنه خوَّاف ويشبه البنات.

لم يَكُن مهدي يعرف قاموس السَّباب الوقح الذي أحفظه عن ظهر قلب وأبدع فيه إبداعًا عاليًا، لا يتلفظ أبدًا بالكلمات البذيئة السارية على أفواه العامَّة من الأطفال والمراهقين في المدرسة وفي الحي.

منذ الطفولة، ومنذ سِنٍّ مبكرةٍ جدًّا، ولأنه كان يخشى الخروج إلى الشارع، غرق أخي مهدي في القراءة بدلًا عن لهو الطفولة المجنون، فكان لا يُرى إلا في ركن وأنفه بين صفحات كتاب ما، كما كان كثير الاستماع إلى برامج الراديو خاصة البرامج الثقافية والفنية، وقد أحبَّ الغناء والرقص أيضًا، كان يملك ذاكرة خارقة فبسرعة فائقة يحفظ كلمات الأغاني بمجرد سماعها ولو مرة واحدة من جهاز الراديو أو من أسطوانات من فئة 33 دورة أو 45 دورة والتي كانت تقتنيها أختي نوَّارة، فيرددها مقلدًا المغنِّي أو المغنية بشكلٍ مثير للإعجاب.

كان يثيرني أكثر حينما يقلد صوت مؤذن الحي، وكان يُبدع أيضًا في ترتيل بعض آيات من سور القرآن الكريم محاكيًا صوت المقرئ الشيخ عبد الباسط عبد الصمد.

أصبح مهدي نجم الغناء في مجالس النساء، وفي الأفراح العائلية كحفلات الأعراس والخطوبة، كُنَّ يُلبسنه ألبسة الفتيات الملونة والمذهَّبة ويضعن على وجهه بعض الماكياج ويطوِّقن عنقه ومعصميه بالحلي الذهبية والفضية، ثم يدفعن به إلى الحلبة للرقص والغناء، يتردد قليلًا ثم يتقدم إلى وسط الجمع ويرقص مع النساء فيبدع، وكان الجميع معجبًا بحركاته الرشيقة، وشيئًا فشيئًا أصبح لحضوره الفني وزنٌ، وهو ما جعل النساء كما الرجال يطلبون منه أداء بعض الأغنيات الشهيرة، يصرون عليه فيؤديها بطريقة

مدهشة، خاصة أغاني الراي البدوي العريق وأغاني الشيخات، وبالأساس أغنيات الشيخة الريميتي ورينات الوهرانية.

ولأن مهدي كان يخشى عنف الأطفال المراهقين في الشارع وفي المدرسة، كان يتجنب الاختلاط بالذكور مفضلًا اللعب مع البنات ومصاحبتهن في طريقه إلى المدرسة أو في عودته منها، وكانت الفتيات سعيدات برفقته الرقيقة.

ما حدث أمام عينَيْ أمي ذلك اليوم حيَّرها وأقلقها، لقد شاهدت بأم عينها ابنها مهدي وبالصدفة يتبوَّل على طريقة البنات، حيث يقرفص ويتبول، بدلًا من أن يفعلها وقوفًا كما يفعلها الصبيان الذكور والرجال.

أمام هذا الموقف صرخت فيه بغضب، وقد كاد عقلها أن يطير من رأسها، وللمرَّة الأولى كانت قاسية معه، وبَّخته بعنف وشراسة وهي التي ظلت طوال هذه السنين تعامله برقَّة عالية، سمعتها تقول له بصوتٍ عالٍ: "انظر أخاك الشيطان يونس وهو أصغر منك سِنًّا كيف يتبول واقفًا، يرسل بولته كالمرشاش لمسافة أمتار، يطلقها كالمدفع الرشاش".

من وسط الحوش، كانت نوَّارة تراقب المشهد حزينة وحائرة هي الأخرى، أما أنا فللمرَّة الأولى أشعر بأن أمي تفتخر بي وهي التي لا يمرُّ يوم دون أن تُعنِّفني محاولةً إعادتي إلى سواء السبيل، طالبةً مني أن أكون عاقلًا مثل أخي مهدي.

كانت نصائحها تدخل من أُذنٍ وتخرج من أخرى دون أن تخلِّف أثرًا في داخلي.

أنا أمير الغبار.

سمعتها تكلمه وهي تكاد تختنق بكاء، صوتها به حشرجة غريبة: "أنت لست فتاة، أنت رجل الغد، ستؤدي الخدمة العسكرية ذات يوم التي مدتها سنتان وهناك سيطلبون منك أن تطلق الرصاص الحي من سلاحك الحقيقي، وربما ستضطر الحكومة إلى إرسالك إلى جبهة من جبهات الحرب لتحرير فلسطين وبيت المقدس، لا محالة ستَقتُل أو تُقْتَل".

أثارني كلامها، أنا الآخَر لم أتصور يومًا أخي مهدي بلباس عسكري وبسلاح ناري يقتل، إنه لم يُخلق لذلك، مع ذلك كان كلام أمي محركًا لكثير من الأسئلة في رأسي.

كان مهدي يبكي واضعًا وجهه في راحتَيْ كفَّيْه الصغيرتين، يبكي بكاءً مُرًّا، يشهق، قفزت أختي نوارة واحتضنته وبكيت أنا لحاله.

لم تكُن دموعي سهلة الانهيار يومًا، فسالت في ذلك اليوم.

الشيطان يبكي.

ولم ينَمْ ليلتها، كنت أشعر به فاتحًا عينيه في ظلام الغرفة التي نتقاسمها، كان يتنفَّس بطريقة غير عادية، أنفاس متقطعة تشبه البكاء المخنوق، وحين شعر بأنني صاحٍ وأراقب حركاته وسكناته قام وغادر الغرفة وانزوى في غرفة أختي نوارة الموجودة في آخر الحوش وغرق في القراءة.

على الذراع اليُمنى لأخي مهدي نبتت زيتونة سوداء طبيعية على بياض جلده الثلجي الناصع، توحيمة كما تسميها العامة في الحي، هي علامة شؤم كما تفسرها أمي، توحيمة تكبر وتكبر ومن عمقها تطلع بعض شعرات

سوداء طويلة ونافرة، لم يَكُن أخي مهتمًا لذلك مثل هوس أمي، ولم يحاول يومًا ستر الزيتونة بكُمٍّ قميصه كما كانت تأمره أمي، بل كثيرًا ما كان يُرى وهو يداعب تلك الشعرات سابحًا في سماوات القراءة، غارقًا في كتاب، أو يستمع إلى أغنية حزينة تُبثُّ على موجات جهاز الراديو ذي البطارية الخارجية المشدودة إلى ظهره بمطاط رَبْط شعر الرأس.

لم يبلغ العاشرة من عمره وكان يقرأ الكتب الكبيرة.

في اليوم التالي، سمعت أختي نوارة تقول وهي تحاول أن تخفف من قلق أمي: "هي حالة عابرة، مثلها مثل حال الطفل الذي يتبول حتى سن متأخرة نسبيًّا في فراشه، ستختفي بمرور السنين وسيدرك بأنه مختلف جسميا عن البنات اختلافًا بيِّنًا".

ذات يوم وأنا أستحمُّ كالعادة في غبار الشارع سعيدًا وأعارك الأطفال وأجري وراء القطط والكلاب وأقول الكلام الفاحش للبنات العائدات من عند سليمان الطراح، حاملاتٍ على رؤوسهن لوحات عليها خبز ساخن خارج للتوِّ من فرن، أقفز على لوحة فوق رأس إحداهن فأختطف خبزة أقتطع منها طرفًا، أعيدها إلى مكانها مقضومةً وأنطلق كالصاروخ في الغبار حافيًا، دخلت أمي على مهدي في غرفتنا المشتركة فوجدته مرتديًا لباس أختي التوأم حميدة وقد انتعل حذاء نِسْويًّا بكعبٍ نصفِ عالٍ، وصبغ شفاهه بأحمر الشفاه، أمام هذا المشهد وضعت أمي وجهها في راحتَيْ كفَّيْها وشهقت، بكت بصوتٍ عالٍ ثم بدأت تندب وجهها بأظفارها مرددةً بصوتٍ جريحٍ عالٍ: "يا رب لقد جُنَّ مهدي، لقد جن ولدي، هذه الكتب أخرجت الطفلَ من عقله"، سمعت صياح أمي فجريت من الزقاق في اتجاه المنزل، فارتبكت

أنا الآخر لمنظر أخي وحزنت وغادرت الغرفة وقد تغير شيء ما بداخلي.

زلزلت الأرض زلزالها.

منذ ذلك اليوم الذي شاهدت فيه مهدي بلباس أختي حميدة توقفت معاركي مع أطفال الحي، وبدأت مراقبة كلامي الفاحش.

ومن يومها أيضًا لم يختفِ مهدي من رادار أمي، كل حركاته وسكناته وأنفاسه تحت عين رقيبة لا تنام أبدًا، دون أن تُشعره مباشرة بهذا الحصار وكأنها لا تريد أن تزعجه أو تشوِّش عليه طقوس تحضير امتحان البكالوريا الذي لم يبقَ على موعده إلا بضعة أسابيع.

في الثانوية، كان مهدي تلميذًا ذكيًّا، مُتفوِّقًا في جميع المواد من الرياضيات إلى اللغة الفرنسية مرورًا بالتاريخ والجغرافيا، اجتاز امتحان شهادة البكالوريا وحصل عليها بدرجة الامتياز، محتلًّا المرتبة الأولى على مستوى الولاية والثالثة على المستوى الوطني، وهو ما أثار غيرة كثير من التلاميذ الذين كانوا يحتقرونه ويرون فيه كائنًا هجينًا ورِخْوًا وغريبًا.

وتحركت الألسن ضده وشحذت السكاكين بين أبناء الحي.

كلما حوصر في الشارع من قِبل أقرانه، غرق المهدي أكثر فأكثر في غواية القراءة، لا يُرى إلا وأنفه مغروسٌ بين صفحات كتاب بالفرنسية أو بالعربية، كانت التعليقات الساخرة التي يطلقونها في حقِّه كلما مرَّ في الشارع تثير لديه ارتباكًا وجرحًا عميقًا، فيبكي ويحزن ويدفن رأسه في العزلة وفي الكتب أكثر، لقد قاطع وبشكل نهائي الفضاء العام الخارجي ليدخل عالمًا مغلقًا من العزلة الحديدية لا دواء لها سوى مصاحبة الكتب والاستماع المتواصل

إلى برامج محطات الإذاعات الدولية. داخل هذه الوحدة الصعبة بدأ مهدي ممارسة الفن التشكيلي، اقتنى صفيحة ألوان ورزمة أوراق خاصة مصقولة وشرع في الرسم، على الفور اكتشف في نفسه موهبة فَنّ البورتريه، أول وجه رسمه كان وجهي، وجه الشيطان الرجيم به!

باكرًا أنطلقُ إلى الخارج، أحِنُّ إلى مملكتي، وبمجرد أن أقف عند باب بيتنا يختفي الجميع من الشارع، أظل وحدي الملك المطلق للزقاقين: زنقة سليمان الطرَّاح وزنقة الحرايري، لا أحد يشاركني السُّلْطة، في تلك الأحيان يكون مهدي يقضي ساعات الصباح أمام الألوان والأشكال والوجوه التي يرسُمها.

مع بداية الخريف، ومع أول نسمة هواء منعشة حركت سماء مدينة الأصنام التي تشبه الفرن في فصل الصيف، كان ذلك في الأسبوع الأول من شهر سبتمبر، سافر مهدي إلى العاصمة ليسجل في الجامعة.

كانت أمي تريده وبأقصى سرعة أن يختفي من الحي، وهي رغبة والدي أيضًا بعد أن كثر الكلام عن تصرفاته الأنثوية وأصبح يُشار إليه بالبنان حيثما مرَّ، لم يفكر أحد منهما في مستقبله ودراسته بقدر ما كانا يستعجلان رحيله عن الحي، وحدها أختي نوارة كانت تريده أن يكون محاميًا أو طبيبًا، أما أنا فلم أستطع تصور مهدي بعيدًا عن البيت، كلما تخيلته وحيدًا أشعر بالخوف عليه وهو وسط جمع غفير من الطلاب وقد بلغ بعضهم العشرين وأكثر.

حين غادر البيت في اتجاه العاصمة وقضيت الليلة الأولى وحيدًا، نظرت إلى سريره الفارغ وبكيت، أول مرة أشعر فيها بأنني منهزم، أنا الذي انتصرت على الجميع ها هو غياب مهدي يُبكيني، يقهرني.

قلَّت خرجاتي في الحي، وتنازلت عن إمارة الغبار ومملكة العَجَاج.

ومع الدخول المدرسي الجديد قررت أن أغير من سلوكي وأن أدرس جيدًا، كي ألتحق بأخي في الجامعة وأكون له حارسًا هناك كما كنتُه ها هنا.

التحق مهدي بقسم الرياضيات بجامعة الجزائر، وتحصَّل على غرفة في المدينة الجامعية، حيث الحياة مختلفة تمامًا والطلبة قادمون من كل أنحاء البلاد بتقاليد مختلفة وبعقليات متقاطعة ومتكاملة.

بين الدراسة الجامعية وأضواء المدينة الكبيرة المغرية بدأ مهدي فصولَ حياةٍ جديدة.

بين البحر واليابسة، أقف أنا متلبسًا اسم يونس، خالي يونس!

أول مرة زرت فيها البحر، البحر بكل ما هو، ما له وما فيه، ملحه وموجه وزرقته وحكاياته مع خالي يونس، كان ذلك مَعيَّة مصطفى أوبختي زوج أختي نوَّارة، رجل لا يشبه الآخرين يُقال عنه بأنه يشرب "الشراب" أي الخمر، مع ذلك فالجميع يوده، يشرب الشراب ولا يؤذي أحدًا، إلى جانب والدي هو الوحيد الذي يقرأ الجرائد في الحي، يقرأ الجريدة بانتظام حتى ولو كانت متأخرة بأسبوع، يقرأ باللغتين: العربية والفرنسية.

ذاك اليوم، ركبت خلفه على درَّاجته الهوائية التي يطلق عليها اسم أَبُولُّو، وانطلقنا جهة البحر، البحر الحقيقي الرابض خلف تلَّة البياضة، الربوة التي لم أصل يومًا قمتها، من السرعة الشديدة يتسرب الهواء بكمية كبيرة إلى رئتي حتى أكاد أختنق وهو لا يبالي، ومع ذلك كل ما كان يشغلني هو انتظاري لتلك اللحظة التي سأقابل فيها البحر، للمرَّة الأولى سأشاهده بأُمّ عيني، البحر الذي لا تحبُّه أمي والذي ابتلع خالي يونس.

لم تكُن أمي تعلم بأن رِجْليَّ قد كبرتا وتمددتا! وأنني ركبت خلف شارب الشراب صهرها مصطفى أوبختي وذهبت حتى البحر، البحر البحري بمائه وملحه وليس ذلك المتجلي بكسل وجمود في صور الكتب التي تُعيرني

إياها السيدة جانين غروطو صاحبة الأنامل السحرية والصليب الفضي الجميل والأنفاس المحمَّلة برائحة العنب الحامض.

كانت أمي تحب صِهْرها مصطفى أوبختي حُبًّا غير عادي على الرغم من أنه يشرب الشراب، مفارقة عجيبة، وكان حامل أسرارها، تعامله مثل ابنها وأكثر، حتى إن أختي نوارة كانت تغار من معاملتها له بهذا التفضيل وهذه السرِّية، وكأنما كانت تخشى أن تتطور هذه العلاقة لتبلغ مقامًا قد لا تُحمد عقباه!

من خلف ظهر مصطفى أوبختي، راكبًا أَبُولُّو لمحت البحر على بُعد ثلاثة كيلومترات تقريبًا، ونحن في منحدر الربوة من الجهة الأخرى المطلَّة عليه، من بعيد دهشت، خفت، شعرت بانقباض في بطني، وتيبُّس في رُكبتي، وعلى الفور تذكَّرت حكاية خالي يونس وتذكَّرت خوف أمي ولحظة تمزيقها لصورة البحر التي كانت بكتاب القراءة والرسم الذي حاولت فيه تقليد صورة الكتاب، قلت في نفسي: معها حق.

بقوة مسكت على خاصرة مصطفى أوبختي شارب الشراب، بطني يؤلمني وكأن سكاكين تقطعه، مثانتي امتلأت، غير عابئٍ بحالي كان يغني بصوتٍ عالٍ أغنية جميلة وحزينة بالفرنسية ونحن ننزل المُنحدَر الأخير نحو شاطئ اسمه بيدر.

من بعيد، وأنا أشد دائمًا وبعنف وخوف على خاصرة شارب الشراب، بدا لي البحر كائنًا مخيفًا، وحشًا أزرق، زرقة مائلة نحو الدُّكْنَة، دون موج ودون حركة، متكورًا في صمتٍ غامضٍ ينصبُ لي فخًّا، يتربص بي كي ينقضَ عليَّ بموجه النائم المرتخي والذي لطالما كنت مأخوذًا برسمه، الآن

ونحن على بعد مائتَيْ متر تقريبًا أتذكر كيف كانت السيدة جانين غروطو صاحبة الأنامل الناعمة التي أطراف رؤوسها من نار تتحدث عن الموج بإعجاب، وهي تقرأ لي مقطوعات من قصيدة المركب السكران لرامبو في الكتاب المرسوم الذي اختارته لي، كان صوتها فيه بُحَّة غريبة بأنفاس متقاطعة تزداد كلما زادت حركة أصابعها دورانًا على جلد ظهري ورقبتي وصدري.

هذا البحر إذن ليس كبحر جانين غروطو التي تثيرني فيها رائحة الورق المنبعثة من مئزرها الوردي ورائحة العنب في فمها وأنفاسها المتقطعة اللاهثة.

كنت أتصور البحر خارج الصور والرسومات التي في كتاب نصوص القراءة وفي كتب مكتبة السيدة جانين غروطو شبيهًا بمجرى نهر كنهر شلف، هذا الذي أعبره صباحَ مساءَ في طريقي إلى المدرسة، ولكن بحجم أكبر، الآن الصورة الواقعية أمامي شيء آخر، إنه امتداد خرافي أزرق بلا نهاية.

يبتدئ البحر عند قدمي ولا ينتهي!

الأفق ليس جدارًا، الأفق الأزرق باب مفتوح على المدى.

حين وصلنا رمل الشاطئ، نزلنا من فوق ظهر أَبولُّو، وأخذ مصطفى أوبختي يدفعها إلى جنبه بهدوء، وهو يغني أغنية أخرى ذات إيقاعٍ خفيف تدل على سَكِينة في قلبه وعلى سعادةٍ ما، وأنا أمشي بجواره متشبثًا بمقعد الدراجة وأرتعش من صورة البحر الحقيقية الذي هو الآن على بُعد أقل من عشرين مترًا، بضعة أمتار عن الموت، الآن أميز رقصة موج خفيف قادم من العدم الأزرق ليصل الأطراف، حتى قدمي تقريبًا.

بقوة أمسك بأطراف غلاف مقعد الدراجة المصنوع من جلد معز أو ذئب خوفًا من أن يفلت مني زوج أختي نوارة الذي كلما تقدمنا نحو البحر بدا سعيدًا أكثر فأكثر، وكأنه لا يبالي بالفَخِّ المنصوب لنا ولا يتذكَّر شيئًا عن قصة غرق خالي يونس الذي ألبستني أمي اسمه.

أمشي وأنتظر أن ينهض الماعز أو الذئب من هذا الجلد الموجود فوق كرسي الدراجة أبُولُّو، كما قام الأرنب من الفروة التي جعلتها جانين غروطو غلافًا للكرسي الذي كنت جالسًا عليه.

لم يَكُن مصطفى أوبختي منتبهًا للبحر ولا مكترثًا له ولم يَكُن ينتظر قيام الماعز أو الذئب من الجلد الموضوع كغلاف على كرسي أبُولُّو، كل ذلك بأن أمي لم تروِ له حكاية غرق أخيها يونس فيه، وهذا أمر غير وارد فلا أحد لم يسمع بحكاية غرق يونس في الحي، وإما أن مصطفى أوبختي الذي يعرف أمي جيدًا لم يصدق هذه الحكاية أصلًا ويعدُّها من مختلقات أمي وهَوَسها.

بمجرد أن أدركنا رمل الشاطئ سحب مصطفى أوبختي فردَتَيْ حذائه البلاستيكي من قدميه وطلب مني أن أفعل مثله، سرنا بضعَ خطوات على الرمل الناعم، بمجرد أن لمست رجلاي حباته منحتني نعومته الفائقة إحساسًا يشبه ذلك الذي خلَّفته أنامل جانين غروطو الملتهبة على رقبتي وظهري.

حاولت أن أغمض عينَيَّ كي لا أرى البحر، لم أستطع، ها هو أمامي عاريًا في حقيقته الكاملة الصارخة بمائه وبهدير صوت موجه، تعثرت وكدت أسقط لولا أنني كنت قابضًا على طرف غطاء مقعد أبُولُّو، تمنيت لو أن شارب الشراب يعود أدراجه من حيث جئنا، أحسست وكأنه سيسلمني للبحر بمجرد أن يشرب شرابه ثم يركب دراجته الهوائية أبُولُّو ويقفل راجعًا،

ضاحكًا، يروي للناس كيف كنت أغرق وهو يتابع حركاتي وصراخي ولا يتحرك.

لم ينقذ الطفل من الغرق لأنه كان سكران!

كل شيء انتهى.

ركن زوج أختي الدراجة الهوائية أبُولُّو غير بعيد، ربطها بسلسلة حديدية خاصة إلى عمود كهربائي عمومي بدون مصباح، سحب بساطًا مصنوعًا من دوم كان مطويًّا بعناية داخل حقيبة بلاستيكية صغيرة في خُرْج أبُولُّو، فرشه فوق الرمل بعيدًا عن بعض المصطافين، ثم جلس وجلست بجواره وحواسي كلها مستنفرة، أخرج صحنًا به زيتون أسود وخيارة كبيرة ورأس بصل وجُبن ونصف ليمونة وبيضتين مسلوقتين وقطعة خبز، ثم من جيب معطفه أخرج مفتاحًا حديديًّا برأسٍ لولبي، ثم سحب قنِّينة نبيذ من كيس بلاستيكي، وبابتسامة كبيرة أدار المفتاح اللولبي في الفلِّين، ثم سحبه بعناية وهو يبتسم ولا ينظر للبحر الذي كنت أراقب زرقته الغائبة والضائعة في دُكْنَة مائلة للسواد.

حين خرجت قطعة الفلين من عنق الزجاجة، قال لي ضاحكًا ضحكة طفل: هل تعلم ما الاسم الذي كنَّا نطلقه على هذا المفتاح في تونس أين كنت نجم الحلاقين جميعهم، نساءً ورجالًا؟ وأشار إلى المفتاح ذي اللسان اللولبي، قلت: "لا"، ونظري لا يفارق البحر، قال: "كنا نسميه رضوان، باسم الملاك رضوان فاتح باب الجنة التي هي مصدر السعادة القصوى الدائمة، وهذا المفتاح هو فاتح باب القنينة التي هي أيضًا مصدر السعادة الكبرى"، وانفجر ضاحكًا كالطفل وهو يتمرَّغ فوق الرمل.

حكيت لمصطفى أوبختي ما روته لي أمي عن أخيها يونس الذي أكله البحر، نظر إليَّ وقد رسم ابتسامةً ساخرةً على ملامح وجهه المتعب قليلًا قائلًا: "سمعت هذه الحكاية ألف مرة من لالة رحمة، الأمهات يكذبن أيضًا يا يونس".

الأمهات يكذبن؟ شيء غريب!

هل قدَري كقدر خالي يونس الذي بلعه البحر والذي لبست اسمه؟ ربما!

لم تستطع كلمات مصطفى أوبختي أن تعيد لي الطمأنينة ولا أن تجعلني أُكذِّب ما قالته أمي عن أخيها يونس، وأنا قُبالة البحر الحقيقي، في فمه الغول الأزرق بمائه وموجه، بلحمه وشحمه وعظمه، أشعر بأنني لن أعود إلى البيت هذا المساء، هي نهايتي، لن أحاول ثانيةً رسم البحر الذي ها أنا أستعدُّ للغرق فيه، ولن أقابل السيدة جانين غروطو بصليبها الفضي وبمنديلها الأبيض على شعرها الأشقر، ولن تلعب أناملها بشعري وببقية أعضاء جسدي الحميمة، ولن تُقبِّلني من فمي ولن أشْتمَّ رائحة العنب الذي يشبه رائحة مشروب مصطفى أوبختي، ولن تختار لي كتبًا عن البحر ولا عن البر ولا عن الصحراء ولن تحاول التهامي حيًّا ابتداءً من حجري!

حسب رواية أمي، لم يعثروا على جثة خالي يونس، انتظروا أن يلفظها البحر فما فعل، وبعد أربعين يومًا صلُّوا عليه صلاة الغائب، وحده والدي عللًّا فليتا رفض أداء صلاة الغائب، لأنه لم يَكُن يعتقد بغرقه، فيونس يكون قد اختفى خلف البحر هروبًا من الالتحاق بالثوار في الجبل، الذين ما فتئوا يرسلون له الرسائل طالبين منه الاختيار إما الالتحاق بالجبل أو بالقبر، الإدارة الفرنسية هي أيضًا لم تعترف بموته ورفضت إصدار شهادة وفاة

ولم تسجله على قائمة الوَفَيات، ربما هي الأخرى كانت على علم بهروبه، وقد تكون هي التي ساعدته على ذلك وأسهمت في إشاعة موته غرقًا بالاتفاق مع بعض رفاقه.

الأمهات كالرسومات كاذبات فكاذبات!

أتساءل الآن كَمْ هي كاذبة فعلًا رسوماتي على دفاتري! وكاذبة أيضًا صور كتب نصوص القراءة المدرسية وصور كتب السيدة جانين غروطو ذات الأنامل المشتعلة، البحر ليس ورقًا ولا لونًا ولا كلامًا في محفوظات أدبية، البحر أمر آخر، شيء آخر.

أين المركب السكران يا رامبو؟

حكاية خالي يونس منحت البحر كل هذه الزرقة وهذا الموج وهذه الرهبة وهذه الملوحة وعلَّمت أمي الكذب.

كان مصطفى أوبختي يشرب نبيذه من القنِّينة مباشرةً فتطلع منه رائحة تشبه رائحة فم جانين غروطو، وبين الحين والآخر ينقر حبَّة زيتون أو قطعة خيار، حين طلب مني أن آكل من صحنه، خفت، فصحن الشراب جزء منه، رفضت، وشعرت برغبة في التبوُّل.

خفت إن أنا أكلت من صحنه فقد أسكر وأنسى نصائح أمي ويحصل لي ما حصل لخالي يونس، كما خفت من صليب جانين غروطو أن يُنسيني الرسول محمد خاتم الأنبياء وأُصبح نصرانيًّا بمجرد أن ألمسه أو يلامس شعري أو جزءًا من جسدي.

قال لي وهو يقرأ في جريدة فتحها بين يديه وقنينة النبيذ بين قدميه

مغروسة في الرمل حتى النصف:

- إذا كنت تريد السباحة فالبحر هادئ، ولا تصدق حكاية غرق خالك يونس الجبان.

"خالي يونس الجبان!" .

- البحر لا يبلع الجبناء أبدًا، البحر حين يريد أن يبلع أحد الصيادين يختار أجملهم وأنبلهم وأشجعهم وخالك لم يَكُن لا جميلًا ولا قويًّا ولا نبيلًا ولا شُجاعًا، كان يخاف من الحرب فهرب، نذل كبير.

يونس خالي نذل!

وأنا يونس الذي أدافع عن أخي مهدي دفاعًا مستميتًا، أنا ملك غبار الحي، لا أحد يبرز أنفه حين أكون وسط الزنقة.

"أأنا يونس جبان كالخال يونس؟" .

- الرجال من أمثال خالك يونس يموتون بالخوف أو بالخيانة، البحر لا يأكل مثل هذه الحُثالَة البشرية، من طبيعة البحر أنه يرمي بكل النُّفايات على الشاطئ، لو كان يونس هذا قد بلعه البحر لكان رمى به كما يرمي كل صباح ومساء أزبالًا كثيرة.

أنظر إلى قدمَيْ مصطفى أوبختي العاريتين المغروستين في الرمل وهو ينظر إلى القنِّينة التي نصفها مغروس في الرمل، يضع الجريدة بجنبه ويقشر بيضة مسلوقة ويُعقِّب: "نسينا الملح، يا حميميد، كي نملِّحها نغمسها في ماء البحر المالح!"، قالها وانفجر ضاحكًا.

لكني كنت مستغربًا كيف لمصطفى أوبختي وللمرَّة الأولى، أن يناديني باسم حميميد؟

وإذ هبَّت في اتجاهنا ونحن جالسان فوق الرمل ريحٌ خفيفةٌ محملةٌ برائحة عفنة، التفتُّ أبحث عن مصدر هذا القرف الذي في حضرة زرقة البحر، لأكتشف بأنها قادمة من محيط الكنيسة القديمة المهجورة الواقعة على بعد بضعة أمتار على الرصيف الآخر من الشارع الذي يفصل رمل الشاطئ عن بنايات هذه القرية الساحلية الجميلة، المسماة بيدر المعروفة أيضًا بصناعة الفَخَّار، جميع عائلات هذه القرية والتي تنتمي إلى جَدٍّ واحد تشتغل في صناعة الأواني والقدور والجِرَار الفَخَّاريَّة، شرب مصطفى أوبختي من القنينة جرعة كبيرة، وهو يتأفَّف من قوة الرائحة الكريهة التي تزداد أكثر فأكثر، مسح فمه بكُمِّ قميصه الحريري وهو ينظر إلى بعض المصطافين الذين اتخذوا من حائط الكنيسة مبولةً عموميَّة في الهواء الطلق، حتى بدا وكأن البناية هذه وُجِدت لهذا الغرض، دون حرج يتناوب الواحد بعد الآخر لقضاء حاجتهم مُصطفِّين في طابور طويل دون إحساس بتأنيب ضمير حضاري أو أخلاقي، ثم قال لي بكثير من الألم والحسرة وهو يشرب جرعة كبيرة أخرى:

- اسمع يا حميد، (حميد أم يونس؟) هذا العالم معقد وغامض، كان بالحي الذي وُلدت فيه ثلاث بنايات مخصصة لعبادة اللّـه الواحد، الإله نفسه لكن العباد مختلفون ومتنافسون، واحدة للمسلمين، أي لآبائنا وأجدادنا

وجيراننا الذين من مِلَّة محمد، وهو عبارة عن مسجد صغير بدون اسم، بمنارة صغيرة محتشمة لا تكاد تظهر وسط فوضى بنايات الحي المتوحش، أُقيم المسجد على أطراف المدينة، بسيط في بنايته وفقير في أثاثه، زرابيه منسوجة من الحلفاء والدوم وشعر الماعز، كان جميع من في الحي يقدس المكان ويحترمه، من المسلمين ومن غير المسلمين، القيِّم على هذا المسجد مؤذن ذو صوت جميل كان يشتغل ليلًا مُغنيًا في أحد المطاعم الكبرى ومع الفجر يغادر المكان متوجهًا إلى المسجد مباشرة، يرفع الأذان ويصلي ويعود إلى بيته، كان محبوبًا لدى جميع المُصلِّين، وفي مركز المدينة قُبالة مبنى البلدية وثُكْنَة الدَّرَك توجد الكنيسة الكاثوليكية، بناية فخمة عالية بأعمدة رخامية باذخة وبسلم بدرجات مكسوَّة بالرخام الأبيض عند العتبة الواسعة، يُقال إنها بُنيت حين كانت المدينة لا تزال عبارة عن قرية فلاحية لم تتحول بعد إلى مركز إداري محلي، أُقيمت هذه الكنيسة للمسيحيين الكاثوليك القادمين إلى المستعمرة من منطقتَي الألزاس واللورين ومن إسبانيا ومالطا وجنوب إيطاليا والبرتغال، تحتوي الكنيسة على جرس نُحاسي ضخم صُنع في مدينة بوردو، يدق في أوقات منتظمة، صغيرًا، كنتُ كلما سمعت دقاته أشعر بإحساس غريب في داخلي يشبه الخوف أو الحيرة، على الفور يؤلمني بطني، في الكنيسة الفخمة يؤدي المدنيون والعسكريون صلوات الآحاد وقُدَّاس الأعياد الدينية المختلفة، وفيها أيضًا تُقام الأعراس في طقوس احتفالية دينية وعائلية كانت تسحرنا، وبها ورد كثير على مدى أيام فصول العام، لماذا لم يَكُن ورد الكنيسة يذبل أبدًا؟ وعند مدخلها مساحة واسعة بأشجار باسقة وأحواض عشب أخضر يُسقى بانتظام، وبعيدًا عن هذه الكنيسة الكاثوليكية قريبا من حينا الشعبي، ما بين المدينة المعاصرة الأوروبية والحي

الشعبي الخاص بالعرب والأمازيغ، بني كنيس لليهود، كنا نسميه جامع اليهود، واليهود أنفسهم كانوا يسمونه كذلك وهو أقدم من الكنيسة من حيث العمر، لا أحد يعرف متى تم تدشينه، وقد عرفت البناية ترميمات وإصلاحات وتوسيعات كثيرة حتى أصبحت منافسة للكنيسة المسيحية من حيث جمال البناية وضخامتها وصلابتها وهيبتها وحديقتها الخلفية الفسيحة، يؤدي فيها اليهود صلواتهم بانتظام أيضًا، وعددهم أكبر من عدد المسيحيين وأقل من عدد المسلمين، وفيها يقرؤون كتابهم المقدَّس الذي يُسمى التوراة بطريقة شبيهة إلى حدٍّ كبيرٍ بتلك التي يقرأ بها المسلمون كتابهم، الحركات نفسها، يهزون رءوسهم ذات اليمين وذات الشمال في إيقاع جماعي صوفي، ويلبسون قلنسوات على رؤوسهم كما يفعل آباؤنا وأجدادنا المسلمون في المساجد.

أتابع حديث مصطفى أوبختي وأكاد أنسى البحر الذي عند قدَمَيَّ يتربص بي كما تربص بيونس خالي.

رائحة البول حادة.

لمصطفى أوبختي شهوة الحكي، قادر أن يُنسيني خوفي، يشرب من قنِّينته ويواصل:

- ... صحبة رفيقَيَّ المفضلين في القسم جاك بولانجي ومارك ليفي، كنا بين الفترة والأخرى حين نغادر المدرسة لنضيع في شوارع المدينة نمر قدام باب الكنيسة أولًا، نقطف الورد وندخل إلى فنائها كلما صادفنا حفل زفاف أو حفل تعميد أو أي قداس ديني، نتسلل ما بين صفوف المصلين والمصليات الجالسين على كراسٍ خشبية عارية حتى نصل إلى الصحن،

كنت أندهش لجمال البناية من الداخل لدقة عمرانها ولرسوماتها المدهشة على السقف وعلى الجدران وعلى زجاج النوافذ، وأيضًا للتنظيم المُحْكم وللصمت ولأصوات الصلوات الجماعية المتناغمة، وجمال هندام المطران ومَنْ حوله مِنْ معاونيه الذين يشرفون على المراسيم، هنا المكان يفوح عطرًا منبعثًا من النساء ومن الرجال أيضًا، ومن الشموع المعطرة الكثيرة الموضوعة في صحون أو على شمعدانات نُحاسية قديمة، بين الفينة والأخرى كان المطران يمر بصحن كبير يصعد منه دخان البَخُور مختلفة مثيرة، يفوح في القاعة فيعطر الحضور، كنتُ لا آكل شيئًا ولا أشربُ شيئًا مما يُقدم في مثل هذه الحفلات، فقد أوصتني أمي بذلك مرارًا، لأن هذا حرام قد يثير غضب اللّـه والرسول عليَّ وعلى عائلتي.

ويحدث مرات أيضًا أن نمر نحن الثلاثة بالكَنِيس اليهودي، أي جامع اليهود، أشاهد الفرحة في عيون مارك ليفي، فندخله جميعًا إذا ما صادَفَنَا حدثًا دينيًّا أو احتفالًا بعيدٍ من الأعياد اليهودية الكثيرة، ونستمتع أيضًا بطقوس صلاة أخرى، حيث جميع الرجال يضعون على رؤوسهم قلنسوات بيضاء اللون، وكما في الكنيسة كان المكان أيضًا منظمًا ونظيفًا ومؤثثًا، وهناك شمعدانات نُحاسية كثيرة على أطراف المعبد وفي الصدارة وهي مختلفة الشكل والتصميم عن شمعدانات الكنيسة الكاثوليكية، والجميع يقرأ من كتاب بين يديه بلغةٍ لم أكُن أفهمها، هي العبرية كما قال لنا مارك ليفي، والعبرية كما يقول هي لغة سيدنا موسى - عليه السلام - والتي بها كلَّم اللّـه وبها كلَّمه اللّـه، نبي اليهود يكلم اللّـه، كنت أشعر بنوع من الغيرة، كان مارك ليفي يحاول أن يشرح لنا بعض الكلمات فيما يُسمع من آيات الكتاب التوراة وعبارات الصلاة والأدعية، وبمجرد مغادرة المكان وبسخرية يروي لنا

مارك ليفي بعض نُكَت عن رجال الدين اليهود التي سمعها من أبيه الذي لم يَكُن متدينًا، بل كان شيوعيًّا فوضويًّا تروتسكيًّا كما يقول بعض جيران الحي، لم أكُن أفهم كلمة "تروتسكيًّا" ولم أسأله عن معناها، على العكس من هذا الأب الملحد كانت أم مارك ليفي لالة مريمة غنايزية متشددة في إيمانها، تصلي لربها ليلَ نهارَ طالبةً منه أن يعفو عن زوجها ويرده إلى سواء السبيل، وأن يجعل من ابنها الصاعد ليفي حاخامًا كبيرًا كما كان جدها الأول في مدينة قرطبة.

يحدث أيضًا أن نمرَّ بالقرب من باب المسجد فنحاول أن نقترب من عتبته، على الفور يقابلنا الحارس الواقف عند الباب بعصاه فيطردنا ويمنعنا من الدخول، يخاطبنا بلغةٍ صارمةٍ حادةٍ قائلًا: هذا المكان ليس مخصصًا للذَّرَارِي، هذا بيت اللَّه. لم يسمح لنا ولا مرة واحدة بالدخول إلى فناء المسجد، ولا بحضور الصلاة ولا حتى مشاهدة طقوس التراويح في رمضان، كنت حزينًا أن يُطرد صديقاي العزيزان جان بولانجي ومارك ليفي من مكان عبادة أجدادي وأنا الذي أزور مكانَيْ عبادتهما دون حرج ودون منع.

في الحقيقة كنت سعيدًا ومرتاحًا لطردنا ومنعنا من الدخول للمسجد، لأنني دون شك كنت سأصاب بخيبة وبمهانة أمامهما لو لا سامح اللَّه، سمح لهما الحارس بالدخول فيكتشفان تفاصيل هذا المكان الديني الفقير، الحقير ماديًّا، فمسجدنا أقل جمالًا وأُبَّهة مقارنةً ببنايتَي العبادة الخاصتين بالمسيحيين وباليهود، فمسجدنا عبارة عن بناية متهالكة تقف بين كتل المنازل الشعبية الفوضوية، ورائحة المكان ليست طيبة كما هي عند الآخرين، رطوبة زائدة، والمرحاض الموجود في الركن عند المدخل تنبعث منه رائحة

غير مريحة وهو غير مجهز تجهيزًا كاملًا وينقطع عنه الماء باستمرار، والناس الذين يرتادون المكان لأداء الصلاة فقراء بألبسة رَثَّة أو بسيطة، وهي في غالب الأحيان ألبسة الحِرَفيِّين أو عمال الأشغال اليدوية لا ألبسة العبادة كما هي عند الآخرين.

كنت أشعر بالسعادة الغامرة حين يطردنا الحارس كي لا يكتشف جاك بولانجي ومارك ليفي بؤس مكان عبادتنا، ونحن نبتعد عن المسجد كنت أستخرج كل عبقريتي في الكذب فأقول لهما: إن بمسجدنا محراب صُنع في إسطنبول من خشب جُلب من الهند مقطوع من شجرة لا تنبت إلا في نهر هندي مقدس حيث الأمطار تسقط ثلاثة أيام في السنة، تسقط فقط على الأشجار لا على العباد ولا على الحيوانات، وفي مسجدنا سجَّاد فريد صُنع في إيران عليه رسوم طواويس وحَجَل برِّي وطيور الجنة، ويُقال إن المسلمين سيجلسون عليه في الجنة للقاء الحوريَّات وتناول الخمر والعسل والفواكه وأفضل الأكلات، والمرحاض وهو في الوقت نفسه ميضأة جدرانه وأرضيته من خزف أصلي جيء به من بُخارَى مدينة الإمام البخاري الذي جمع الحديث النبوي كله، وفي المسجد يصلي النساء والرجال جنبًا إلى جنب دون فصل ولا تمييز. كانا يتابعان حديثي بكثيرٍ من الدهشة والإعجاب، وكنت كلما كذبت عليهما أكثر شعرت بحبي للرسول محمد وللإسلام وبحبه لي وللمسلمين الفقراء ولهذا المسجد البسيط المهترئ.

على الرغم من الانتصار بالكذب على رفيقَيَّ بشأن واقع المسجد والمسلمين، قَلِقًا وضائعًا أعود في المساء إلى البيت فأسأل والدي الذي لم يَكُن يهتم كثيرًا بالصلاة باستثناء صلاة العيدين وصلاة تراويح رمضان:

- لماذا مسجدنا فقير وجامع اليهود وكنيسة المسيحيين باذختان؟

لا يرد عليَّ، وأسأله سؤالًا آخر:

- هل إله المسلمين فقير ومُعدَم، ليس بمقدوره أن يبني لنفسه ولعباده المؤمنين الصالحين مسجدًا جميلًا ولائقًا، بمنارة عالية تصل حتى السماء تغطي على بنايتَي المسيحيين واليهود؟

لا يرد، فأسأله:

- وهل إله المسيحيين ورَبّ اليهود ثريَّان إلى هذا الحد ليقيما لأتباعهما بنايتين باذختين للعبادة؟

بعد صمت طويل، يلفُّ أبي تبغ سيجارته في ورق شفَّاف، يشعله ثم ينظر إليَّ قائلًا وكأنما جرحته بأسئلتي هذه:

- حين نستقلُّ يا بُني سيغادر هؤلاء المكان وسنبني مسجدًا كبيرًا، بل أكثر من مسجد.

فأردُّ عليه:

- وحين نستقلُّ هل سنعيش لوحدنا دون جاك بولانجي ومارك ليفي؟

فيرد عليَّ:

- حين نستقل سنعيش لوحدنا يا بُنيّ.

وأردُّ عليه ولم أفهم دلالة كلمة الاستقلال:

- هل الاستقلال معناه أن نعيش لوحدنا دون الآخرين، يا أبي؟

هل إني سأعيش دون صديقيَّ مارك ليفي وجاك بولانجي؟

ويرد عليَّ وهو يقفل الحوار ويسحب نَفسًا عميقًا من سيجارته:

- ستفهم هذه الأمور ذات يوم يا بُني، حين تكبر سيتجلَّى لك الأمر جيدًا، وينهض من مكانه كأنما يهرب من فضولي الزائد ولساني السليط الساخن المزعج.

بكثيرٍ من التركيز والاندهاش أتابع حديث زوج أختي نوارة وأراقب طابور المصطافين، الذين يتبوَّلون الواحد بعد الآخر في انتظام ودون حرج على حائط الكنيسة العتيقة، وقد تقشَّر الجدار واهترأ، والرائحة الكريهة لا تزال تصلنا كلما هبَّت الريح في اتجاهنا.

يشرب مصطفى أوبختي من قنِّينته بعمق، أنظر إلى البحر بكل وسعه وغموضه وقد بدأت أستأنس حضوره بجواري، وها هو الخوف يتلاشى شيئًا فشيئًا وما عاد قلبي يدق كما كان حينما وصلنا المكان وأقول له:

- ها نحن اليوم ننعم بالاستقلال كما توقع أبوك، تمامًا كما تصوَّر، وها نحن أيضًا نعيش لوحدنا كما توقع أبوك تمامًا، ولكننا لسنا بسعداء، لم نكن سعداء حين كانوا هنا ولسنا سعداء وقد غادروا المدينة والبلاد، أغلقت الكنائس وجوامع اليهود أبوابها وفرغت من مؤمنيها، ورُفعت منارات المساجد الكبيرة الضخمة الجميلة في كل حَيٍّ وفي كل درب وفي كل ركن، ولكننا لسنا سعداء، وتحوَّلت كثير، بل جُلُّ الكنائس وجوامع اليهود، إلى مساجد لنا، لنا وحدنا نحن المسلمين ومع ذلك لسنا سعداء، فأين يكمن الخلل أو الخطأ، فينا أم في غيرنا أم في طريقة تعاملنا مع الآخرين ومع المكان؟

رد عليَّ مصطفى أوبختي وهو يشرب آخر جرعة من قنينة مشروبه السحري قائلًا بكثيرٍ من الحزن والألم:

- المُشكِل يا يونس يبدأ من هذا الطابور، من الخلق الذين يتبوَّلون على الكنيسة القديمة المهجورة، ليس لأنها كنيسة فقط ولكن وقبل كل هذا فالمكان ليس للتبوُّل.

لم أفهم كثيرًا مما رمى إليه مصطفى أوبختي، لكنني شعرت بأنه قال شيئًا مُهمًّا وكبيرًا فوق طاقة فهمي، لكني استغربت لماذا عاد لمناداتي باسم يونس؟

الآن، الشمس تنحدر نحو المغيب، وبرودة ناعمة تهبُّ من جهة البحر الذي ما عاد يُخيفني، تصالحت معه. قام مصطفى أوبختي شارب الشراب، وقمتُ على الفور، نفض بساط الحَلْفَاء الذي كنا نجلس عليه مما علَق به من حبات رمل وطواه بعناية وأعاده للكيس البلاستيكي، ونفضت سروالي مما علق به أيضًا من رمل، ثم جمع بقايا الصحن من زيتون وخيار وبصل وطماطم في كيس بلاستيكي، سلمني إياه لأضعه في حاوية النُّفايَة العموميَّة الموضوعة على حافة الطريق والمملوءة على آخرها حتى فاضت على الرصيف، وكأنها لم تُفرَّغ منذ أسبوع أو أكثر، وقد هجمت عليها مجموعة من القطط والكلاب وأسراب الذباب الأزرق والجرذان ذات الذيول والشوارب الطويلة المخيفة.

جنبًا إلى جنب سرنا حتى أطراف ماء البحر، قال لي:

- مَن يصل البحر يا يونس، عليه أن يسلِّم عليه، أن يُحيِّيه، أن يلمس ماءه ولو بقدميه ويذوق من ملحه المبارك.

خفتُ، ولكني سلمت نفسي وتبعته ومع كل خطوة فوق الرمل أستعيد صورة أمي وهي في حالة غضب هستيري، تمزق صورة البحر من كتابي المدرسي وتمزق أيضًا رسمي من دفتري، مسكت بذراع زوج أختي، وكأنني أوشك على الغرق وأنا لا أزال على الرمل اليابس.

الغرق يبدأ بانتصار حالة الضعف في الإنسان على حالة المقاومة.

إذا أردت مقاومة الخوف فامشِ على حافة الهاوية، ومشيتُ على حافة الهاوية.

طوى زوج أختي سرواله ورفعه عن ساقيه قليلًا حتى الرُّكْبتين تقريبًا، ومثله فعلتُ وتقدمنا ودخل الماء واقتحمتُه أنا الآخر، بي دوخة أو متعة؟

أريد أن أنتصر على الغرق، الغرق حالة موجودة في الشخص لا في الطبيعة.

وإذ لامستْ موجةٌ خفيفة قدمَيَّ، وكأنما هي تصلي لهما، شعرتُ فجأةً بشيءٍ قد تغير في داخلي، انقلاب جذري، وتذكَّرت أنامل السيدة جانين غروطو الناعمة التي كأنما في رؤوسها نار وهي تمرُّ على رقبتي وفوق ظهري، واستعدتُ أنفاسها المتصاعدة المتوهجة، كل ذلك والمركب السكران لرامبو يمخر عُبَاب البحر دون خوف، يعبره في رأسي.

حين لامست موجة خفيفة ناعمة ساقيَّ، قررت أن أكون بحارًا أو رُبَّان سفينة حربية أو مدنية.

لحظتها أيضًا تساءلت أنا الآخر قائلًا: إن البحر الذي قبَّل قدميَّ لا يمكنه أن يخون خالي أو يأكله.

ثم ركبتُ أَبُولُّو خلف مصطفى أوبختي وانطلقنا عائدين.

قلت لأمي ذاك المساء:

- إن خالي يونس حَيّ يا أمي وهو يعيش دون شك في بلاد بعيدة ولن يتأخر ليعود بعد أن ينسى الناس الحرب ومآسيها، سيدخل علينا ذاتَ يومٍ ليحكي حكاية اختفائه وهو يقهقه من سذاجتنا ومن تعب الحرب التي خاضها آباؤنا.

أجابتني أمي لالة رحمة وهي تنظر إلى وجهها في شقفة مرآة وقد بدا نحيفًا ومُتعبًا:

- الأموات لا يقومون من قبورهم يا بُني حتى ولوكان القبر من ماء وليس من تراب.

- لكن قبرًا من البحر ليس كقبرٍ من تراب، قبر الماء متحرك قادر أن يوقظ الميت.

استدارت نحوي ثم ابتسمت ابتسامة حزينة.

لحظتها أدركت أن أمي داخَلَها شَكٌّ بأن أخاها يونس لم يمُت غرقًا وربما يكون لا يزال على قيد الحياة، وأن كل ما كانت تقوم به ليس أكثر من لعبة لتزجيَة الوقت.

أضفت، وأمي مستغربة فصاحة صراحتي وأنا أُعيد ما سمعته من مصطفى أوبختي: "ربما يكون خالي يونس يا أمي قد روَّج لموته غرقًا خوفًا من التجنيد والالتحاق بالحرب التي كانت مشتعلة في الجبال والغابات بين المجاهدين الثوار والجيش الفرنسي الاستعماري، فغادر المدينة إلى بلدٍ من

بلدان الشمال الأوروبي، وهو الآن يعيش هناك مع صيَّادين في النرويج أو السويد، يتكلم لغتهم ويضحك ضحكهم، غارقًا في البيرة والثلج يتقاسم الحياة مع امرأةٍ شقراء كالأيقونة، امرأة من سلالة جانين غروطو، نساء الأنامل السحرية، وإنه سيدق باب المدينة منتصرًا وكبيرًا ذاتَ وقتٍ قريب!".

تستمع أمي لهواجسي بعمق وصمت وسعادة فيها خوف، تبتسم ابتسامةً غريبةً مُحاوِلةً تصديق ما أقول، وهي تدرك بأنني أُعيد عليها ما رواه لي مصطفى أوبختي بالتفصيل بعد أن شرب قنينة نبيذ كاملة.

فجأةً تعود لحالها، يعتريها حزنٌ بُنيٌّ اللون، تقوم باكيةً وهي تردد: أكله البحر، مَن يموت في البحر يموت عريسًا، يوم وصلنا خبر اختفاء خالك يونس بتنا الليلة نبكي ونزغرد.

في اليوم التالي قلتُ لأخي مهدي: "إننا لوحدنا، إننا مستقلُّون، ولكننا لسنا سعداء!".

رفع رأسه من بين صفحات كتاب، نظر إليَّ ولم يفهم شيئًا مما قلته.

من يوم زيارة البحر تلك، أُعجبت بمصطفى أوبختي أكثر.

أشياء تغيرت في داخلي.

انقلاب.

تصالحت مع البحر وفتحت جبهة ضد نفسي.

كان أبي رَجُلًا مستقيمًا كخَطٍّ فوق صفحة بيضاء، أو بالأحرى هكذا كنت أتصوَّره، على كل حال الآباء في عيون الأبناء ملائكة أو رسل ولو إلى حين، هو المجاهد بشهادة رسمية من وزارة المجاهدين وذوي الحقوق، وُضِعت الشهادة في إطار ذهبي وعُلقت على صدر الصالون بين صورتَيْ مصطفى كمال أتاتورك وجمال عبد الناصر، ونسخة طبق الأصل منها عُلقت في المقهى خلف آلة تحضير القهوة المعصورة الإيطالية الصنع والموروثة من العهد الاستعماري، علقت في المكان الذي كانت معلقة به صورة الرئيس أحمد بن بِلَّة حميميد قبل الإطاحة به، في المسمار نفسه. أكل بخار جهاز القهوة المعصورة جزءًا من أطراف الصورة حتى كاد أن يُمحى اسم والدي، أبي عضو فاعل ومنتظم في الحزب الحاكم حزب جبهة التحرير الوطني، مواظب على حضور اجتماعات قسمة الحزب الدَّوْرية منها والطارئة، لا يتغيَّب أبدًا، اجتماعات لا تتوقف، تكاد تعقد يوميًّا، يدفع الاشتراك بانتظام

ويحتفظ بجميع إيصالات الدفع مرتَّبة ترتيبًا كرونولوجيًّا دقيقًا في دولاب خاص مربوطة بمطاط أسود.

شأنه شأن كثير من المجاهدين المتنفذين، تكريمًا لنضالاته في ثورة التحرير فقد تنازلت له البلدية عن حانة جميلة كانت ملكًا لأحد المُعمِّرين، حانة ومطعم كان اسمها الاستقبال الجميل Le Bon Accueil، البناية تحفة معمارية بديعة، كانت مفخرة ساكنة الأصنام Orléansville سابقًا من الفرنسيين والأوروبيين في الأربعينيَّات والخمسينيَّات من القرن الماضي. كانت الحانة في الزمن الاستعماري نقطة التقاء نُخَب المدينة والمنطقة من الشعراء والرسامين والمصورين والصحفيين والموسيقيين والسياسيين، بُنيت الحانة على الطريقة الموريسكية الأندلسية، أرضيتها وجزء من جدرانها مزينة بزليج عليه رسوم مضلعات متناسقة جميلة يغلب عليه اللونان: الأزرق والأصفر، وأبوابها ونوافذها من خشب الزَّان العتيق النادر لا تزال تقاوم الزمن ولم تفقد من رونقها شيئًا، للحانة حديقة خلفية فسيحة نُصبت عليها طاولات من رخام تقليدي موزَّعة بانسجام تحت ظلال أشجار السَّرْو والميموزا والنخيل، من الجهة الأخرى عند المدخل الرئيسي تتربَّع شجرة ياسمين مُعمِّرة امتدت أغصانها حتى بلغت البناية المجاورة، من بلاغة جمال هذا المحل وفرادته فقد اختير كصورة لبطاقة بريدية للتعبير عن جمال مدينة الأصنام، بطاقة دارت العالم كله أيام الاستعمار الفرنسي، ويحتفظ أبي برُزْمة من هذه البطاقات التي عثر عليها في صندوق يومَ تسلَّم مفاتيح المحل إلى جانب كثير من الرسائل والفواتير والصور العائلية وصور شخصية لزوَّار الحانة من الشخصيات المدنية والعسكرية والفنية والثقافية، بعضها طواه الزمن في النسيان والبعض الآخر لا يزال يُذكر اسمه ها هنا أو ها هناك.

يحدث أن يُخرج أبي تلك الصور من الصندوق ويبدأ في تفحُّصها واحدة فواحدة علَّه يعثر على صورة لأبيه الذي اشتغل نادلًا لسنوات طويلة في هذا المحل نفسه، لم يَكُن يعرف ملامح وجه أبيه، لكنَّ وجهًا ذا ملامح محلية يتكرر في كثير من الصور أثار انتباهه، يظهر دائمًا بابتسامة عريضة وسط مجموعة من الزبائن من الرجال والنساء الأوربيين، وهم سعداء به.

اشتهرت حانة الاستقبال الجيد أيام الاستعمار بتقديم نوع من المشروب الكُحُوليّ الخاص لزبائنها اسمه الماحيا أو الأنيسيت، وهو شراب يهود المدينة المفضل والذين أبدعوا في تقطيره وتشكيله، درجوا على احتسائه يوميًّا عند الساعة الحادية عشرة صباحًا، الكل متعود على ساعة الأنيسيت L'heure de l'anisette، كانت هناك عائلة اسمها غريناسية ذات الأصول القُسَنْطينيَّة استقرت بالمدينة منذ بداية القرن العشرين، واشتهرت بتقطيره وتسويقه، إضافة إلى ذلك يقدم المحل الجِعَة بكل أنواعها والنبيذ المحلي والمشروبات غير الكحولية أيضًا. يرتاد المحل الرجال والنساء على حدٍّ سواء، ولسهرات نهاية الأسبوع إيقاع خاص وطقوس مميزة تُنشِّطها أصوات فنية قادمة من وهران ومن الجزائر العاصمة ومن مرسيليا وباريس، ومِن بين مَنْ كان يتردد وبشكلٍ كبيرٍ على هذا المحل بشهادة الصور المغنية الشيخة الريميتي ورينات الوهرانية، وكان لهما جمهور واسع من العشاق وغيرهما.

كان والدي سعيدًا بهذا المكسب الذي منحه إياه الاستقلال، غنيمة الحرب التحريرية حانة - مطعم في وسط المدينة، وأية حانة! أول ما قام به والدي بمجرد تسلُّم عقد التنازل عن الملكية من رئيس البلدية ومسئول قسمة الحزب الحاكم هو تغيير اسم الحانة من بار الاستقبال الجيد

Bar Le Bon accueil إلى مقهى الاستقلال، وثاني إجراء قام به وبعد أداء صلاة أول جمعة من تاريخ التنازل له على المحل، قرر منع تقديم المشروبات الكحولية للزبائن والاكتفاء بالقهوة والمشروبات الغازية والمعدنية وبعض الحلويات.

في خِضَمِّ الابتهاج العارم بالاستقلال الوطني، كان الناس سعداء بهذين القرارين الثوريين اللذين اتخذهما والدي المالك الجديد للمحل.

ها هو الاستقلال يعطي أولى ثماره!

لم تمضِ السنة الأولى على امتلاك والدي لمقهى الاستقلال وتسييره حتى بدأت شجرة الياسمين المعمرة تفقد رونقها ويخبو أَلَقُها، ويتساقط زهرها الأبيض في ذبولٍ خريفيٍّ مبكر، وبدأت تجفُّ فروعها فتتعرَّى من تحتها الأسوار، دون أن ينشغل أحد لذلك، وأمام منظرها الذي لم يعُد يسرُّ لا المارَّة ولا الزبائن، وما عاد جمالها يخطف الأنظار ولا عطرها الفوَّاح يصل الشارع والساحة الرئيسية كما كان، أمام هذا الوضع البئيس لم يتأخر والدي أن وجد الحل! ذات صباح ببرودة أعصاب قطع شجرة الياسمين من الجذور وبلَّط مكانها بالإسمنت والقَطِران الأسود القبيح، وكأنما حزنًا على موت شجرة الياسمين لم تتأخر شجرة الميموزا هي الأخرى حتى بدأ صفار أزهارها الذهبي يميل نحو الأبيض المُغبَّر، وهي التي ظلت لسنوات تبعث سعادة في الشارع من خلال تميُّز لونها الزعفراني المبهج الذي يُرى من جميع أركان الساحة الكبيرة، ولم تعُد تنتظر سوى فأس الحطّاب الجاهز.

أفكار والدي كثيرة!

ذات يوم قرر والدي أن يبني على مساحة الحديقة الخلفية الجميلة للمقهى محلًّا تجاريًّا يُخصص لبيع الألبسة المستعملة، وبعد أيام حلَّت جرافة البلدية الضخمة بالمكان، فجرفت الطاولات الرخامية الجميلة واقتلعت النخيل والسَّرْو وما بقيَ من شجر ونبات ومربعات العشب الأخضر المرسومة على الأرضية بأشكال جميلة فائق الدقة، من فوق الرصيف واقفًا كان والدي يتابع عملية التجريف بسعادة كبيرة، والناس تمرُّ ولا تلتفت لما يحصل، وكأن الذي يجري لا يهم أحدًا من المارَّة، وبعد أسابيع نبتت في المكان بناية بثلاثة طوابق، غُرَف كثيرة في الطابقين العلويين ومخازن ومرآب كبير في الطابق الأرضي.

لم تُثِرْ عملية الحفر وتجريف الأشجار أي استفسار أو استنكار لدى العابرين ولا لدى المقيمين في الأنحاء، بدا الجميع وكأنهم متصالحون مع مثل هذا القبح الذي يزحف على مدن أوروبية جميلة ورثوها بجدارة من المستعمر كغنيمة حرب.

سكوت، إنهم يبنون زمن الاستقلال!

كان أبي سعيدًا سعادةً غامرةً ببنايته الجديدة ذات الطوابق الثلاثة، أما الطابق الأول فقد أقام فيه مطعمًا شعبيًّا يقدم أكلة الكارانتيكا والسردين، وخصص الطابق الثاني فقد اتخذ منه شاشة عمومية، مُخصَّصة لاستحمام النساء بين منتصف النهار وحتى الرابعة مساء، وخارج ذلك الوقت فهو مخصص للرجال، أما الطابق الثالث فقد جعل منه محلًّا لبيع الملابس الأوروبية المستعملة للرجال والنساء والأطفال.

أصبح المحل التجاري قِبْلَةً لكل من يدخل المدينة زائرًا أو من يقيم فيها،

ونظرًا لهذا الإقبال الكبير على الحمام والمطعم ومحل بيع الملابس المستعملة فقد أصبح أبي عَلَمًا من أعلام المدينة، بشعبية تكبر كل يوم، وأصبح اسمه على كل لسان، لا يدخل أحد المدينة إلا ويمرُّ على محل بيع الألبسة المستعملة، يقتني منها وبأسعار زهيدة للابن أو البنت أو الزوجة، وأضحت معالم المدينة ومواقعها تُحدد بحسب موقع محل مطعم كارانتيكا السي عللّا فليتا، فالمسجد جامع اليهود يوجد قرب محل كارانتيكا، والبلدية على يمين محل كارانتيكا ونلتقي عند محل كارانتيكا، كل ما في المدينة أصبح مُعلَّمًا بهذا المحل وهو ما فتح شهية والدي ذات يوم للترشّح للانتخابات البلدية.

ترشَّح والدي لأول انتخابات محلية في الجزائر المستقلة، ورتب اسمه على رأس القائمة الوحيدة للحزب الوحيد الأوحد، وكان مُتأكِّدًا بأنه سيفوز ضد أي منافس له في القائمة نفسها، فالنتيجة محسومة مسبقًا، قبل موعد الانتخابات بثلاثة أيام قرَّر والدي تقديم وجبات كارانتيكا مجَّانًا للجميع، كما أنه أحدث تخفيضاتٍ على أسعار الألبسة المستعملة وصلت إلى الخمسين بالمائة، ولم يَكُن يتردد في توزيع بعضها مجانًا على الكثيرين.

أطلق البارود من كل الجهات، ورقصت فرقة العرفاء الفلكلورية رقصة العلاوي في الشارع وفي الزقاق أمام باب منزلنا، ولعب الفرسان القادمون من الأرياف لعبة الفنتازيا في الشارع الرئيس بعد أن أوقفت حركة السيارات فيه، ونُصبت الخيام في الساحة الرئيسية، وذُبحت الخرفان وعمَّت رائحة الشواء، دام الفرح ثلاثةَ أيامٍ وأربعَ ليالٍ ومعه ظل محل كارانتيكا السي فليتا يقدم الأكلات مجانًا وبسخاء، وفُتحت أبواب الحمام العمومي مجانًا للجميع يوم الجمعة قبل الصلاة الكبيرة.

وفي يوم الإعلان عن النتائج، لم يَفُز أبي في الانتخابات مع أن الفرز العلني للأصوات وبحضور شعبي أعطاه المنصب الأول ويفارق كبير عن الاسم الذي يليه، لكن يوم التنصيب جاء مسئول حزبي كبير من العاصمة ونَصَّب شخصًا آخر.

وانتهت حكاية الانتخابات وعاد الناس إلى أماكنهم.

فرحت أمي لالة رحمة لهزيمة والدي لأنها لم تَكُن تريد له أن يدخل السياسة التي هي وجع الرأس، ولا تجلب سوى المصائب.

كان أبي أول شخص في زمن الاستقلال يقتني سيارةً من نوع 404 بيجو في الحي الذي نسكنه وفي المدينة كلها، وكانت أمي مبتهجة لذلك كثيرًا، كلما أطلَّت من باب الحوش الكبير أو من النافذة ووجدتها مركونةً على الرصيف وقد أحاط بها مجموعة من الأطفال مندهشين يتفحَّصون كل تفصيل فيها، وكان أخي مهدي وبأمر من أمي يبقى جالسًا عند درجات العتبة يراقب الأطفال من بعيد ويحذر كل مَن يحاول لمس السيارة، وإذا ما مسَّها أحد يطلق صرخة كبيرة فتجيء أختي نوارة لتلاحقهم فيهربون حتى مفرق الزقاق ثم يعودون بمجرد دخولها، ولأن والدي لم يَكُن حائزًا على رخصة السياقة فقد تولَّى سياقتها مصطفى أوبختي الذي يدَّعي بأنه حائز على ثلاث رُخَص سياقة أجنبية، واحدة للسيارات السياحية والثانية للشاحنات وثالثة للدراجة الهوائية، وأنه كان يسوق سيارة في تونس، بل اشتغل سائق حافلة عمومية لفترة طويلة، ولكن لا أحدَ من أبناء الحَيّ دقَّق فيما رواه مصطفى أوبختي.

في الحقيقة لم تكُن سياقة سيارة بيجو 404 مغرية لمصطفى أوبختي فهو

عاشق لا يبدل عشق قيادة درَّاجته الهوائية أَبُولُّو بأية مركبة أخرى، يفضل الانتقال على الدراجة لقضاء حوائجه، فهي أسرع وأخف ولا يستعمل السيارة التي يتعذَّر مرورها أصلًا في زنقة سليمان الطرَّاح إلا حين يكون مضطرًّا إلى ذلك، كنقل بعض السلع الخاصة بالمقهى ومطعم كارانتيكا كالسكر والقهوة والحليب والخبز، ومرات حين يُدعى لنقل أمي أو حنة منصورة من المنزل إلى مكان إلى آخر بعيد لقضاء أمر مستعجل.

كنت معجبًا بمصطفى أوبختي وهو يجلس خلف مِقوَد سيارة بيجو 404، أستغل مثل هذه اللحظات فأجلس بجواره على المقعد الأمامي وهو يقود السيارة بمهارة وبين الفَيْنَةِ والأخرى يطلق ضربات من البوق، فأسعد أي سعادة، وأمدُّ يدي وأضغط أنا أيضًا على الكلاكصون، فيقهقه كالطفل الصغير، ونمضي.

ألف ليلى وليلى!

بعد الكأس الثالثة، يبدأ مصطفى أوبختي في الهذيان، ينزلق لسانه حُرًّا وصادقًا:

"طفتُ كثيرًا من المدن والبلدان، ضعتُ في تونس ووصلتُ حتى صيدا في لبنان ودمشق في سوريا وتومبوكتو في مالي وشنقيط في موريتانيا، عاشرتُ نساء كثيرًا ت بِيضًا وسُودًا من مختلف الأعمار، لكن فتاة وحيدة ظلت حكايتها ملتصقة بجلدي، تحرقني منذ سن المراهقة، هي وشم على الروح لا يزول، قصة قد تبدو للجميع بسيطة لكنها باقية إلى الأبد، اسمُها سارَّة شوراكي، أحببتُها حُبًّا جنونيًّا، لكن الأيام لا ترحم، الأيام يصنع تعاستها وبهجتها الإنسان.

حين يتحدث مصطفى أوبختي عن الطفلة سارة يتحول إلى شاعر، يتغير شكل وجهه ويتبدل صوته حيث تظهر فيه ارتجافة غريبة.

والحرب التحريرية في سنتها الأخيرة، حدث ذلك بالضبط في اليوم الذي وصلنا فيه خبر غرق يونس في البحر وهو سكران، وكانت لالة رحمة تجري حافية في الشارع وتضرب على فخذيها باكية نادبة وجهها بأظفارها، ونوارة تجري من خلفها وهي تهدِّئ من روعها وتحاول أن تعيدها إلى البيت.

في المدينة ازدادت شدة العنف وكثرت الاغتيالات مما جعل بعض العائلات الأوروبية تقرر الرحيل، على أمل العودة إلى منازلها وتجارتها وعقاراتها بعد أن تهدأ الأمور وتخمد نار الفتنة، وفي جحيم هذا الخوف وعلى عَجَلٍ كأنما هي تسابق الموت جمعت عائلة سارة بعض أغراضها واعتزمت مغادرة المدينة بحثًا عن مكان هادئ، فكانت تونس مقصدها وبالضبط إلى جزيرة اسمها جربة فلها هناك أقارب كما يُقال.

كان جدُّها الشيخ مسعود شوراكي هو مَن يتولى مهمة حاخام جامع اليهود بالمدينة، وكان رَجُلًا محترمًا لدى الجميع من المسلمين وغير المسلمين، عندما يدخل حيَّنا لا يتكلم إلا بالعربية أو بالمزابية، يلبس مثل لباسنا ويأكل من طعامنا، يحرص على مشاركة الأهالي المسلمين الاحتفال بأعيادهم الدينية والمدنية، ولم يُشاهد يومًا ولو مرةً واحدةً يفطر في رمضان، بل يقول البعض بأنه كان يصوم مع المسلمين الشهر كاملًا.

وحين قررت عائلة شوراكي الهجرة إلى تونس اختار الشيخ مسعود البقاء في البلد قانتًا في معبده، يقضي يومه وبعضًا من الليل بين كتبه وصلواته وتسجيل مذكراته، وقد جعل من جامع اليهود مقرًّا سرِّيًّا للقاءات واجتماعات بعض قادة جبهة التحرير الجزائرية، وبكل حرص وأمانة كان هو بنفسه يشرف على أمن المجاهدين ويتولى مهمة توصيل الرسائل السرية المتبادلة بين القادة في المدينة وخارجها.

كان كلما جلس إلى الثوار المجتمعين في الكَنِيس يقول لهم مُذكِّرًا: إنني كيهودي لا أردَّ لكم سوى بعض الجميل، هل تعلمون بأن إمام مسجد باريس الأكبر السي قدور بن غبريط - رحمه اللّـه - أخفى عشرات الأطفال

والشباب اليهود الذين كانت تلاحقهم النازية، لإرسالهم إلى المحتشدات الألمانية المرعبة للإبادة الجماعية، لقد منحهم الحماية مصرحًا أمام شرطة فيشي بأنهم أطفال مسلمون.

كان يؤكد للمُجتمِعين وبكثيرٍ من العمق: أنا لا أقوم إلا برد جزء من هذا الدَّين التاريخي الذي هو علينا، يجب أن نرده للسي بن غبريط وللجزائريين أبناء بلدي المسلمين، وأعمل ما هو مطلوب من المؤمن الصالح في الدفاع عن الحق ومساعدة الرجال الثوار المجاهدين الذين يدافعون عن إحقاق الحق، رجال يريدون تحرير هذا البلد الذي هو بلدنا جميعًا من الاستعمار والظلم.

كانت الطفلة سارة شوراكي مثل بنات المسلمين جميعًا تتكلم لهجتهن، وتلبس مثل ما يلبسن وترتاد تلك المدرسة التي تجمع أطفال بعض الأهالي المسلمين وبعض الأوروبيين أيضًا.

لم يَكُن هناك فرق كبير بين سحنات الوجوه التي تؤدي الصلاة في المسجد وتلك التي تؤديها في جامع اليهود، ألبسةُ هؤلاء المؤمنين في الفضاءَيْن كانت متشابهة، يلبس روَّاد جامع اليهود أو جامع المسلمين البرانيس والجلاليب الندرومية أو التلمسانية ويضع الجميع قلنسوةً بيضاء فوق رؤوسهم، يحلقون عند الحلَّاق نفسه: السي عبد الباقي شكيب.

يذكر الكثيرون ذلك الشتاء الاستثنائي بأمطاره وثلوجه التي لم تتوقف عن السقوط لعشرة أيام متتالية، تسبَّب في انهيار جزئي لسقف المسجد البسيط المصنوع من الطوب والتراب، وجرفت السيول العنيفة في طريقها الحصير الحلْفاوي الكبير وقد ملأ الماء أرضية قاعة الصلاة ووصل حتى سُدَّة المنبر

الصغير، وغمر كثيرًا من الكتب والمخطوطات والمصاحف، مما جعل إقامة الصلاة في المسجد مستحيلة، فكان أن فتح الحاخام مسعود شوراكي باب جامع اليهود للمسلمين لأداء الصلاة في رحابه، ولمدة أسبوعين كاملين ظل أهالي القرية يؤدون صلاتهم في المكان دون حرج ولا تردد، وكان المؤذن يرفع الأذان من فوق سطح الكَنِيس جامع اليهود.

الجمعة تقيم في السبت!

كلما سمع الشيخ مسعود شوراكي مُؤذِّن الإسلام يرفع الأذان من فوق سطح الكنيس اليهودي يقول: اللَّه أو يهوى يُنادَى عليه من كل المنابر، وهو يسمع قلب المؤمن الصادق أينما كان فيستجيب لصلاته ودعائه، بأية لغة كانت، إن إلهنا واحد وجدُّنا إبراهيم واحد.

كنت أدعو سارة لشرب قهوة العصر معنا ونحن عائدان من المدرسة فلا ترفض، وكانت تبدو فَرِحةً بيننا وكان أبي - اللَّه يرحمه - والذي يحب القهوة كثيرًا سعيدًا بوجودها وأمي كذلك، كانت بنتًا مؤدبة ونظيفة، تعتني بلباسها وبتسريحة شعرها وبعطرها التقليدي الذي تقطره أمها لالة مريمة بنت يعقوب الهلالي من زهر الياسمين والخُزامَى النابتة بحديقة حوشهم الخلفية.

يملك والد سارة السيد هارون شوراكي ورشة تقليدية عائلية صغيرة متخصصة في تقطير مشروب البوخا المستخرج من التين المجفف، وكان أيضًا مُربِّيًا للعصافير خاصة المقنين والكناري، يقضي جُلَّ أيامه متنقلًا بأقفاصه المحملة بالطيور ما بين المدن الساحلية والداخلية، من وهران إلى العاصمة فقُسَنْطينَة وعنَّابة وتِلِمْسان وغرداية وكولومب بشار وسعيدة وبوسعادة

وبجاية، وغيرها وكان إلى ذلك طبيبًا بيطريًّا بالتجربة لا بالدراسة، لم يتردد يومًا في مساعدة الفلاحين بالقرى المحيطة بالمدينة على رعاية صحة أغنامهم ودوابِّهم، ومساعدتهم بالنصائح وببعض العقاقير أيضًا التي يصنعها بنفسه.

تبدع سارة وبشكل مثير في تقليد أصوات العصافير التي يربيها والدها، وكانت تجيء إلى القسم حزينةً كلما سافر أبوها بأقفاص طيور تعودت على الغناء معها لبيعها في مدن بعيدة، وكنت أسعد وأنا أستمع إليها تغني مثل العصفورة، فأتخيَّلها بجناحين محلقةً في السماء.

حين أركب أَبُولُّو دراجتي الهوائية، وأسير بسرعة جنونية دون اتجاه محدد أجدني أفكر مباشرة في سارة شوراكي وكأنني أقتفي أثرها حتى جربة، لم أكن أعرف بأن هناك مدينة أو جزيرة تُسمَّى جربة حتى يوم حطَّت بها سارة وعائلتها، وقد تحدث عنها أبي وهو يذكر ما خلَّفه فراق آل شوراكي من أثر عليه. بحثت في قاموس المدن والخرائط ووقعت على جربة، كَمْ هي بعيدة يا إلهي، كنت في الليل حين أختلي بنفسي أتساءل كَمْ من الوقت يلزمني كي أدركها، من مدينة الأصنام حتى جربة ركوبًا على أَبُولُّو؟

يلزمني ثلاثة أسابيع بأنهُرها ولياليها، الرِّجْل على الدوَّاسة دون توقف، دون نَفَس.

حين سكتت الحرب التحريرية ورُفع العلم الوطني على المباني الرسمية وعلى أبواب المنازل في القرى والمداشر وتراجع الخوف، سكنتني ولمرات عديدة فكرة السفر إلى هناك، إلى جزيرة جربة بحثًا عن سارة، وربما العيش هناك، لِمَ لا؟ لم تكُن لي الشجاعة اللازمة للإقدام على ذلك، أركَنُ للتردد وأُرجئ المحاولة ليومِ آخر، يوم آخر من الندم والانتظار.

كلما تأملت في وضعية جامع اليهود الذي ظل طويلًا مهجورًا حتى تهاوت بعض أجزائه، وتحولت درجات مداخله المصنوعة من الرخام التقليدي الأصيل إلى مَبْولَة للسَّكارَى آخر الليل، أو للقرويين الذين يرفض أصحاب المقاهي فتح المراحيض لهم لقضاء حاجتهم الطبيعية، كلما شاهدت مثل هذه المناظر أحزن كثيرًا، وأفكر في ركوب دراجتي الهوائية والانطلاق مباشرة بحثًا عن سارة وعن جدها الشيخ مسعود شوراكي، الذي اختفى هو الآخر بشكلٍ مفاجئ ومثير بعد أن اكتُشف أمر علاقته بجبهة التحرير الوطني، منذ ذلك اليوم لم يظهر له أثر".

حين انتهى مصطفى من سرد قصته مع سارة قلت له:

- لقد جاء الاستقلال، فلماذا لم ترجع سارة إلى بيتها وحيِّها؟

ظل ساكتًا.

ثم سألته ثانية:

- ماذا يعني الاستقلال يا صاحب أبولُّو؟

قال لي:

- قالوا هو أن نعيش في بلدنا لوحدنا.

قلت له:

- ما معنى لوحدنا؟

قال لي:

- قالوا بدون الآخرين.

قلت له:

- مَنْ هم الآخرون؟

قال لي:

- قالوا الذين ليسوا مثلنا.

قلت له:

- وما الفرق بين سارة والأخريات من البنات؟

قال لي:

- قالوا إنها حفيدة الشيخ مسعود شوراكي؟

قلت له:

- لقد أكلت من خبزكم وذاقت مِلْح الدار فكيف يكون الاستقلال بدونها؟

قال لي:

- قالوا هو الاستقلال هكذا يجب أن يكون، وهكذا كان.

بِحَيْرةٍ نظرتُ إلى زوج أختي، كان هو الآخر حزينًا وحائرًا.

كان والدي عللًّا فليتا يحب الريِّس جمال عبد الناصر حبَّ العبادة، وربما وَرِثَ ذلك عن الرئيس الذي سمَّاني باسمه، السي حميميد! وكان كلما جاء ذكره على الألسن إلا ويشبهه بأبيه بوطالب الكيَّاس، أي جدي، من أين جاء هذا الشبه، لا أحد يدري، فالرجلان يختلفان في كل شيء، في المسار وفي المصير، فلكُلٍّ نهايتُه الخاصة، فالريِّس جمال عبد الناصر مات على فراشه بسكتة قلبية كما يُقال، واللّه أعلم، أما جدي فقد مات وقد بلغ من العمر مائة عام وزيادة، هكذا يُروى، لا أحد يعرف لا تاريخ ميلاده ولا تاريخ وفاته ولا حتى مكان قبره، يُقال إنه حين اختفى عن الأنظار لم تَكُن سقطت من فمه سِنٌّ واحدةٌ وظل بشعره كاملًا لم يأكله الصَّلَع ولا الشيب، لم يَزُر طبيبًا ولا عشَّابًا في حياته باستثناء تلك الرقابة الصحية العسكرية التي أُجريت له قبل أن يتم إرساله إلى بلاد الشام سنوات الحرب العالمية الأولى، لا أحد فهم لماذا أُرسل إلى الشام مع أن الجميع يتحدث عن أن الحرب كانت مصدرها وساحتها البلاد الأوروبية المسيحية، ظلَّ أبي يحتفظ وبعناية كبيرة بجريدة بالفرنسية تحمل صورة أبيه على صفحتها الأولى وهو شاب مجنَّد بسلاح ناري وبجواره صورة لمصطفى كمال أتاتورك.

لا أحد يؤكد بأن الصورة التي على الجريدة هي لجدي فلا شيء يشير لاسمه، لكن أبي مُصرٌّ على أنها له، على الرغم من كل هذا التعنُّت من

والدي فإنه لم يستطع إقناع أمي بحقيقة الصورة ولا حتى حنة منصورة.

لسنوات عديدة، ظلت صورة البكباشي جمال عبد الناصر إلى جانب صورة مصطفى كمال أتاتورك تتصدَّران جدار صالون الضيوف داخل إطارين من خشب عتيق مبرنق وزجاج شفاف، لا أحد فهم سر التقاء صورة البكباشي جمال عبد الناصر بصورة كمال أتاتورك على هذا الجدار، في منزلنا؟

مراتٍ كثيرة كنتُ أشكُّ في صحة عقل والدي عللَّا فليتا! وكانت أمي تعاتبني وتغضب من مثل هذا الكلام.

كانت أمي وبحركات دقيقة موزونة تشبه حركات طقوس العبادة تمسح الغبار عن الإطارين يوميًّا تقريبًا أو كلما كان هناك موعد لاستقبال ضيف، أو في مناسبات الأعياد الدينية والوطنية والعائلية.

عين أمي لا تسهو على غبار قد ينزل على زجاج إطارَي الريس وأتاتورك، وعين والدي لا تنام عن صورتَي الشخصين.

إذا جلس والدي في الصالون لا يجلس إلا قُبالة الإطارين، لا تنزل عيناه عنهما لحظة، على الرغم من أن نظره قد ضعف وبشكلٍ واضحٍ بعد هزيمته في الانتخابات المحلية، لا أحد استطاع أن يفسر العلاقة ما بين تدهور قوة النظر بهزيمة سياسية في انتخابات البلدية، في الأخير قرر لبس نظارة بزجاج سميك لا تستجيب لمقاييس درجة الرؤية لديه، فقد اقتناها من بائع جوَّال، ولم تغير النظارة شيئًا من رؤيته بل ربما زادت في تدهورها، ومع ذلك لم ينزل نظره عن الإطارين حتى وهو لا يميز بشكل جيد تفاصيل الصورتين.

ربما لهذا الأمر أنزلت أمي لالة رحمة الإطارين من مكانيهما.

كان والدي أول من لبس النظارة بين جموع الأهالي في حيِّنا، لقد كانت النظارات مقتصرة على الفرنسيين والأوروبيين بل حتى بعض نسائهم كُنَّ يلبسنها، وهذا أمر يُعد عيبًا عندنا، فالنظارة لا تكون إلا للرجال فقط، وكان أبي بنظارته يثير سخرية الأطفال وحتى بعض الكبار بمجرد عبوره زنقة سليمان الطراح أو زنقة رابح الحرايري.

كلما جلسنا في الصالون لتناول قهوة العصر كان أبي وهو يحدِّق في صورة البكباشي جمال عبد الناصر بلباسه العسكري يردد: "هو الريِّس محرر القدس الشريف، ومحرر فلسطين كاملة غير منقوصة"، وكانت أمي تفرح كثيرًا لمثل هذا الكلام، تفرح لمجرد أن تلمح علامة السعادة مرسومة على وجه أبي، لمجرد نطق كلمة القدس أو المسجد الأَقْصَى الذي سرى إليهما الرسول على ظهر البُرَاق يحمرُّ وجهها.

"ما البراق؟"، تسأل أمي.

"اختلف المفسرون في معنى البراق الذي ورد في قصة الإسراء والمعراج، البعض يقول إنه عبارة عن حصان بجناحين والبعض الآخر يقول إنه بغل بجناحين، والبعض يقول إنه طائر، واللّـه أعلم".

هكذا يرد أبي عن سؤال أمي التي كانت تعتقد اعتقادًا نهائيًّا بأن القدس والمسجد الأقصى موجودان في الجنَّة وليس على الأرض كما هي المدن والمساجد الأخرى، لذلك سافر إليها الرسول على ظهر البراق.

لم أكن أفهم ما يقوله والدي عن البراق ولم أتخيَّل يومًا فَرَسًا أو بغلًا

بجناحين، ولم يَكُن يقنعني مثل هذا الشرح فأضحك، وكانت أمي تغضب من رد فعلي هذا، مع ذلك كنت حينما آوي إلى السرير للنوم أشعر بالخوف كلما فكرت في هذا البراق وأحس بأن أبي لا يتحدث من فراغ، وأمي لا تفرح إلا لشيء عظيم حتى ولو كان غير واضح في رأسها، هي الأمهات هكذا جُبلن، كنت شبه متأكِّد بأن هذا الذي يتحدث عنه أبي ليس بالأمر الهيِّن، بل يستحق الاحترام والتقدير.

مع ذلك كنت لا أحب ذوي البِزَّة العسكرية.

وحينها أدركت بأن فرحة أمي بالبكباشي جمال عبد الناصر بسبب اعتقادها بأن هذا الأخير هو المهدي المنتظر، الذي سيحرر القدس والمسجد الأقصى ومعها فلسطين كاملةً غير منقوصة من قبضة اليهود.

حين سألت أمي: لماذا تفرحين لذكر اسم الريس جمال عبد الناصر وقد مات على سريره ولم تُحرَّر فلسطين ولا بيت المقدس؟ أجابتني أمي بكثير من الثقة بأن الريِّس لا يزال حيا وأنه ينام كالأرنب بعيون مفتوحة وهو صامد على جبهة القتال، وسيفاجئ اليهود في المكان المناسب والوقت المناسب، وإن خبر موته هي إشاعة مقصودة.

كانت أمي تتحدث بحماس مثل مذيع برنامج الثورة الفلسطينية على إذاعة فلسطين من القناة الأولى للإذاعة الوطنية، بطبيعة الحال مع الاختلاف في اللغة والأسلوب.

كلما شاهدت أمي غارقة في طقوس مسح إطار صورة البكباشي، أستعيد على الفور ما رواه لي مصطفى أوبختي من تفاصيل قصة سارة شوراكي

حفيدة الشيخ مسعود الفتاة ذات الضفيرتين الطويلتين:

"من بعيد لمحت سارَّة، كنتُ واقفًا كعمود كهربائي مُطفَأ على الرصيف، تلك كانت آخر مرة أراها، كانت مستندة بظهرها على باب منزلهم الكبير الذي يوجد في آخر زنقة رابح الحرايري، غير بعيد عن بيتنا، إلى جانبها مجموعة من حقائب السفر الكبيرة المملوءة حتى لتبدو الواحدة منها أكبر من سارة، وعفش كثير آخر، جميع أفراد الأسرة كانوا واقفين قدام الباب الذي أغلقته الأم بمفتاح كبير وأدخلته في صدرها وهي تفكر دون شك في يوم العودة، إنهم ينتظرون وصول سيارة شحن، لحظتها بكيتُ، وأخفيتُ دمعي عن رفاق الحي، وهي تغادر الزقاق للمرة الأخيرة، لم يترك لها سائق الشاحنة الثَّخِن ذو الشاربين المعقوفين والذي يشد سرواله العريض بحمَّالة من جلد أصفر ويعَضُّ على غليون خشبي كبير، الفرصة لكي تشير لي ولو بحركة وداع صغيرة من يديها الرقيقة حيث المعصم يطوِّقه سوارٌ من الفِضَّة اللامعة".

كلما تحدث مصطفى أوبختي عن حكايته مع سارة شوراكي يتحول إلى طفل ضائع.

اختفت عائلة شوراكي وارتفعت في بيتنا وعلى جدار الصالون صورة البكباشي.

ضعتُ بين سارة والريِّس؟

كلما دققت النظر في صورة الريس مستعيدًا حكاية سارة تعاظمت حيرتي، فيؤرِّقني سؤال أشعر به كمسمار يحفر في دماغي بعنف فأخاف طرحه على أمي أو على أبي: ما علاقة البكباشي بشوراكي، كلاهما ساعدا

الثورة الجزائرية، الأول مسلم والثاني يهودي، فلماذا يتحاربان هناك ويقفان مع الثورة الجزائرية ها هنا؟

أسكتُ.

ها هي البلاد تعيش زلزالين عنيفين؛ زلزال الربيع الأمازيغي في بلاد القبائل شرق العاصمة الذي انطلقت شرارته عقب منع محاضرة عن الشعر الأمازيغي، كانت مبرمجة في جامعة تيزي وزو يلقيها الروائي والأنثروبولوجي مولود معمري، وزلزال الأصنام في القطاع الوهراني غرب العاصمة.

زُلزِلت الأرض زلزالَها!

زلزالان، الأول بقوة 9 درجات على سلم الصراع السياسي والثاني بقوة 7,3 على سلم ريشتر الجيوفيزيائي.

بمطار هوَّاري بومدين الدولي تحطُّ طائرة وعلى متنها الشيخان: محمد الغزالي وتابعه الشيخ يوسف القرضاوي.

البلاد كما في مجرى هواء!

طهران، كَابُل، الجزائر.

الشيخ الغزالي يتخذ من قناة التلفزيون الوحيدة في البلد مسكنًا له، حيث شرع في تقديم دروس حول مشروع مجتمع إسلامي جديد.

الشيخ يوسف القرضاوي يعيش قصة غرام مع الطالبة أسماء، طالبة في الشريعة، يتبادلان الرسائل العاطفية المليئة بالشعر والأحاسيس الفيَّاضة.

البلد الذي كان البارحة اشتراكيًّا يقلب صفحة الرئيس هواري بومدين ويرفع شعارًا جديدًا: "من أجل حياة أفضل"؟

حياة أفضل!!

الناس سعيدة بوصول الكوكا كولا والموز والكيوي إلى الأسواق.

رئيس مؤمن في القاهرة ورئيس مؤمن ثانٍ في الجزائر.

الإسلام في القلوب والقلق في الشوارع.

جماعات متشددة تُسمَّى التكفير والهجرة، تتأسس داخل الأحياء الجامعية في كثير من المدن الجزائرية، وتشرع في التحضير لعملية تسفير الطلبة إلى أفغانستان لمساندة المجاهدين في حربهم ضد الملاحدة من الشيوعيين السوفييت.

في المساجد، وتعليقًا على الزلزال المدمِّر الذي ضرب مدينة الأصنام وضواحيها، يخطب الأئمة وعلى إيقاع واحد وبرسالة مُوحَّدة إلى المؤمنين مَفادُها: "إن اللَّـه يعاقب عباده بالزلزال لثلاثة أمور: الابتعاد عن تطبيق الشريعة الإسلامية، تفشِّي ظاهرة اللُّوَاط أو السِّحَاق، فكلما نام رجل مع رجل أو امرأة مع امرأة إلا وزُلزلت الأرض زلزالها، أو لأن مدينتهم تحمل اسم الأوثان، وليعلم الجميع أن المدينة التي ضربها الزلزال اسمها (الأصنام)".

وبعد أقل من أسبوع على الزلزال وباقتراح وضغط من قوة إسلامية خارجية، قررت السلطات العليا في البلاد تغيير اسم المدينة رسميًّا من "الأصنام" إلى "الشّلف".

البلاد ضائعة والبوصلة مرتبكة.

ضاع الشرق والغرب ضاع.

"الإسلامُ هو الحَلّ" يردد الشارع متحمسًا مدفوعًا بصوتَي الشيخين: الغزالي والقرضاوي.

"في جامعة الجزائر المركزية بالعاصمة، اغتيال الطالب كمال أمزال أحد نشطاء الحركة الأمازيغية بطعنة سيف وسط الحي الجامعي من قبل مُتطرّفين إسلاميّين".

بعد أيام، يُصنف هذا الاغتيال السياسي من قِبل الإعلام في خانة الأخبار الاجتماعية المتفرقة.

اختفاء مهدي فليتا الطالب في معهد الرياضيات بجامعة الجزائر.

يقول شهود عيان: "ثلاثة طلاب، دخلوا الحي الجامعي بعد أن حضروا الدرس الذي يعقب صلاة المغرب والذي كان موضوعه العقاب الإلهي بالزلزال، تناول الإمام فيها ما عرفته مدينة الأصنام قبل يوم واحد من عقاب اللّٰه المسلط على قومها الذين لا يأبهون، عباد يعيشون في مدينة تحتفي بالأوثان في اسمها الأصنام ولا يتحركون، وفيها يعيش المثليُّون بكثرة وبكل حرية حتى أضحت المدينة شبيهة بسدوم مدينة لوط الملعونة كما جاء في القرآن الكريم ولا يعقلون، وفيها تغني الشيخة الريميتي داعيةً إلى الفحشاء والخمر ومدح العلاقات غير الشرعية ولا يستنكرون، وإذا ما أراد أهل هذه المدينة من المؤمنين الصُّلَحاء أن يُجنِّبوها اللعنة للمرة الثالثة بعد أن كانت قد صعقها زلزال مدمر في العام 1954 ولم يقرأ ساكنتها الدرس الإلهي جيدًا، فاليوم ولإنقاذها عليهم أن يتخلصوا أولًا من اسم المدينة

الذي يُحيل على الأوثان وأن يؤسلموه وعليهم أيضًا أن ينظفوا شوارعها من كل أثر للمِثليِّين ومن الفَحْشَاء في كلمات أغاني الراي".

كان الثلاثة قد رتبوا كل شيء بدقة، في العاصمة وفي الأصنام المنكوبة، أحضروا السكاكين والمهاريس وبعض أكياس بلاستيكية كبيرة، واتفقوا مع رابع لهم وهو سائق سيارة تابعة لجمعية دينية خيرية تقوم بجمع المساعدات لمنكوبي زلزال الأصنام في العاصمة، وطلبوا منه يكون جاهزًا عند باب الحي الجامعي الساعة الواحدة صباحًا بسيارته، مملوءة بالمساعدات من أغطية ومواد غذائية حتى يتم التمويه على الجثة في حال ما إذا تعرضت السيارة للتوقيف من قِبل الشرطة أو رجال الدَّرَك، كل شيء جاهز، انتظر الثلاثة مهدي فليتا عند مدخل غرفته بعد أن كانوا قد أمروا شريك غرفته أن يُخليَها وأن يجد له مبيتًا في مكان آخر، كانت الساعة الحادية عشرة ليلًا وبمجرد أن هَمَّ مهدي بفتح باب الغرفة وقد أدخل المفتاح في القفل حتى انقضوا عليه كالوحوش، دفعوا به إلى الداخل، ألقوا به فوق السرير، أغلقوا فمه بلصاق بلاستيكي خاص بالتعليب، اعتدوا عليه جنسيًّا بالتناوب ثم خنقوه بحبل بالمخدَّة وبحبل بلاستيكي حول عنقه، وضعوا الجثة بلباسها وبحذائها في كيسين كبيرين أدخلوا الأول جهة الرأس والثاني جهة الساقين، ثم أخرجوها ووضعوه في حاوية الزبالة كانت جاهزة عند أسفل العمارة، في تلك اللحظة كان سائق شاحنة الجمعية الدينية الخيرية لمساعدة منكوبي زلزال الأصنام بالانتظار، في الموعد المحدد والمكان المحدد، ألقوا بالجثة في الصندوق الخلفي للسيارة وأخفوها بين الأفرشة والمواد الغذائية وانطلقوا جهة الغرب، في اتجاه مدينة الأصنام المنكوبة، كان الطريق الوطني رقم 1 فارغًا إلا من بعض دوريات سيارات الأمن وبعض سيارات الإسعاف

والحماية المدنية التي تمرُّ بين الحين والآخر في الاتجاهين.

بعد ثلاث ساعات سير تقريبًا، أدركوا مدينة الأصنام المنكوبة، مدينة أشباح، كل شيء تهاوى، خراب وصَفَّارات إنذار وأضواء كاشفة مُسلَّطة على الأنقاض، وهم يدخلون المدينة كانت بعض المساجد ترفع أذان الفجر وبعض المؤمنين يُهرعون لأدائها في العراء في ساحات مفتوحة، قدام حطام بعض بيوت اللَّه التي هي الأخرى لم تنجُ من لعنة اللَّه.

كانت الخطة مُدبَّرة مُسبقًا وبتنسيق مع مجموعة من أبناء المدينة، وإذ أدركوا مسجد جامع اليهود الذي انهار جزئيًّا والمقابل للسوق التجاري المونوبري وهي أطول عمارة في المدينة، والتي اختفت نهائيًّا من فوق وجه الأرض إذ ابتلعت عن آخرها، الشوارع أو ما يشبه الشوارع من حولها فارغة ومخيفة وكأنما المدينة في يوم الحشر، والأرض لا تزال بين الحين والآخر تميد في ارتدادات متتالية، بعض الكلاب الجائعة الهائمة تحوم بين الأنقاض التي لم تصلها بعد جرافات الإنقاذ بحثًا عن جثة قد بدأت تتفسخ مع هذه الحرارة الجهنمية، بسرعة مستعملين أدوات الحفر التي كانت جاهزة في المكان تحسُّبًا لمثل هذا الموقف في أقل من خمس دقائق أزاحوا بعض كتل الأنقاض المتساقطة على أطراف مسجد جامع اليهود، حيث هوت عمارة مقابلة بثلاثة طوابق، رفعوا أتربةً وأنقاضًا وخرسانةً وطوبًا وحجرًا وبقايا أسقف وشكلوا حفرة كبيرة عميقة، وعلى الفور أخرجوا جثة مهدي من صندوق السيارة سحبوها من الكيسين البلاستيكيين وألقوا بها بثيابها في عمق الحفرة ثم ردوا التراب عليها.

الناس ترفع الأنقاض كي تُخرج الأجساد وهؤلاء يرفعون الأنقاض

كي يدفنوا تحتها جسدًا لم تقبض عليه الأرض حين فتحت فاها ها هنا.

بعد أن انتهوا من عملية ردم الجثة، وبهدوء التحقوا بصفوف المُصلِّين المتجمعين في الساحة المقابلة لمسجد جامع اليهود، وأدوا معهم صلاة الفجر والأرض لا تزال من تحتهم تميدُ وهم رُكَّع، ترقص بين الحين والآخر في هزَّاتٍ ارتداديةٍ عنيفة، وبعد أداء الصلاة غادروا المدينة عائدين إلى العاصمة تحت أصوات الأهازيج الدينية المنبعثة من مُكبِّرات الصوت المرفوعة على الأنقاض، في كل ركن من أركان هذه المدينة الشبح وصفَّارات الإنذار والكشَّافات الضوئية القوية المسلطة على الجرافات وهي تنبش الأنقاض بحذرٍ تحت أعين ما تبقَّى من ساكنة كأنما قامت لتوِّها من القبور.

انتهت المهمة.

بعد أيام سيكون خبر اغتيال الطالب مهدي من أخبار المتفرقات كما حدث مع الطالب الملحد كمال أمزال.

هذه البلاد ليست لا للمَلاحِدة ولا للمِثليِّين ولا للفرنكفونيِّين ولا للشيوعيِّين: "الإسلامُ هو الحَلّ".

في اليوم الرابع بعد الزلزال، عثر رجال الحماية المدنية على جثة أخي مهدي تحت أنقاض مسجد جامع اليهود الذي انهار جزء منه، مساء ذلك اليوم حضر شرطيان ورجل من رجال الحماية المدنية إلى منزلنا وطلبوا من أمي مصاحبتهم للتعرُّف إلى الجثة المحفوظة في بيت الجثث في المستشفى الميداني، الذي هو عبارة عن خيَم طبية مجهزة بأسرَّة نُصبت في ساحة كبيرة عارية، تُستعمل في الأيام العادية كملعب لكرة القدم لشباب وأطفال الأحياء، وتُستعمل أيضًا كسوق شعبية تُقام كل يوم ثلاثاء من الصباح الباكر حتى ما بعد منتصف النهار بقليل، وتُستعمل في الليل كموقف للسيارات.

طلبت مني أمي أن أرافقها، شعرت بحالة غريبة تجتاحني، للمرَّة الأولى سأشاهد مَيِّتًا حقيقيًّا، ميت بلحمه وشحمه، إنسان دون روح، بدون تنفُّس؟ إنسان ليس بنائم بل ميت! وأكثر من ذلك فهذا الميت هو أخي مهدي الذي أحبُّه كحبي لعينَيَّ، ركبنا سيارة الشرطة القضائية وأنا أتساءل: كيف يموت أخي مهدي في هذه المدينة وهو الذي من المفروض يكون بالعاصمة؟

يرافقنا في السيارة رجل تجاوز الأربعين، بلباس عسكري وكأنه الطبيب الشرعي، كان السائق يناديه بـ "دكتور"، بكلام شعبي بسيط وبيداغوجي حاول هذا الدكتور أن يهيئ أمي نفسيًّا للحظة الوقوف على المشهد المرعب، مشهد جثة ابنها المتفسخة جزئيًّا الذي يبلغ من العمر قرابة العشرين،

دون شك فالدكتور يتوقع مدى حجم الصدمة التي ستضرب أمي في عمقها وهي تقف أمام جثة ابنها لتقول للطبيب الشرعي وللحاضرين قبل أن تسقط مَغشيًّا عليها: "نعم إنه هو، إنه ابني، إنه فِلْذَة كَبِدي، نعم هو مهدي فليتا".

طوال الطريق، ما بين البيت والمستشفى الميداني، ظلت أمي صامتة، لم تردَّ على عبارات الدكتور ولم تسأله أي سؤال، لم تَكُن قلقة، بين الحين والآخر تتأمل قدميها المتسختين المدسوستين في زوج حذاء بلاستيكي مهترئ، تمسح بعض حبَّات العرق النازلة عن وجهها وعنقها بطرف حائكها الأبيض، بين الحين والآخر تلتفت جهة اليمين لتتأكد من وجودي إلى جانبها، تنظر إليَّ باستغراب كأنني لست أنا، كانت تتهرَّب من مناظر الخراب المدمر الذي لحق بالمدينة والسيارة تمرُّ بين الأنقاض والروائح الكريهة تتصاعد من كل جهة. حين وصلنا الساحة المفتوحة حيث أُقيم المستشفى المتنقل، وجدنا خلقًا كثيرًا من نساء تتباكى ورجال حيارَى وأطفال ضائعين، الجميع يسأل عن قريب أو عن ولد أو عن أب ضاع ولم يظهر له أثر منذ جمعة الزلزال، هناك خلية إعلام مجنَّدة من بعض الفتيات والفتيان لتوجيه الحشود التي تتوافد، لكن المعلومات شحيحة والفاجعة كبيرة. نزلنا من السيارة غير بعيد من الخيمة المخصصة لحفظ الجثث والتي اختير لها موقع يسمح للمَرْكبات بالحركة إليها ومنها بيُسْر، سرنا على الأقدام وبصعوبة تَمَكَّنَّا من اختراق الجموع المحتشدة والتي تهجم على كل من يلبس مِئْزرًا طبيًّا أو بِزَّة عسكرية، أو يحمل إشارة الهلال الأحمر أو الصليب الأحمر للسؤال عن شخص مفقود.

بكثير من اللباقة تمكَّن الدكتور من اختراق الجموع البشرية وهو يحاول أن يهدئ من روع النساء والفتيات اللواتي هجمن عليه، يترجَّيْنَه أن يسمح لهن بالدخول إلى خيمة الجثث علَّهن يعثرن على جثة قريب بين الموتى، انتظرنا دورنا عند باب خيمة حفظ الجثث بعض الوقت، إذ وجدنا طابورًا من قرابة عشرين شخصًا قبلنا جيء بهم لذات الغرض، كان الجميع يبكي ورجل شيخ بلحية طويلة يحاول أن يُذكِّر الناس بقدَر اللّه وبقدرته بصوتٍ عالٍ مرددًا دون توقف: "هذا أمر اللَّه ولا رادَّ لأمر اللَّه، وأن الموت حق والحساب حق، وأننا جميعًا سنموت ذات يوم، جميعًا سنلقَى وجه اللّه طالت أيامنا أو قصُرت، وعلى المؤمن الصادق أن يقبل بما كُتب له، فذلك بأمر من اللَّه"، وبين الحين والآخر يقرأ بعض آيات من الذِّكْر الحكيم، وكلما تعرَّف أحد إلى جثة الشخص الذي جاء من أجله، يتسلل الشيخ إلى داخل خيمة حفظ الجثث بعد أن تشير إليه امرأة بيدها من بعيد، يقرأ على الميت بعض آيات ويدعو له بالرحمة ويأخذ بعض القِطَع النقدية إن توافر ذلك للأهل الحيارَى.

كانت أمي صامتة كالحَجَرة، واقفة ساهمة وجهها بدون ملامح، حاملة بين يديها الدفتر العائلي، بين الحين والآخر تحركه أمام وجهها للتهوية، الحرارة ترتفع وروائح الجثث تملأ المكان، كان الطابور يزداد طولًا شيئًا فشيئًا، ومعه يزداد البكاء والنحيب، وحدها أمي لم تُسقط دمعة واحدة، بعد لحظة أقبلت نحونا ممرضة بلباس عسكري، أخذت من أمي الدفتر العائلي، ثم طلبت منَّا أن نتبعها. كانت أمي ثابتة يابسة لكن بجذور عميقة في أرض صلبة، سجلت الممرضة اسم أمي على سجِّل كبير، ثم نادت على ممرض آخر، قائلة: "أهل رقم 1089"، طلب منا الممرض أن نتقدم بين

برادات كبيرة بصناديق عليها أرقام واضحة، كان الطبيب الشرعي الذي رافقنا من البيت حتى ها هنا واقفًا عند البراد المشار إليه، سحب باب الدولاب بهدوء، كانت الجثة داخل كيس أبيض بسلسلة في الوسط من الرأس حتى القدمين، سحب الطبيب السحَّاب على الجثة فظهر وجه مشوَّه عند العينين والوجنتين، وجه بدون فم، تقدمت أمي خطوتين وتقدمت معها، ألقت بنظرة باردة كالثلج على جثة أخي مهدي، صمتت، ثم قالت للطبيب: "هو"، ولاذت بالصمت ثانية، دخلت في قوقعة من فولاذ، أما أنا فحاولت أن أفتح عينَيَّ كي أرى أخي فلم أجده هناك، لم أرَ غير الظلام، كان شيئًا آخر، جسمًا آخر، حكاية أخرى.

لم أرَ شيئًا.

قلت في نفسي: إنه شخص آخر، أخي لا يشبه هذا الشيء الذي جيء بنا من أجل التعرف إليه؟ أخي بالجامعة التي توجد في العاصمة على بُعد مائتَيْ وخمسين كيلومترًا.

استغرب الطبيب الشرعي موقف أمي وصمتها، وصلابتها أمام جثة ابنها، ومثله كان موقف عناصر السلك الطبي من حولنا، وحتى الفقيه المكلف بقراءة الفاتحة باستمرار، كان صامتًا وقد نسي قراءة فاتحة الكتاب، وكأن الذي شاهدته أمي لم يَكُن ميتًا بل كان مُندسًّا في الموت لوقت معين ثم سيُفيق بعد لحظات.

قال الطبيب الشرعي وقد تغيرت نبرات صوته لما لاحظه من موقف غريب لأمي وهي تتأمل وجه ابنها مهدي المشوه، الميت: "عليكم سيدتي نقل الجثة لدفنها هذا المساء حتى نُخلي الدولاب لغيره، هناك جثث في العراء، في الشمس".

قالت أمي: "نعم، سنقوم بذلك فورًا".

وقَّعت أمي على طرف السجل، استعادت الدفتر العائلي، وانصرفنا.

عدنا إلى البيت راجلَيْن، في الطريق تكلمت أمي، أخيرًا نطقت، أخذت تحدثني وكأنها تحدث نفسها عن أخي مهدي، كانت في حالة هذيان: "كان وجوده مُقلقًا لنا جميعًا، موته استراحة وراحة، راحة له ولنا".

قلت لها: "يا أمي، الميت هذاك هو أخي مهدي الذي عاش ملتصقًا بك، وكان يحبُّك أكثر مني ومن نوَّارة وحميدة".

لم تردَّ عليَّ، حين وصلنا إلى المنزل نظرت إلى وجهها فوجدتها قد رسمت ابتسامة عريضة على وجهها.

جريتُ نحو المرحاض وتقيَّأت.

أفرغتُ أمي في المرحاض، تخلصتُ منها.

من لحظتها كرهت أمي لاالة رحمة.

حين أخبرنا نوارة بأن الجثة هي لمهدي بدأت تمشي بعرجٍ بادٍ في قدمها، وكأنها دود المرض الغريب عاد لينهش لحم ساقها.

حُرْقة الموت تكشف كل العيوب النائمة.

نادت أمي على مصطفى أوبختي وبصوتٍ جافٍّ أخبرته بأن رجال الحماية المدنية قد عثروا على جثة مهدي تحت أنقاض مسجد جامع اليهود، وأنها ذهبت إلى المستشفى الميداني المنصوب في ساحة السوق وقد تعرَّفت رسميًّا إلى جثته، وأنهم طلبوا منها تسلُّم الجثة في مساء اليوم نفسه لدفنها إذ بدأت تتفسَّخ مع غياب شروط الحفظ المطلوب وانقطاع التيار الكهربائي عن البرَّادات، وكثرة الجثامين الموضوعة على الإسفلت في الهواء الطلق، سلَّمته ورقة الترخيص بالدفن ورقم القبر، ظل صامتًا لبرهة، ثم غادر المكان.

كان مصطفى حزينًا.

ركب دراجته الهوائية أَبُولُّو وانطلق بسرعة الصاروخ في اتجاه وسط المدينة بحثًا عن سيارة أجرةٍ خاصة لنقل الجثة إلى المقبرة، ثم توجه مباشرة إلى خيمة حفظ الجثث لتَسلُّم جثمان أخي مهدي، فتح على الجثة التي كانت ملفوفة في كفن أبيض موضوعة داخل كيس بلاستيكي أسود بسحَّاب من الرأس حتى القدمين، تأملها ثم أغلق الكيس، بمساعدة عاملين من الحماية المدينة وضعوها في سيارة شحن البضائع الصغيرة التي استأجرها، وطلب من السائق الذهاب بها مباشرة إلى مسجد الحي للصلاة عليه. وصلت الجثة وتم وضعها في المسجد انتظارًا لصلاة العصر، وصلاة الجنازة، لكن الإمام رفض أن يصلي على الجثة بعد أن أخبروه عن هُويَّة الميت، إنه مهدي فليتا

الشاب المِثْليّ، قال الإمام للجماعة: "إن هذا الشاب الملعون هو ومن مثله هم السبب فيما لحق بمدينتنا من زلزال مهول، فكلما لاطَ رجلٌ برجلٍ أو امرأةٌ بامرأةٍ إلا ويضرب زلزال مدينة معينة؛ لذا فالصلاة عليه غير جائزة".

أعاد مصطفى أوبختي جثمان مهدي إلى السيارة وسار به نحو المقبرة، كان وحيدًا إلى جانب السائق الذي هو الآخر أبدى نوعًا من التذمر والحرج، وما إن وصلت الجثة إلى باب المقبرة حتى تخلَّص منها السائق بسرعة وبعصبية، تركها عند المدخل وانصرف حتى دون أن يطلب أجرته، طلب مساعدة بعض الغرباء الذين كانوا بالمقبرة حيث عمليات الدفن متواصلة وبعدد كبير، فساعدوه على نقلها إلى جوار القبر الذي جهزته البلدية مسبقًا.

وحيدًا، واقفًا في حيرة، صلى مصطفى أوبختي عليه صلاة الجنازة وحده وهو الذي لم يُصلِّ يومًا في حياته لا صلاة الجنازة ولا صلاة العيد ولا الصلوات الخمس اليومية، حتى تجار قراءة القرآن الكريم الذين تعودوا القراءة حتى دون أن يُطلب منهم ذلك اختفوا من المشهد بإيعاز من رئيسهم الذي هو الآخَر رفض رفع الدعاء للميت، ومشى بعيدًا، بمساعدة بعض العابرين بين فوضى القبور وضعت الجثة في حفرتها، وإذ انتهوا من رد التراب عليها وصلتُ أنا المقبرة التي لم تَكُن بعيدة عن بيتنا، لقد خاتلت أمي التي طلبت مني وبإلحاح ألَّا أذهب إلى الجنازة وجئت مسرعًا، كنت أريد أن أقف على أخي قبل أن يُسوَّى عليه التراب، لكن ها هو كل شيء قد قُضي، وجدت زوج أختي جالسًا عند القبر وحيدًا وحزينًا وحائرًا.

الناس عند القبور الكثيرة حيث يُقرأ القرآن من كل الجهات وبأصوات مرتفعة وتراتيل مختلفة الإيقاعات، الحشود تتدفق باستمرار على المكان

حيث مراسيم الدفن ليلًا ونهارًا، لا تتوقف، الناس في هلع، بكاء وعويل وأدعية دينية وصلوات، للمرَّة الأولى النساء يقتحمن المقبرة وهي التي ظلت فضاءً خاصًا بالرجال ساعة الدفن. اختلط الحابل بالنابل، لا حديث إلا عن الموت والدفن والمستشفيات والبحث والضياع، عائلات تُوفِّي أفرادها بالكامل تحت أنقاض منازلهم ولم يجدوا من يتولى مراسيم الدفن والجثامين موضوعة في خيمة حفظ الجثث تنتظر.

وقفتُ أمام قبر أخي مهدي قليلًا، نظر إليَّ مصطفى أوبختي وقد اكتشف وجودي الفجائي دون كلام، ثم عانقني، أردت أن أقرأ عليه الفاتحة لكنني نسيتُها، سقطت من ذاكرتي وقد كنت أحفظها عن ظهر قلب، ولم أستطع أن أسترجع ما في ذاكرتي سوى صورة البحر على الكتاب وخوف أمي منها وحكاية خالي يونس الغريق، وأنامل جانيني غروطو وهي تمرُّ على جلد ظهري، وأنفاسها تتصاعد وحكاية صرصور والدي، في صمت مغلق وشعور بالذنب لأنني لم أتمكَّن من قراءة الفاتحة على مهدي. غادرنا المقبرة في اتجاه البيت، لم نتحدث طوال الطريق، يمشي مصطفى أوبختي أمامي وأتبعه، دفن ميت يغير من جسد الحي الدافن، لقد بدا لي ظل جسد مصطفى أوبختي طويلًا شبيهًا بظل شبح أخي الذي دفنه قبل قليل.

حين وصلت إلى البيت وجدت أمي قد مشَّطت شعرها، كانت ملامح وجهها منبسطة ومستريحة كأنها تخلَّصت من حمل ثقيل كان على كتفيها أو على ظهرها، حين نظرت إليها بدت لي مبتسمة، ابتسامة عريضة، خِفْتُ منها.

قالت لي: "إن بجسدك رائحةَ الميِّت، لقد نبَّهتك ألا تذهب إلى المقبرة".

قلت، بيني وبين نفسي: "هل طار عقلها كما طار عقل أبي؟"

كرهت أمي لالة رحمة.

مقرفصة قدام عتبة غرفتها، حافية القدمين، كانت نوَّارة منهارة، حزينة، حين رأتني حائرًا مضطربًا من تصرفات أمي أخذتني في حضنها ضمَّتني إليها وبكينا معًا.

كرهت أمي لالة رحمة.

كرهت أمي التي كانت سعيدة بهذا الموت، موت ابنها، ومن لحظتها قررت الانتقام لأخي مهدي، أحسست وكأن موته لم يَكُن كموت الآلاف الآخرين الذين قضوا تحت الأنقاض.

قررت ألَّا أكون يونس الغريق، أن أكون السبَّاح في كل المياه، مياه البحار والمحيطات والوديان والأنهار.

ابتسامة أمي وملامح وجهها المنبسطة زلزال آخر.

ابتسامة سعادة على رحيل فلذة الكبد، زلزال آخر؟ هل طار عقلي من رأسي أنا أيضًا؟ تصوَّرتُني سألحق بوالدي أجمع معه القطط وأكلمها وأموء معها ومثلها.

ظلت قسمات وجه أمي السعيدة ساعة عودتنا من المقبرة - وقد تركنا خلفنا مهدي تحت التراب - مرسومة في ذهني، تعذبني، ومن يومها بدأت أشعر بأن شخصًا آخر يشاركني جسدي، شخصًا آخر يسكنني.

خفية عن أمي كنتُ أذهب للمقابر كي أحضر الجنازات وأساعد في دفن الموتى، وكثيرًا ما طُردت لصِغَر سِنِّي ولحماسي الكبير ولسرعتي في ردم التراب على الأموات فأعود في اليوم التالي، كنت أقوم بذلك بحثًا عن مصالحة مع الموت والموتى.

كنت أريد أن أنسى وجه أمي المبتسم لخبر الموت والدفن.

وشرعت في حفظ ربع يسن من القرآن الكريم، عثرت بالصدفة على هذا الجزء من المصحف في خزانة والدي، واشتريت كتبًا عن المقابر وعن كيفية تغسيل الموتى على الطريقة الإسلامية واليهودية والمسيحية، وعن عذاب القبر وعن أصناف التعذيب في جهنَّم، وكنت سعيدًا بالشروع في قراءة كل ذلك دون خوف.

حين فتحَت المدارس أبوابها بعد الزلزال، عدتُ مع العائدين الأحياء، دخلت في عزلة ووجدتُني أقاطع ما بقي من زملائي التلاميذ، لقد مات منهم عدد كبير.

لم أعُد أتخاصم مع أطفال الجيران، تنازلت عن إمارة الغبار والعَجَاج.

أصبحت قريبًا وصديقًا للموت، ما عاد يُخيفني، تصالحت معه.

حين سألني أستاذ الرياضيات عن التخصُّص الذي سأختاره في الجامعة، قلت له بكل هدوء:

أريد أن أكون حفَّار قبور؟

نظر إليَّ باستغراب، وسكت.

وضحك التلاميذ من حولي.

هكذا تسللت يد والدي الكبيرة من قبضة يدي الصغيرة، في تلك الظهيرة، ضيعتها ومعها ضيعته وضيعتُني في هذه القيامة وهذا الخراب.

لا أزال أبحث عنها، عن دفئها الآمن.

وإذ صعق الزلزال المدينة فأرداها أنقاضًا وغبارًا ونحيبًا، طار عقل والدي من رأسه ومشى في الشوارع هائمًا، يهذي، ومن ساعتها لم يرجع إلى البيت، وقد شوهد متنقلًا بين الأنقاض يبحث عن القطط الضائعة الجائعة، يجمعها من حوله في الساحة الرئيسية، يمنح كل قط اسمًا، يطعمها ويروي عطشها، يتنقل بين بقايا الشوارعِ والأزقَّة فتتبعه قططه وهي تموء مُتمسِّحة بقدميه، يحفر في الأنقاض ويُنقِّب في حاويات المزابل فيمنحها ما قد يعثر عليه من بقايا خبز لتسد به رمق جوعها.

وحين ينزل الظلام على المدينة المظلمة الحزينة، يتمدد والدي في ساحة الحرية لينام فاتحًا عينه على سماء غبراء قاتمة، فتنام من حوله وفوقه القطط، فيشعر بالسعادة وهو يسمعها تشخر في إيقاعٍ موسيقيٍّ يمنح المدينة المفجوعة بعضًا من الهدوء والطمأنينة.

شيئا فشيئًا رُفعت الأنقاض، وبدأت الحياة تعود إلى طبيعتها دون أن تفقد الجروح آلامها، نبتت أحياء جديدة كثيرة على مساحات جُرفت على

أطراف المدينة، مُشكَّلة من بنايات جاهزة أو خيَم كبيرة رُكبت بشكلٍ مستعجل، أغلب هذه البنايات والخيم هي هدايا من دول أوروبية واليابان والصين، ومن بعض دول الخليج.

لم يعُد أبي إلى البيت، فقد اختار القطط رفيقةً لأيامه ولياليه.

مرات كان يُحزنني وضعه، ومرات كنت أغار من حريته.

اختفاء أخي مهدي خلَّف ارتباكًا في داخلي أكثر من ضياع والدي في شوارع المدينة، لم أستطع نسيانه، إنه يقيم في رأسي ويحيا في أفكاري ويُحْييها.

بعد ثلاث سنوات، وعلى خُطَى أخي مهدي الشاب الشفاف التحقت بالجامعة المركزية بالعاصمة، لم أكن ذكيًّا بقدر ذكائه، فقد نجح في امتحان البكالوريا بامتياز وكان المتفوق في قسم الرياضيات بالجامعة، الأول في دفعته دائمًا، أما أنا فقد نجحت في شهادة البكالوريا بتقدير متوسط، سجَّلت بمعهد الحقوق، لم تكُن الدراسة لتشكِّل هاجسًا لديَّ، كنت مسكونًا بأمر آخر يحفر في أعماقي، يعذبني.

شيء ما يؤرِّقني.

منذ الساعة الأولى التي دخلت فيها مدينة الجزائر العاصمة، كان ذلك في الأسبوع الأول من فصل الخريف، وهو أحبُّ الفصول إلى قلبي، حيث أشعر فيه وكأن الطبيعة برياحها وغيومها الأولى المشتتة في السماء وأمطارها المفاجئة والمحمَّلة بالغبار تعيد من جديد دورة الحياة إلى جميع الكائنات.

هل سيُعيد الخريف دورة حياتي أنا أيضًا؟

وحدي، أمشي في شوارع العاصمة التي لا أعرفها، صعودًا وهبوطًا،

على غير هدى وبدون هدف، أكتشفها بالتكرار والضياع فيها، أمشي في الصباح كما في المساء وأحس كأنني قنبلة موقوتة تمشي على قدمين، تنتظر لحظةِ انفجارها، في كل ركن أرى انفجاري جاهزًا وممكننًا، ساعتي مؤجلة لموعد قريب، كنت كمَنْ وُلد من رحم الزلزال، من نطفة الزلزال، بي من جيناته كثير.

أنا الانفجار الزلزالي القادم.

أعرف أن في هذه الإقامة الجامعية التي أقيم فيها، في واحدة من هذه الغرف المضاءة، ربما في هذه الغرفة التي أقيم بها، على هذا السرير الأصَمّ الذي أنام عليه تم اغتيال أخي مهدي من قِبل مجموعة من الطلبة المتطرفين، ثم جاءوا بجثته بالتنسيق مع مجموعة من أهالي المدينة ودفنوها تحت أنقاض الزلزال في جنبات مسجد جامع اليهود، كي يُقال قضى كما قضى الكثيرون تحت الردم.

كي يُقال: هو قضاء اللّٰه وقدَره ويصبح في اليوم التالي خبرًا في صفحات المتفرقات، إلى جانب أخبار الطلاق وحوادث الطرقات وحفلات خِتَان الأطفال الجماعية التي تقوم بها جمعيات خيرية تكسب من ذلك كثيرًا.

كلما دخلت الإقامة الجامعية أجدُني أبحث عن شخصٍ ما، أعرفه ولا أعرفه، أريد أن أنتقم، هناك وحش غريب ينمو بسرعة مدهشة في داخلي، يكبر حتى يغطي كل أفق، وكل يوم أشعر أكثر فأكثر بالسعادة لميلاد هذا الوحش البديع فيَّ، أغذيه من غضبي ومن حيرتي وأحافظ عليه كبؤبؤ العين.

أصبح الوحش الذي في داخلي صديقي.

أمشي إلى المطعم الجامعي أو أعبر هذا الرُّوَاق للوصول إلى غرفتي في الطابق الثاني أو وأنا أغادرها، أجدني أتفحَّص وجوه الطلبة المُلْتحِين، في كل مُلْتحٍ يسكن سؤال ويسكت، هكذا كنت أشعر وأنا أتحدث إلى الوحش الجميل الذي بداخلي ونحن نركب حافلة نقل الطلبة من الجامعة إلى الإقامة الجامعية أو العكس، صباحًا أو مساء، يرد الوحش بصوتٍ واضحٍ على حديثي وأسئلتي، مراتٍ أراه يهز رأسه بالموافقة ومرات بابتسامة ساخرة أو بقهقهة يرميها في وجه العالم من حولنا.

لقد انتصرت على الوحدة والعزلة، هناك شخص آخر يسكن معي جسدي، يُقاسمني رأسي ويُشاركني أفكاري ويتقاسم معي وسادة الأرق المزمن.

عليك ألَّا تنام، هذه ليست أيامًا للنوم، كان الوحش لا يتوقف عن ترديد ذلك في أذني.

منذ الليلة الأولى التي أويت فيها إلى سرير بغرفتي بالإقامة الجامعية هرب النوم عن عيني، أصبحت أعيش في أرق مزمن، لا طير نوم يحطُّ فوق جفنيَّ، أقوم في منتصف الليل أغادر السرير، أنزل من الطابق الثاني حيث توجد غرفتي بهذه العمارة التي تعود إلى العهد الكولونيالي، أنزل مرتديًا البيجاما ومرات بثيابي العادية، أتمشى لساعات ذهابًا وإيابًا في الساحة التي تُستعمل كملعب لكرة السلة وكرة اليد، أجد أخي مهدي ينتظرني عند أسفل السلَّم، حاملًا بيده كرة سلة برتقالية اللون مفرغة من الهواء، نمشي جنبًا إلى جنب وهو يلاعب الكرة بيديه، نمشي دون أن ينظر أحدنا للآخر، نتحدث معًا في كل شيء، يسألني عن أبي وعن عدد القطط التي

ترافقه ليل نهار ويضحك، وحين أجيبه: لقد أصبح أبي يعرف قططه من موائها، بل إنه أضحى يموء مثلها، تفهمه ويفهمها، يبتسم ولا يستغرب من كلامي شيئًا، يحرك رأسه ذات اليمين وذات الشمال ويبتسم مرةً أخرى، وأحدثه عن حنيني لأختي التوأم حميدة التي اختفت يوم الزلزال ولم نعثر لها على أثر حتى الآن، بمجرد أن أذكر اسم حميدة أختنا يتغير لون وجهه نحو الأزرق، أزرق مِدَاديّ قريب من الأسود الأدْكَن، يعَضُّ على كرة السلة التي في يده بأسنانه التي تبدو لي أكبر من حجمها العادي، أسنان القرش، نصمت قليلًا، نسمع صوت وقع خطواتنا فوق العشب الصناعي البلاستيكي على أرضية الساحة - الملعب -، نضحك كثيرًا ونحن نستعيد بعض مواقف حنة منصورة التي كانت تبدو سعيدة حين تجمعنا لتحدثنا عن سفرها للحج، وهي التي لم تغادر الحي يومًا، كنا نُشعرها بأننا نثق في كلامها، وكانت تواصل حديثها عن مكَّة والحجاز، وهي تدرك بأننا لا نؤمن بما ترويه، كانت سعيدة بحديثها إلى نفسها، ثم يسألني مهدي عن مصطفى أوبختي وعن دراجته الهوائية إِبُولُّو، فأقول له: لا يزال هو هو يمارس لعبته المفضلة في التمويه بأن يملأ قناني الكازوزة الشعبية بالنبيذ، كي يخفيه عن أمي التي لم تكُن ليخفَى عليها مثل هذه الأمور ولم تكُن ترغب في إزعاجه أو إفساد متعته، وكان هذا الموقف من صهرها والتسترّ عليه يثير لدى أختي نوارة كثيرًا من الريبة في طبيعة علاقة أمي بصهرها، نتحدث، مهدي وأنا حتى مطلع الفجر دون توقف، نعيد تشكيل العالم، تركيبه وفكَّه من جديد، مراتٍ يتركني أمشي فيقفز بكُرَته ويلقيها في السلَّة، ولا يخطئ هدفه أبدًا، أخي مهدي لا يخطئ المرمى، أقول له: برافو مهدي حتى دون أن ألتفت لأتحقق من أنه وضع الكرة في السلة حقًّا، يضحك،

وبمجرد أن أسأله كيف مات ومن قتله يختفي من أمامي، يترك الكرة ملقاة في الساحة ويصعد عاليًا كشعاع ضوء أو كخطف برق في السماء، وأعود أنا إلى غرفتي أنتظر لقاء اليوم الموالي، أتمدَّد قليلًا على سريري أشعر برأسي ثقيلًا، لا أكاد أغمض عيني حتى أنهض، أغسل وجهي على عَجَل، أحمل بعض كراريسي وكتبي وأركب حافلة نقل الطلبة لألتحق بأول محاضرة لأستاذ القانون الجنائي.

لم تَكُن المحاضرة تشدني كثيرًا وأنا أستمع إلى الدكتور محمود مرسي المصري، وهو يتحدث عن التحقيق الجنائي وأصناف العقوبات واختلافاتها حسب تشريعات البلدان العربية والمغاربية والإسلامية، كنت أبحث عن شيء غامض في رأسي، أمنحه شكلًا معينًا، شيء يؤرقني ويحفر في روحي بسكِّين حادَ.

أليست أمي هي مَنْ قتلت أخي؟

يومًا بعد يوم، حديثًا بعد حديث مع مهدي في لقاءاتنا الليلية المتكررة، أكان الجو ماطرًا أو باردًا أو ريحًا، أشعر وكأن قرارًا صارمًا يتشكل في رأسي، من خلاله أراني أحدد ملامح مستقبلي وأبنيه.

من قتل مهدي الولد الرائع؟ أمي أم هؤلاء الذين من حولي؟

هذا الصباح تأملت سحنتي في المرآة فوجدت شعر لحيتي المتوحش ذا اللون المائل للاصفرار الباهت المغبر قد فاض على وجهي من كل الأطراف، قلت في نفسي سأستشير أخي مهدي حين نلتقي في الساحة ليلًا في أمر ترك لحيتي تطول أم حلاقتها؟

حين رآني مهدي ودون أن أسأله، وكأنما جاء ليوصل رسالة عَجِلة، قال لي: لحيتك الطويلة هذه هي تقيَّتك لتحقيق ما تفكر فيه، ثم اختفى.

"هذا زمن اللِّحْيَة!".

لم أتمشَّ تلك الليلة في الساحة، وللمرَّة الأولى زارني النوم، فنمت.

اختفى أخي مهدي، لم يزُرني في جولاتي الليلية، عاد الأرق إلى عيني، بل زاد أكثر، حتى أصبحت كالأرنب البرِّي أنام بعض الدقائق واقفًا بعينين مفتوحتين.

ساعدتني لحيتي الطويلة غير المشذَّبة المُهملَة وكذا شخصيتي الانعزالية المهزومة، وصمتي الطويل ولغتي العربية الفُصْحَى وحفظي لربع يسن على التسلُّل السَّلِس الوثيق بين صفوف جماعة الإخوان من الطلبة، التحقتُ بحلقات الدروس والمحاضرات الليلية التي كانوا ينظمونها في قاعة الصلاة بالإقامة الجامعية، تلك القاعة التي كانت في الأصل مخصصة لتعليم الرقص فحولوها للصلاة، كنت متلهفًا على اكتشاف هذا العالَم الغريب، وكلما خطوتُ خطوةً نحو بعض أسرار عالم الجماعة فقدتُ رغبتي في متابعة دروسي الجامعية، انقطعت عن محاضرات قسم الحقوق، عرفت بأن كثيرًا من رؤوس الجماعة هم من الطلبة القدامى الذين لم يَكُن همَّهم التخرُّج والنجاح، بل على العكس من ذلك كانوا يرغبون في البقاء في الإقامة أطول مدة ممكنة، فمع مطلع كل سنة يحرصون على تغيير التخصُّص وهو ما يسمح لهم بتجديد التسجيل والحق في المحافظة على غُرَفهم في الإقامة الجامعية. كانت الجماعة سعيدة بي، وقد وجدوا في شخصي الذي يبدو مهزومًا وسلبيًّا ومنقادًا ما يرغبون فيه، ففي أقل من شهرين أصبحت

مشرفًا على قاعة الاجتماعات، أنظفها وأرتب أثاثها وأسهر على مكتبتها التي تجمع كتبًا كثيرة لسيد قطب وابن تيمية ومالك بن نبي، وكثيرًا من كتب السيرة النبوية الشريفة وأشرطة مسجلة لمحاضرات وفتاوى الدُّعَاة من الغزالي والشيخ شلتوت وغيرهم، في النهار أضع شريطًا من أشرطة الدعاة في المُسجِّلة يدور كل اليوم بصوتٍ عالٍ وهو موصول بمكبر الصوت المنصوب فوق قاعة الصلاة، والتي تُستعمل أيضًا كفضاء للاجتماعات وللمحاضرات والدروس الليلية وأيام الجمعة.

يحدث مراتٍ أن أبقى في المسجد وحيدًا، كعادتي وعند منتصف الليل، والنوم قد هرب عني أخرج إلى الساحة، الكرة لا تزال ملقاةً وسط الملعب بين السلَّتين، أمشي في الساحة وأنتظر ظهور أخي مهدي، لكنه لا يجيء، مع ذلك كنت أسمع صوته يرنُّ في أذني قائلًا: "يا بْنَ أمي سلامًا لأمي". كنت أريد أن أقول له إن أمي كانت سعيدة يوم موتك وساعة عدنا من دفن جثتك، لكني عدلت عن ذلك.

لماذا أسعد موتُ أخي أمي لالة رحمة؟

هذه الليلة، أتمشى في الساحة، لم تعُد كرة السلة البرتقالية اللون في مكانها وسط الملعب بين السلتين، اختفت، بحُرْقة أبكي وأعود إلى المسجد أقوم بتنظيفه وبترتيب المصاحف والكتب التي على الرفوف، كتب التهمتها، بعضها قرأته ثلاث مرات وعلى رأسها وأولها كتاب: معالم في الطريق لسيد قطب الذي توجد منه كثيرٌ من الطبعات، من كثرة ما سمعت قادة الطلبة يتحدثون عنه فقد قرأته أربع مرات، حتى إنني أصبحت أحفظ بعض فقراته عن ظهر قلب.

مع كل قراءة جديدة لكتاب "معالم في الطريق" كنت أشعر بأن وحشًا مخلصًا ولد بداخلي وعليَّ أن أرعاه حتى أُسعدَ أخي مهدي، فيرتاح في قبره وتحزن أمي في انتظارها مولودًا جديدًا من بطن نوارة.

وحش غريب الأطوار أنا أو هو أو نحن معًا!

يومًا بعد يوم، بدأت أشعر بسعادة كبيرة تغمرني وأن أُفقًا رحبًا ينفتح أمامي، الأفق لم يعُد سورًا يسد الابتسامة، ضياء في قلبي، ابتسامة أخي مهدي تحاصرني، انقطعت عن زيارة بيتنا الأسبوعية في الأصنام المدينة التي نسي الجميع اسمها "الأصنام" وأصبحت تُلقَّب رسميًّا بمدينة "شلف".

وحده والدي عللَّا فليتا الذي لم يتنازل عن اسمي حميميد على الرغم من أنه جلب له من المصائب وأيام الزنزانة وحكاية الصرصور، ظل يُذكِّر قططه في كل مرة بأن اسم مدينتهم هو "الأصنام"، وكان الناس يجتمعون من حوله ويطلبون منه أن ينسى اسم "الأوثان" هذا الذي جلب لهم كارثة الزلزال، يضحك أبي ثم يمشي نحو مقبرة الشهداء وتتبعه قططه في صفَّيْن طويلَيْن.

شيئًا فشيئًا أضحى الشخص الذي يسكن معي جسدي ورأسي يتجلى لي في شكل صوت هاتف، وتحول إلى صديقي الحميم الذي لا يفارق صوته أذني، أحدثه ويحدثني في وحدتي بالغرفة أو في الساحة أو في قاعة الصلاة وأنا راكعٌ أو ساجد، نتبادل الآراء نتناقش ونختلف ولا نفترق، وكلما زادت درجة تعلُّقه بي وتعلُّقي به أصبح صوته يشبه صوت أخي مهدي تمامًا بتمام.

وكلما تماهى صوته بصوت أخي كنت أقول له: لماذا كانت أمي سعيدة لموتك يا أخي مهدي، وكانت مبتسمة صافية الوجه يوم عدنا من دفنك؟ فيصمت الصوت الهاتف، ثم يختفي.

ثم أتساءل: لماذا يا تُرى لم أسأل مصطفى أوبختي عن سِرٍّ سعادة أمي لحظة وصولنا معًا من المقبرة، وقد وضعنا جثة مهدي تحتَ طُنٍّ من التراب؟

توطدت العلاقة بيني وبين رئيس الجماعة ومساعديه من الصف الأول، وهي الثقة التي جعلتهم يزودونني بمناشيرهم السياسية للاطِّلاع عليها، والتي كانت تصلهم من جهات عليا في التنظيم في الخارج، ولاحقًا كُلِّفت من قِبل الرئيس بنسخها على جهاز الرُّونْيُو وتوزيعها على مجموعة من روَّاد قاعة الصلاة في إقامتنا الجامعية وفي الإقامات الطلابية الأخرى.

كانت المناشير تدور كلها تقريبًا حول مواضيع الساعة، وفي مقدمتها وجوب محاربة الاشتراكية اليهودية والملحدة، اتخاذ الثورة الإسلامية المباركة في إيران نموذجًا للاحتذاء بها، ومقاومة الحركة من أجل الثقافة البربرية، الحركة الأمازيغية التي تنتمي إلى المزدكية، إنها حركة إباحية وهي أصل الشيوعية ونُطفة الاستعمار الفرنسي.

كنا نسهر بمسجد الحي الجامعي في نقاش وجدل حتى ساعات متأخرة من الليل، يصلي الرئيس ومساعدوه الفجر ويغادر الجميع إلى غرفهم باستثناء الضيوف الغرباء عن الحي الذين كانوا يقضون ليلتهم بالمسجد، حيث تتحول قاعة الصلاة إلى مرقد تُبسط فيه بعض مطارح الإسفنج فينام الجميع جنبًا إلى جنب، أنا الذي لا ينام له جفن أترك الجميع مُمدَّدًا على الإسفنج وأخرج إلى الساحة أبحث عن كرة السلة التي يحلو لأخي مهدي اللعب بها والعَضُّ عليها بين الحين والآخر.

كنا نلتقي كل يوم بعد صلاة المغرب، نتناقش حول أفكار المهدي المنجرة مرورًا بمالك بن نبي وصولًا إلى سيد قطب ومحمد الغزالي ويوسف القرضاوي، كان رئيس الجماعة يكرر: البلاد في منعطف خطير وعلينا ألَّا نترك الكفار يمسكون بها، هي فرصة الإسلام التاريخية.

أسمع للمرَّة الأولى عن شيخ يقود حركة إسلامية في الجزائر يستعد لفتح جبهة الجهاد في الجزائر ضد النظام الكافر، وقد شرع في عملية تخريب ممنهجة بدأت بقطع خيوط الأعمدة الكهربائية.

حين أمشي في الساحة ليلًا وأنظر إلى كرة السلَّة مرميَّة في وسط الملعب، أقول للشخص الذي ينام ويستيقظ بداخلي: أحلمُ يا صاحبي، يا أخي، يا مهدي، أن أحمِلَ بين يدَيَّ ذات يوم سلاحًا بذخيرة حية، أريد أن أقتل، أريد أن أنتقم، أريد أن أتطهر.

يبتسم مهدي في داخلي، فأستعيد على الفور وبدقة ابتسامة أمي لحظة عودتنا من المقبرة بعد دفن مهدي.

كلما حلمت بقطعة سلاح ناري حقيقي أمسكه بين يديَّ، تخيلت جثة أخي مهدي التي جيء بها من العاصمة لتُردم تحت أنقاض الزلزال المدمر الذي أصاب مدينتنا الأصنام، التي غيَّرت اسمها بأمرٍ من أصحاب المال في المشرق.

أحبُّ كلمة "الأصنام"! أحب اسم مدينتي.

كنت سعيدًا يوم استقبلنا في قاعة الصلاة بالإقامة الجامعية أحدَ الأساتذة من قسم علم النفس والتربية؛ لإلقاء درس لمجموعتنا التي كنا نطلق عليها

اسم "مجموعة مالك بن نبي"، كان الأستاذ في درسه متحمسًا ومُصرًّا على تعبئة الطلبة للدخول في معركة لإنقاذ البلاد من الشيوعيين حلفاء السوفيات والبربر، عملاء الأكاديمية البربرية الفرنسية الاستعمارية التي تسعى إلى إفشال حركة التعريب.

قال الشيخ: إن ما يُطلق عليه اسم الربيع البربري ما هو إلا مؤامرة كبرى أوروبية مسيحية وصهيونية ضد الإسلام وضد العروبة، وعلينا أن نكون يَقِظين ضد هذا التيار الأمازيغي الذي لا يختلف عن التيار الشيوعي الملحد، بل هو حليفه الشرعي.

أجلس في الخلف، أتابع الحماس المرتسم بوضوح على ملامح الحاضرين للدرس، أستمع إليه إلى المحاضر وأتلهَّف على تلك الساعة التي سأحصل فيها على قطعة سلاح ناريّ.

أسمع صوت أخي مهدي يئنُّ في رأسي.

بدأ الحديث عن أن الجهاد فرض والهجرة واجبة، وعن واجب البلاء الحسن والعظيم للعرب المجاهدين الأفغان الواقفين بالسلاح إلى جانب إخوانهم المجاهدين ضد الشيوعيِّين عملاء الروس السوفيات في كَابُل، وفي جبال تورا بورا وفي مختلف مناطق بلاد أفغانستان الإسلامية.

بلاد الجهاد والحشيش والفُسْتُق الحلبي.

هذا المساء ونحن نتابع بحماس أخبار هزائم الشيوعيين على جبهة أفغانستان، وفي غمرة هذه الأفراح بانتصار الإسلام بفضل الأفغان العرب فقد وزَّعوا علينا استمارات طُلِب منا ملؤها لمن يرغب في الهجرة للجهاد في أفغانستان.

هي فرصتي، قلت لأخي مهدي.

دون تردد، تكلم مهدي في داخلي قائلًا بصوتٍ مجلجل: املأ الاستمارة يا حميميد!

بلاد الاحتمالات المفتوحة على الجهاد والحشيش، والفستق الحلبي والصلاة والبرقع هي من ستخلصني من عقدة أخي.

في أقل من دقيقتين ملأت الاستمارة، وكأنني أبحث عن لحظة الاستفراد بقَتلَة أخي بعيدًا عن هذه البلاد وعن هذه الإقامة الجامعية كي أدفنهم تحت أنقاض جبال تورا بورا، كما دفنوا جثة مهدي تحت أنقاض مسجد جامع اليهود يوم زلزال الأصنام، موهمين الناس بأنه قضى كما قضت الآلاف تحت الردم.

انتهى أخي مهدي تحت عبارة: "وتلك إرادة اللّـه الذي لا يُردُّ قضاؤه وأمره مكتوب".

انتهى أخي مهدي تحت ابتسامة أمي بعد أن تأكَّدت من الدفن.

المرة الأخيرة التي نبكي فيها كالأطفال هي ساعة توديع الأخ الأكبر الوداع الأخير.

وبكيت، بحُرْقة.

كانت أختي الكبرى نوارة فتاة جميلة، هي نوارة فعلًا، زهرة أُقْحُوان، الأسماء التي نلبسها هي مرآتنا هي وجهنا، كل واحد منا له من اسمه نصيب، إذا ما تكلمت نوارة ينهمر صوتها الناعم الهادئ كأغنية تنزل من حنجرة ذهبية مُدَوْزَنة الأوتار، شلّال موسيقى طبيعية وباذخة، فتاة تنتعل غيمتين، قريبة من نجوم السماء دائمًا، بعيدة عن غبار الأرض وقساوتها، وهي تعبُر سِنَّ المراهقة مليئة بالحياة، أُصيبت أختي بمرض غريب ونادر في ساقها اليُسرى، بعد أسابيع قليلة تفسَّخ الجلد واللحم وامتلأ قيحًا أصفر يخرج منه دود أزرق، كانت أمي تخفي عن الجميع هذا المنظر المرعب، فتغطي الجرح المتعفِّن بقطعة من الكَتّان الأسود الخشن وتربط عليها بشاش من القطن الخفيف.

في البداية كانت مقاومة نوارة كبيرة، مكابرة وعنيدة تذهب كل صباح إلى المدرسة كما تذهب بنات الجيران وأبناؤهم، صَبُورٌ لكن ذات يوم خانها جسدها فانهارت ولم تستطع الوقوف على ساقها المنخورة، فقدت القدرة

على المشي، إذ التهم الدود الأزرق لحم ساقها ولم يبقَ منه سالمًا سوى العظم تقريبًا، وقفت أمي أمامها حائرة، تواري دمعها عنها حتى لا تزيد من هلعها ومن هزيمتها واستسلامها، وعلى الرغم من مراجعتها لمجموعة من الأطباء فإنَّ الدواء المقترح لم ينفع يومًا أمام الدود المتكاثر بقوة.

ذات يوم زارنا مولاي أعمَر الدونجورو هكذا كنا نسميه، وهو شيخ الحدَّادين في المدينة، أبًا عن جد لم يعرف مولاي أعمَر في حياته سوى النار والحديد المذاب وحوافر الخيل والبِغَال والحَمِير، كانت تربطه بوالدي علاقة صداقة وأسفار تجارة أيضًا، إذ كثيرًا ما ترافقا في أسفارهما إلى مدن بعيدة كتِلِمْسَان ووهران وفاس بحثًا عن بعض السلع المفقودة، كان أبي مأخوذًا بتجارة خيوط الجلَّابة والقهوة والفُلْفُل الأسود والتبغ البلدي والشمَّة التي كان يبيعها لتجار السوق الشعبي الأسبوعي، كان ذلك قبل أن تتنازل له البلدية عن ملكية مقهى "الاستقبال الجيد" فيتوقف نهائيًا عن هذه الأسفار التجارية، وفي المقابل كان أعمَر الحداد يجلب معه في مقتنياته حدوات الأحصنة والبغال والحمير من أنواع مختلفة، وأيضًا ألجمَة وكمية كبيرة من المسامير الخاصة بتركيب الحدوات وبعض السفافيد وألسنة حديدية مختلفة الأشكال، هي عتاده للاستعمال المهني.

كانت زيارة أعمَر الدونجورو شيخ الحدادين لنا في البيت غير مفاجئة، فقد اعتدنا على ذلك بين الحين والآخر، استقبله والدي مكسور الخاطر على غير العادة، لم يستطع إخفاء حزنه، على الفور أدرك أعمَر الحداد بأن شيئًا ما يعكر صفو حياة الأسرة التي أَلِفها سعيدة وراضية، فبادره بالسؤال عن سر هذا الانزعاج، شرح له والدي سبب حسرته وحيرته والمرتبط بصحة

نوارة التي تعاني مرضًا غريبًا وخطيرًا، شرح له كيف أن دودًا أزرق يتكاثر تحت جلد ساقها وقد أتى على اللحم الحي ولم يُبقِ منها سوى العظم، وأن البنت ما عادت تحتمل الألم ولا تكاد تتوقف عن الصراخ ليل نهار، صمت أعمَر شيخ الحدادين، فكر قليلًا ثم بادر أبي قائلًا: لنأخذها الآن إلى محل الحدادة سأداويها، نظر أبي إلى صديقه باستغراب مرددًا في داخله "كيف لحداد يشتغل في تركيب حدوات الدَّوابّ أن يداوي مرضًا خبيثًا عجز عن مداواته أطباء المدينة جميعهم!" ورحمة بابنته وتعلقًا بأية قشة أمل، طلب أبي من أمي أن تُحضر نوارة لعرضها على طبيب! من معارف شيخ الحدادين! ربما يكون الفرج على يديه، خرج والدي صحبة أمي ونوارة معيَّة أعمَر الدونجور. كان محل الحدادة في آخر المدينة في وسط حي شعبي عند المدخل الشرقي جهة باب العاصمة، باب دزاير، حين وصلوا المكان، استغربت أمي وجودهم في محلِّ الحدادة فخاطبت أبي قائلة: هذا محل حدادة وليست عيادة طبيب؟ سكت والدي، في حين أضاف شيخ الحدادين مولاي أعمَر فحمًا للموقد الذي كان لا يزال جمره تحت الرماد موقدًا، نار الحداد لا تخمد، ثم دفع في الجمر ثلاثة ألسنة حديدية وثلاثة سفافيد للتسخين، وفي دقائق قليلة احمرَّت الألسنة والسفافيد، فطلب من والديَّ أن يكشفا عن مكان التقيُّح، وحين شهد المنظر أُصيب بالرعب لكمية الدود الذي ينهش لحم الساق والبنت لا تتوقف عن النحيب كذئبة جريحة، سحبوها قريبًا من موقد النار، ووضعوا ساقها على المنصة الحديدية التي تُستعمل لتطريق الحديد، ثم طلب من والديَّ أن يربطا جسمها النحيف من الوسط بحبل إلى المنصة الرصاصية الضخمة حتى لا تتزحزح، وأن يضعا في فمها قطعة من الكَتَّان المبلل كي تَعضَّ عليها وفي ذلك ما يساعدها على تحمُّل

الألم، ألم النار، حين أصبحت جاهزة، مستسلمة لقدرها، سحب شيخ الحدادين اللسان الحديدي الأول من النار، كان جمرًا، قطعة حمراء، ثم جرف به اللحم المتعفن حتى أشرف على العظم، وأعاده إلى الجمر وعلى الفور عبقت رائحة اللحم والشحم المشوي في المكان، وسحب السُّفود الأول وعالج بعض بقايا اللحم على الأطراف، والبنت لا تتكلم وأمي تبكي وأبي في حيرة، ثم أخرج اللسان الحديدي الثاني، كان أحمرَ جمرًا مثل الأول، ومرةً أخرى جرف بعض ما بقي من لحم على العظم، ونوارة صامتة شبه مُغمى عليها، تعضُّ على قطعة الكتان المبللة وقطرات ماء تسيل على طرفَي فمها، ثم سحب سفودًا آخر ونظف الأطراف جيجا من بعض نُتَف لحم متقيح، رَشَّ حفنة رماد بارد مغربل على الموضع الذي جرف منه اللحم المقيَّح، وربط الساق بمنديل وشاش حرير كان على رأسه، ورجع والداي إلى البيت، كانت نوارة مستسلمة لقَدَرها في حالة شبه غيبوبة.

لم تمضِ ألَّا أيام قليلة حتى بدأ الجرح يلتئم، وشيئًا فشيئًا تيبَّس الجلد وجفَّ القيح وتوقف تكاثر الدود الأزرق وكاد يختفي، كانت أمي حريصة على تغيير خرَق شاش الجرح مرة كل ثلاثة أيام، وتصرُّ في كل مرة على دهن الجرح بزيت الزيتون الأصلي والعسل البرِّي، هي عادة أمي كلما اشتكى أحد منا من ألم في رأسه أو في بطنه أو في عينيه أو في ضرسه أو في أذنيه، تلجأ مباشرة إلى زيت الزيتون، تسخنه قليلًا على نار شمعة وتدهن المكان المصاب أو تصبُّ قطرات في الأذن أو العين أو الأنف، فزيت الزيتون بالنسبة إلى أمي هو دواء لكل علة عضوية أو نفسية، ويومًا بعد آخر عاد التفاؤل إلى أسرتنا، وأخذت أختي تتعافى وبدأت تحرك ساقها شيئًا فشيئًا، لقد عادت الحياة من جديد إلى الساق، وذات صباح قامت نوارة من فراشها وخطت

بعض خطوات حتى باب الغرفة، فكانت فرحة أمي لا توصف، كانت نوارة مثل الطفلة التي تتعلم خطوات المشي الأولى، لقد بدأت تتعافى وبمرور الأيام جف الجرح نهائيًّا واختفى أثر الدود وأثر القيح، ولكن الساق ظلت مُشوَّهة، حيث العظم بدون لحم، وهو ما جعل أختي تخجل من الكشف عن ساقها المشوهة أمام الناس، ودخلت في حالة معاناة نفسية مما اضطرها إلى ارتداء سراويل أخي مهدي، ثم اشترى لها والدي سراويل نسائية عصرية فكانت أول فتاة في الحي تلبس سراويل ضيقة على ساقها التي تلفُّ عظمها بقطعة كتان كي تأخذ شكلًا شبه طبيعي. بعد غياب ثلاثة أشهر أو أكثر عادت أختي إلى المدرسة لمتابعة تعليمها، وحين دخلت القسم لاحظت بأن جميع البنات يهربن منها، يتحاشينها، خوفًا من أن تعديهن بوباء الدود الأزرق، قاطعها الجميع ورفضن مشاركتها الجلوس إلى الطاولة نفسها، حين رجعت إلى المنزل حيث قضت أول يوم في المدرسة بعد غياب طويل انهارت بكاءً أمام أمي وهي تصرخ: لقد أصبحت وحشًا، جميع صديقاتي في المدرسة يخفْنَ مني، الجميع ينظر إلى ساقي، بل إن بعضهن صرحن بأنهن شاهدن الدود يخرج من تحت سروالي ويمشي على أرضية القسم.

وبعد نفاد صبرها قررت نوارة ألَّا تعود إلى المدرسة، فقاطعتها وبدأت التعليم بالمراسلة.

حين كبرت أختي وأصبحت في سن الزواج، أي في العشرين تقريبًا، لم يتقدم لخطوبتها أي أحد من الشباب، وهو ما أقلق أمي كثيرًا وجعلها لا تنام، فالعنوسة مأساة لا تشبهها أي مأساة في هذا الحيِّ الشعبي، تعاني منها الأسرة والفتاة المعنية، فالزواج في مجتمعنا قدَر لا مفرَّ منه مهما كانت طبيعته وآثاره.

وحين ضرب الزلزال المدينة قال الناس متذكِّرين مرض الخنزير الذي أصاب ساق أختي: إن هذا المرض لعنة إلهية لا تلحق إلا بأبناء وبنات الأُسَر التي بها ولد مثلي أو مُخَنَّث، وأسرة عبد اللَّه فليتا من هذا القَبيل.

حين عاد من تونس، كان مصطفى أوبختي لا ينزل من فوق ظهر دراجته الهوائية أبّولّو، وأبّولّو كما شرح لنا مصطفى هي المركبة الفضائية الأمريكية التي أوصلت الإنسان إلى القمر، وأبّولّو مصطفى أوصلته إلى نوارة، نوارة قمر أيضًا، في خدمة الجميع دائمًا، لا ينتهي من مهمة يقوم بها لصالح هذا الجار إلا لينطلق في خدمة آخر يطلبه في الجهة الأخرى، يحضر الخبز من الفران لهذه السيدة ويشتري الدواء للأخرى، ويوصل مائدة أو كرسيًّا من بيت جارة إلى بيت أخرى، لا يتوقف أبدًا، كان سعيدًا بخدمة أبناء الحي.

مصطفى طفل الجميع.

يتذكَّر أبي جيدًا عائلة مصطفى أوبختي ذات الأصول الريفية المغربية والتي يعود نسبُها إلى إحدى أسر دشرة من المداشر القريبة من مدينة الحسيمة، هاجرت هذه العائلة مطلع القرن العشرين إلى قرية تُسمى حاسي الغلة، الكائنة على أطراف مدينة عين تموشنت وعلى بُعد 60 كيلومترًا من وهران، كان ذلك قبل الحرب العالمية الثانية بسنوات قليلة، شأنها شأن كثير من العائلات المغربية التي كانت تجيء إلى المنطقة في حملة "التشريق" وهي هجرة موسمية لليد العاملة الفلاحية من المغرب إلى الجزائر المستعمرة للعمل في قطف عنب حقول الكَرْم الواسعة، التي كان يملكها بعض المستعمرين الفرنسيين والموجهة لصناعة أجود الأنبذة التي تُصدَّر إلى أوروبا وأمريكا

وروسيا، إلا أن أسرة والد مصطفى أوبختي بدل أن تعود إلى دشرتها الأصلية بعد نهاية موسم جني العنب فضَّلت الاستقرار بالقرية، اشتغل الأب منصور أوبختي عاملًا يدويًّا وراعي أغنام المُعمِّرين ومساعدًا في البناء، ومُياوِمًا في فرز ودرْس العنب في مَعاصِر الخمور الشهيرة بالمنطقة، قضى حياته بين هذه الحرَف يأكل منها خبزه حتى دقت ساعة ثورة التحرير الجزائرية، فلم يتأخر السي منصور الريفي عن الالتحاق بصفوف الثوار المجاهدين في الجبال.

لم يَكُن المستعمِر يفرق بين العباد مهما اختلفت جنسياتهم، الاضطهاد يطحن الجميع مهما كانت عقيدته أو جغرافيته أو مدينته أو قوميته، في الجبال، أيام الثورة لم يَكُن أحد يفرق بين منصور الريفي وبين إخوته الثوار الجزائريين، المحنة واحدة والعزيمة واحدة والهدف واحد.

بعد استقلال الجزائر كان نصيب الذين معًا صنعوا الفرحة الكبرى، فرحة الحرية، متفاوتًا بين الجزائريين والمراكشيين والتونسيين والليبيين والأوروبيين، متفاوتًا ما بين المسلمين والمسيحيين واليهود والشيوعيين والعلمانيين وغيرهم من الذين ضحوا من أجل تحرر الجزائر.

بمجرد أن اندلعت حرب الرمال الأولى، بصمتٍ وسِرِّية غادرت عائلة السي منصور الريفي قرية حاسي الغلة للإقامة بقرية على الحدود مع تونس، بعد أن شعرت بأنها المقصودة من بعض الغمز واللمز الذي بدا من بعض أبناء الحي الذي كانت تقيم فيه.

البروباغاندا تقتل التاريخ.

الأيديولوجيا تغتال المحبَّة والحب.

في حيِّنا، كما في بيتنا، أصبح مصطفى أوبختي واحدًا من أفراد الأسرة، بدأ حياة جديدة إذ أصبح الذراع اليُمنى لوالدي في تسيير المقهى التي تنازلت له عنها البلدية: بار الاستقبال الجيد أو مقهى الاستقلال كما سماها والدي، بات مصطفى هو مَن يتولى مهمة المشتريات ويعمل على إدارة الفضاء والإشراف على جميع متطلبات الزبائن.

لسان الفتى نصفه، وكان لمصطفى لسان من عسل.

كان مصطفى ينادي أمي رحمة كما أناديها أنا: "أمي"، وكانت هي الأخرى ترى فيه أخًا ثالثًا لنا أنا ومهدي.

ارتبط مصطفى أوبختي بأختي نوارة بعلاقة أُخوَّة متينة، كانت الأكثر قربًا منه، بكى بحرقة كما يبكي الأطفال يوم تم تجريف ساقها بلسان الحداد المُحمرّ، كان لا يتأخر في مساعدة أمي على تغيير ضمادات الجرح المتفسخ دون أي تعفُّف أو انزعاج لمنظر القيح والدم والعظم الذي تشوَّه وأضحى لونه ما بين الأسود الفاحم والأزرق الأدْكَن.

حين تنهار أمي أمام المنظر الفظيع لساق ابنتها نوارة، قائلة: "مات الساق يا بْنِي يا مصطفى"، كان يرد عليها: "لا تقلقي، سيعود للحياة وستقوم نوارة كما تقوم الزهرة في فصل الربيع بعد يباس الخريف وبرد الشتاء".

لسان الفتى عسل.

كان في الاستماع دائمًا لرغبات نوارة والحرص على تلبيتها، في الواقع لم تكُن رغباتها كثيرة ولا كبيرة، كانت فتاةً قَنُوعًا، صَبُورًا وخَجُولًا، وكثيرًا

ما كان يتولى مصطفى تغيير الضمادة لوحده، في مثل تلك اللحظات كانت تمسك بقوة على ذراعه لمقاومة موجات الألم وهي تنظر إليه نظرة المستسلمة لأمر اللّه وقدَره.

من الألم ينبت الحب الصادق وهو ما كان يسري بين روحيهما، حب كان يكبر شيئًا فشيئًا وسط حريق الآلام ورماد الأحلام.

قد تنبت الزهرة بين مفاصل صخرة شققها الزمن.

قد يتحول التعاطف إلى عشق جارف وهو ما حصل بينهما، كان مصطفى وبمجرد العودة إلى البيت مساء يسرع لسؤال أمي عن حال ساق نوارة، قبل أن يدخل عليها وهي ممدَّدة على سرير صنعه لها بنفسه من خشب صناديق الشحن الكبيرة التي جلبها من سوق الخضر بالجملة، كانت أختي سعيدة إذ وجدت لديه كل هذا الاهتمام والعناية، لم يتأفف يومًا من رؤية منظر تفسُّخ جلد ساقها، ولم ينفر مرةً واحدةً من تنظيف القيح بالكحول والمطهر الميركوروكروم، كان يقوم بذلك بكثير من الهدوء والحب والإصرار الكبير من أجل الانتصار على المرض.

في البداية، كان يتصرف معها كأخت، وهو الأخ الثالث الذي لم تلده لها أُمُّها لالة رحمة، مع مرور الأيام بدأ يشعر وكأن نظرات نوارة إليه قد تغيرت، كانت تريده أن يكون مختلفًا عن مهدي أو حميد، تبحث عن إسقاط صورة الأخ ورفع صورة أخرى.

صورة أخرى!

لكل طريق بداية، ولكل مرحلة نهاية.

ذات مساء وكعادته وهو يغيِّر لها الضمادة ويُعقِّم الجرح بعناية ويتفقَّد درجة التحسن الحاصلة، نظرت إليه نظرة طفلة مستسلمة لقدرها، نظر إليها فشعر بإحساس غريب مُدوِّخ فقبَّلها قبلة خاطفة على عنقها، نزلت عليها كحبَّات مطر فوق أرض بور يابسة فأحيتها، ارتجف جسدها كله ومثلها زلزل جسده.

ارتفعت صورة وسقطت صورة!

بعد هذه القبلة خرج مصطفى من المنزل مسرعًا لا يعرف أين تحمله قدماه، هامَ حتى آخر الزنقة، ثم تذكَّر بأنه نسي وللمرَّة الأولى دراجته الهوائية أبُولُو عند عتبة الدار، عاد فركبها وانطلق في اتجاه البحر.

بإحساس خائن الأمانة، مدفوعًا بعاصفة الندم ودون إخبار أي أحد من أبناء الحي سافر مصطفى أوبختي إلى تونس، كان يريد أن يختفي من المدينة ومن الحي ومن البيت، من نظرات أبي وأمي، أن يمحو هذه الخيانة العظمى التي ارتكبها بالابتعاد قدر الإمكان، بالاختفاء، كان يسمع في رأسه صوتًا يقول له مؤنبًا: "ما كان عليك أن تُقبِّل فتاة على عنقها وقد استقبلتك أسرتها واعتبرتك واحدًا من أبنائها".

ظل الشعور بالندم يلاحقه دون أن تختفي مشاعر حبه لنوارة.

أقام مصطفى بمدينة تونس واشتغل حلَّاقًا وهو الذي منذ الصِّغَر لم يتعود سوى على مداعبة مقص كبير، المقص الخاص بقص عناقيد العنب وتقليم فروع الدالية، وعلى الرغم من أنه لم يتعلم يومًا ما مهنة الحلاقة فإنه أبدع فيها بشكل مدهش وفجائي، وفي ظرف سنة أصبح مشهورًا

في مدينة تونس كلها، خاصةً بين الشباب وفي الأحياء الراقية وقد أبدع قَصَّةَ شعر خاصة به، من توقيعه، أطلق عليها اسم قَصَّة موس، La coupe Mus، وكلمة موس هي تصغير لاسم مصطفى، ذاع صيت القَصَّة في كامل التراب التونسي.

على الرغم من الحياة المستقرة والمريحة التي عاشها مصطفى أوبختي في مدينة تونس فإن قلبه ظلَّ يخفق لمدينة الأصنام ولنوارة، ولزنقتَيْ سليمان الطراح ورابح الحرايري، كان كلما تمدَّد على سريره يستعيد إيقاع صوت أنينها وهو يغيِّر لها الضمادة، لا يزال يشعر بقبضتها على ذراعه وهي تتألم، كأنها لا تزال تقبض عليه حتى الآن، لم يستطع التحرر من نوارة ولم يَكُن يرغب في ذلك يومًا، ظلت ملامح وجهها المتعبة تلاحقه أينما حل بتونس، كلما فكر في العودة إلى مدينة الأصنام تذكر القُبلة وخشي أن تتكرر فتحدث فضيحة في الأسرة وبين أبناء الجيران، فيرجئ التفكير في العودة إلى يوم آخر.

كلما طال الغياب، عظمت الغواية، وعلت ألسنة لهيب العشق وارتفعت أكثر فأكثر.

ذات حُلْم ليلة صيف، رأى مصطفى أوبختي نفسه في الحلم وقد أُصيب بفقدان الذاكرة، وإذا هو لا يتذكَّر أي شيء من ماضيه ولا عنه، نسي المدينة التي هجرها جرَّاء قبلة على عنق فتاة تتألم، طريحة الفراش، قبلة ليست بريئة، نسي حتى سبب هجرته، وسقطت الوجوه والأسماء والطرقات والمَحَالّ جميعها من ذاكرته، وأصبح كل شيء عند نقطة الصفر، دخل في نفق طويل مظلم، أصبح رأسه عبارة عن فقاعة ضوء سوداء، استفاق في صباح اليوم التالي وقرر العودة إلى مدينة الأصنام، ركب دراجته الهوائية أبُولّو التي

لا تفارقه أبدًا وانطلق في اتجاه الغرب، كان الفصل صيفًا، والأيام حارة، والطريق مليء بالسياح الأجانب، الوقت ليلًا ومصطفى يسابق الريح في عمق الظلام فجأة جعجعت فرامل سيارة الشحن الكبيرة الفارغة وقد كادت أن تسحقه من الخلف، مذعورًا، اقترح سائق الشاحنة على مصطفى وضع الدراجة في الخلف والركوب معه ليوصله إلى الجزائر العاصمة حيث سيشحن بضائع من مينائها، وكلما اقترب من الحدود تسرب قليل من النور ليضيء الظلمة الدَّكْناء في رأسه، انتصبت صورة نوارة في أفكاره واستقرت بين عينيه.

على مدخل العاصمة قريبًا من المطار تركه سائق الشاحنة ودراجته، ركب مصطفى أبولُّو وانطلق يقرض ما بقي من المسافة بلهفةٍ دون الشعور بأي تعب، وكأنما قوة خارقة تدفع به دفعًا والدراجة أبولُّو تبلع الكيلومترات إثر الكيلومترات.

الحب قوة نووية ثانية.

وإذ بلغ مدينة الأصنام، دخلها بشعور غريب كمَن يعود ليعتذر عن ذنبٍ ارتكبه وهو لا يتوقع طبيعة رد فعل الشخص الذي سيعتذر له، هل سيقبل اعتذاره أم سيذمُّه ويرفضه، بكثيرٍ من التردد سار إلى ساحتها الرئيسية، وقف ونظر إلى مقهى الاستقلال ثم إلى مسجد جامع اليهود، وشيئًا فشيئًا التف من حوله بعض أبناء الحي الذين تعرفوا إليه، استقبلوه بحرارة، مُعبِّرين له عن فرحتهم بعودته وأن غيابه ترك فراغًا كبيرًا في المقهى حتى ما عاد الشباب يجيئونها كما في السابق، مع ذلك لا أحد سأله: لماذا ترك المدينة بدون سابق إنذار؟

حين دخل مصطفى أوبختي إلى المقهى وقابل أبي عللًا فليتا معتقدًا بأن هذا الأخير على علم بالسبب الذي دفع به إلى مغادرة المدينة والبيت، وأنه سيعاتبه وسيحاسبه على ما بدر منه من سلوك غير مناسب تجاه ابنته نوارة، والواقع ألّا أحد كان يعرف السبب الذي يقف وراء هجرته، باستثناء نوارة، ربما، نظر إليه أبي نظرة مُتفحِّصة وكأنما ليتفقَّد صحته وهيئته وابتسم له ثم احتضنه بقوة قائلًا: "الحمد للَّـه على العودة بسلام، كنت على يقين بأنك ستعود يومًا، طال الزمن أم قصر".

ومن لحظتها أخذ مصطفى مكانه خلف الكونتوار، يشاكس الزبائن وكأنه لم يغادر المقهى ولو ليوم واحد، يحكي لهم بعض نوادره في تونس، وكيف أنه أصبح بين عشيَّةٍ وضُحاها أشهر حلاق في المدينة، تونس عاصمة تونس، وقد حصل على أهم وأكبر جائزة في الحلاقة الرجالية نظمتها نقابة الفنادق فئة خمس نجوم، وأخرج لهم الكأس ووضعها فوق الرَّفِّ الزجاجي من خلفه: "كأس قَصَّة موس La coupe Mus".

مع نهاية ساعة العمل وحلول موعد غلق المقهى، طلب مصطفى أوبختي من والدي أن يسمح له بالمبيت في غرفة الحراسة التي تُستعمل لتخزين صناديق المشروبات الغازية وأكياس القهوة وعلب حليب الغبرة.

في هذه الغرفة نام لسنوات جدي بوطالب الكيَّاس!

بمثل هذا الطلب كان مصطفى يريد أن ينأى بنفسه عن كل ما قد يجعله على اتصال مباشر بنوارة، وهو ما يُجنِّبه ارتكاب أي تصرف غير محمود في الأسرة قد يدفعه للَّـهجرة ثانيةً وبدون رجعة.

وافق أبي على طلب مصطفى أوبختي بعد أن أخفق في إقناعه بفكرة العودة للعيش في البيت وبين أفراد الأسرة، وأن غرفته لا تزال تنتظره إن رغب في ذلك، إلا أن مصطفى كان مُصرًّا على اتخاذ المقهى سكنًا له، وهو ما كان له.

هكذا أصبح مصطفى أوبختي يقيم في الغرفة الصغيرة بالمقهى، وقد وجد راحته واستقلاليته، ولكن شبح نوارة ظلَّ يؤرِّقه ويلاحقه في يقظته وفي أحلامه.

كلما دخل منزلنا بدعوة من أبي لتناول العشاء مع أفراد الأسرة أو لقضاء أمر ما، يحدث هذا بين الحين والآخر، خفيةً كان يرسل نظراتٍ حارقةً في اتجاه نوارة التي استعادت صحتها بالكامل، وقامت على قدميها تمشي مشية الغزالة مع أن ساقها ظلت تحمل تشوُّها من شدة الحرق وتجريف اللحم المُقيَّح.

كانت شعلتها تكبر في قلبه، يومًا بعد يوم، في المقابل كانت صورة سارة شوراكي تختفي خلف غيمة من زمن مضى ولن يعود.

الاستقلال هو أن نعيش لوحدنا!

أمر واقع واستقلال بالمفرد.

كان مصطفى متربعًا على قلب نوارة.

قطار يخفي قطارًا آخر، لكن امرأةً لا تخفي أخرى، مع ذلك تمكَّنت نوارة من حجب صورة سارة شوراكي.

أنا حميد طالب السنة الأولى حقوق.

بعد ساعاتٍ قليلةٍ من ملء استمارة الهجرة للجهاد في أفغانستان، وأنا أنزل قبل الفجر بقليل إلى الساحة كي أحدث أخي مهدي وأزفّ إليه الخبر السعيد بأنني سأسافر عن قريب حتى كَابُل، رفقة الوحش الذي فيَّ لأنتقم له هناك من الذين قتلوه هنا، حاصَر رجال الأمن الحي الجامعي، جرجروني من الساحة مباشرة إلى سيارتهم الكبيرة المموَّهة حتى قبل أن أحدث أخي وقبل أن أشاهد كرة السلة ملقاة في الساحة كما تركها ذاك المساء، وكسروا باب قاعة المُصلَّى وساقوا من كان بها من الغرباء وسحبوا الآخرين من أسِرَّتهم بثياب نومهم.

"لست أدري من وشى بنا"، قالها الرئيس ونحن لا نزال في سيارة الأمن في اتجاه المخفَر، تمتمها بصوتٍ خافتٍ وكأنها يكلم نفسه ثم أردف: "بيننا عميل، جُرْذ، هو من وَشَى بنا، سيدفع الثمن".

ونظر الجميع تجاهي، نظرت أنا بين قدمَيَّ هروبًا من نظراتهم القاتلة.

لكن صوت أخي مهدي طمأنني: "الأمر عادي جدًّا يا حميد".

قادونا إلى المخفَر بثُكْنَة موجودة في غابة بحي ابن عكنون وسط العاصمة، استجوبونا واحدًا واحدًا ثم جماعة، وسُحبت منا جوازات سفرنا، دام الحجز

علينا ثمانيَ وأربعين ساعة، ثم فجأةً أُخلي سبيلنا جميعًا بعد أن وصلتهم أخبار تقول بأن الطلاب الإسلاميين يُحضِّرون لمظاهرة عارمة في شوارع العاصمة للمطالبة بإطلاق سراحنا، فحُريَّة السفر والتنقُّل يضمنها القانون والدستور والقرآن ولا حَجْر على المسلم الذي يرغب في مساعدة أخيه المسلم أينما كان.

أعادوا لنا جوازاتنا، وكأن رئيس المخفر كان يريد التخلص منا، أو هكذا بدا لي، حين سلمني جواز سفري قرأت في عينيه العبارة التالية: "لتذهبوا إلى الجحيم، هجرتُكم راحة للبلاد".

بعد أيام قليلة وصلتنا بطاقات السفر بحجز مؤكَّد على متن الخطوط السورية حتى دمشق، ركبنا الطائرة من مطار هوَّاري بومدين قبل منتصف الليل بقليل، كانت الإجراءات عادية جدًّا، عوملنا كجميع المسافرين الذين يذهبون إلى هذا البلد لأجل التجارة، أغلبية الركاب من الشباب ومعظمهم من الفتيات، يسافرون لجلب السلع النادرة أو المفقودة في السوق الجزائرية، وصلنا مطار دمشق الدولي فجرَ اليوم التالي، كل شيء كان جاهزًا عند الاستقبال، غادرنا المطار في أقل من عشرين دقيقة تحت حماية رجل أمن بلِحْيَة خفيفة وبطن مندلق أمامه وكَمْشَة مفاتيح معلقة في حزامه، كلما خطا خطوة أحدثت رنينًا، وجدنا حافلة نقل صغيرة في انتظارنا في الساحة المقابلة للباب الرئيسي للمطار.

أنزلونا بفندق بسيط جدًّا غير بعيد من مسجد السيدة زينب بضواحي دمشق اسمه فندق قرطاجنة، قضينا أسبوعًا كاملًا في غُرَفنا، من الغرفة للمطعم ومن المطعم للغرفة، حتى صلاة الجمعة مُنع علينا أداؤها في المسجد القريب من الفندق.

لم يَزُرْ نا خلال مدة الإقامة هذه أحد، حتى اعتقدنا بأننا ضعنا، وأن مَنْ تولى التنسيق في نقلنا قد نسينا أو تنازل عنا أو غيَّر رأيه، أو إن هناك فخًّا وقعنا فيه، وبدأنا التفكير في كيفية مواصلة السفر لوحدنا وعلى حسابنا، ولم يفكر أحد منا في العودة إلى الجزائر.

قال لي أخي مهدي وكان صوته واثقًا وقويًّا: لا تقلق، ستصل إلى بورا بوا.

شعرت بالسعادة.

هذا الصباح، صباح يوم سبت حار جدًّا، يرنُّ الهاتف الداخلي في غرفة الشيخ سليم العنابي المسئول عن الوفد والذي اخترناه متحدثًا باسم المجموعة ولسان حالها في كل الرحلة، طلب منه أحد عملة الفندق في قسم الاستقبال النزول إلى البهو؛ فهناك شخص مستعجل يرغب في مقابلته والحديث إليه، قبل أن ينزل وتحسُّبًا لأي شيء اتصل بنا وأعلمنا بخبر قدوم شخص يرغب في مقابلته، جلسا معًا في ركنٍ قَصيٍّ ببهو الفندق لبعض دقائق، بعيدًا عن الأنظار، بعده صعد سليم العنابي السلالم بسرعة ليخبرنا بأن أمرًا وصل من "الفوق" يطلب منا تجهيز أمتعتنا، فالسفر سيكون بين الحين والآخر، لم يخبره الرسول باليوم المحدد ولا بالوقت، ولكنه ألحَّ عليه بأن نكون على استعداد للانطلاق في أي لحظة تصل فيها الحافلة.

وأنا أجمع أغراضي القليلة في حقيبتي الجلدية المهترئة، نظرتُ إلى المرآة فوجدتُني أشبه أخي مهدي تمامًا، وكأنني توأمه، وإذا بالصوت الهاتف الذي بداخلي يصرخ عاليًا يحرضني على الذهاب أبعد للانتقام له.

"ستكون لك قطعة سلاح ناري ورصاص حَيّ يا بْنَ أُمِّي".

حين لفظ الصوت في رأسي عبارة "يا بْنَ أُمِّي"، على الفور هجمت عليَّ صورة أمي وهي سعيدة لخبر موت ابنها مهدي ومبتسمة المُحيًّا لحظة عودتنا أنا ومصطفى أوبختي من مراسم الدفن، الذي تم دون إقامة صلاة الجنازة!

كل شيء أصبح جاهزًا، تجمَّع أفراد المجموعة في بهو الفندق، وبعد لحظات وإذا بمجموعة من الأمن السوري بالزِّيِّ المدنيّ تحاصر المكان، تغلق جميع الأبواب، يقتحم بعض عناصرها المسلحين البناية، يقودوننا إلى باص عسكري دون أغراضنا التي ظلت بالبهو، نُقلنا إلى ثكنة غير بعيدة عن مكان فندق قرطاجنة، رموا بنا كالقطيع في قبوٍ وسخٍ رطبٍ دون ماء ولا أكل، صباح اليوم التالي جاء أحد العسكريين كلمنا بلهجة جزائرية مكسورة وأمرنا بالصعود إلى الساحة في نظام، وقفنا تحت شمس من رصاص لمدة ساعتين أو أكثر، من بعيد ومن ظِلِّ خيمةٍ خاطبنا أحد الضباط قائلًا: "هذه بلاد بنظامها وسُلْطتها وأمنها وليست مجرى هواء ولا مجرى الصرف الصحي"، ثم انسحب تحت حراسة مشددة، جاء عسكري آخر، قادنا إلى القبو ثانية ورمى لنا بكيسين كبيرين من الخبز اليابس ووضع دلوَ ماءٍ فاترٍ عند المدخل.

كان الخبز لذيذًا والماء عذبًا!

كلما فكرت في التراجع أو داهمني إحساس بالندم على ما أنا مُقدِم عليه في هذه المغامرة يصرخ في داخلي صوت أخي مهدي قائلًا: "وَاصِل، أريدك أن تُخرجني من تحت الأنقاض، أنا لم أَمُت، أنا لا زلت حَيًّا".

وأستعيد صورة أمي، سعيدة بموته وبدفنه دون جنازة.

تشتد عزيمتي أكثر فأجدُني مُصرًّا أن أظل هنا وأن أواصل الطريق حتى أصل إلى أفغانستان، واللحاق بالمجموعة الأولى من أفغان الجزائر التي تناهى إلى سمعي من قِبل بعض أفراد مجموعتنا أنها وصلت كَابُل قبل ثلاثة أشهر، وأنها أنهت مرحلة التدريبات الأوَّلية بالذخيرة الحية وقد رَخَّص لها المجاهدون والأمريكان بالدخول إلى عِدَاد المجموعات العملياتية، حسب ما فهمته من رئيس بعثتنا ومن أحاديثه المليئة بالألغاز أن رئيس المجموعة الأولى يُسمى الشيخ سليمان الأعور الجزائري الأفغاني، ويبدو أنه هو من كان وراء تخطيط وتنفيد عملية اغتيال أخي مهدي فليتا وكمال أمزال.

في القبو، لم أشعر لا بالجوع ولا بالعطش ولا بالاختناق جرَّاء الحرارة العالية وعدم وجود نافذة في القبو، كُلُّ ما كنت أترقبه وأستعجله هي ساعة الإفراج عنَّا والسماح لنا بمواصلة الطريق إلى كَابُل، التي كنت أتصورها مكانًا يشبه الجنة التي طُرد منها آدم وحواء.

لم يَطُلْ حجز مجموعتنا أكثر من يوم آخر، وإذا الحافلة نفسها والسائق ذاته ذاك الذي نقلنا من المطار إلى فندق قرطاجنة ومن الفندق إلى هذه الثكنة، وجدناه في انتظارنا بابتسامة عريضة على مُحيَّاه، وبكمشة المفاتيح المعلقة على خصره، استقبلنا مبتهجًا قائلًا: "أهلًا بمجاهدي ثورة الجزائر العظيمة، ثورة بن بلة وجميلة بوحيرد، أنا اسمي أبو بسام، أُحيِّيكم تحية الجهاد والأُخوَّة"، كان بشوشًا وكأن لم يتم حجزنا، كانت أغراضنا التي تركناها ببهو الفندق قد تم جلبها ووُضعت في صندوق الحافلة.

قال أبو بسام: "أغراضكم كلها في الحافلة، فلا تقلقوا، أنتم بين أيدٍ آمنة يا أبناء الثورة العظيمة، ثورة جميلة بوحيرد وبن بلة وآيت أحمد".

الوقت قبل الفجر بقليل، سار بنا السائق في اتجاه المطار، في الطريق وزَّع علينا مساعده سندويتشات فلافل وعلب عصير بارد، بصوتٍ عالٍ بدأ السائق أبو بسام في سرد قصة عمه الذي هو الآخر يُسمى أبو بسام، والذي سافر إلى الجزائر ضمن البعثة التربوية السورية الأولى في أول دخول مدرسي بعد الاستقلال والتي كانت مُكوَّنة من مجموعة من أساتذة التعليم الثانوي، عُيِّن عمه أبو بسام بمنطقة القبائل في مدينة ميشلي أستاذًا لِلُّغة العربيَّة، وكان المواطنون في هذه القرى الجبلية التي تغمرها الثلوج طوال الشتاء يعاملونه بلطف واحترام، ويغدقون عليه صحون الكسكسي والخبز التقليدي وأنواع الحلويات المحلية وزيت الزيتون المعصور يدويًّا، لكنهم وفي الوقت نفسه لم يكونوا متحمسين لدروسه في اللغة العربية ويفضلون عليها لغتهم الأمازيغية التي حاول النظام اغتيالها من خلال حركة التعريب، وأثناء إقامته لمدة أربع سنوات تمكَّن أبو بسام من تعلُّم الأمازيغية ولا يزال يتحدث بها حتى الآن، انفجر أبو بسام ضحكًا وهو يعلق على تجربة عمِّه في الجزائر وبالأساس في بلاد القبائل: ذهب أبو بسام ليعلم الجزائريين العربية فعاد إلى سوريا يتحدث الفرنسية والأمازيغية.

ضحكت من قلبي لقصة الأستاذ أبو بسام.

هذا الإحساس بنشوة السفر الذي يغمرني مبعثُه مرافقة أخي مهدي لي، حيث يسكن في ذاكرتي وفي قلبي وفي عقلي أيضًا، فكلما اقتربنا من أفغانستان حيث سبقتنا المجموعة الأولى من الأفغان الجزائريين وعلى رأسها الشيخ سليمان الأعور الأفغاني، أشعر بالسعادة أكثر فأكثر.

وأشعر بحزن عميق كلما سكنتني صورة أختي حميدة التي ضاعت ما بين المستشفيات بعد إخراجها حيَّةً من تحت الأنقاض، كما يشهد بعض الحاضرين وصورة أبي الذي أحاط به قطيعٌ من قطط المدينة وهام على وجهه معها في الشوارع والأزقَّة، منذ أن فقدَتْ يدي يده ونحن خارجان من مسجد جامع اليهود لحظة الزلزال.

لماذا يا تُرى لم يَحْمِ اللّه بيته من الزلزال، ولا عباده من تحت سقفه من الأنقاض؟ أفكر في هذا ونحن نصعد إلى طائرة كانت رابضة على مَدْرَج مطار دمشق الدولي.

وضعونا على متن طائرة عسكرية يتضح ذلك من خلال نوعية الكراسي الحديدية ووضعيتها المتقابلة في صفَّيْن طويلَيْن على الجهتين، على الفور أقلعت الطائرة في اتجاهٍ لا أحد منَّا كان يعلمه، كان البعض من المجموعة يغفو ويصحو أما أنا فلم يغمَض لي جفن، كنت متوترًا، مستعجلًا الوصول إلى كَابُل كأنما أستعجل نهايةً ما، بعد أزيَد من خمس ساعات طيران حطَّت بنا الطائرة بمطار في الخلاء الصحراوي، كان الوقت فجرًا.

جاء أحد العسكريين الأجانب لاستقبالنا يبدو ذلك من هيئته ومن لون شعره الأشقر المائل إلى الاصفرار، يتكلم الإنجليزية بطلاقة، أخذ جوازات السفر التي كانت بحوزة مُرافقنا الذي لم يَكُن سوى سائق الباص الذي يفتخر بعمه أبو بسام، الذي ذهب لتعليم العربية لأهلها فعاد يتكلم الأمازيغية والفرنسية.

بعد إجراءات مراقبة سريعة، قال لنا أبو بسام: "ها هنا انتهت مَهمَّتي يا أبناء الثورة الجزائرية، أنتم بمطار مروي العسكري ببلاد السودان".

أنا أبحث عن أفغانستان لا عن السودان.

أركبونا حافلة عسكرية مهترئة يقودها أجنبي آخر مسلَّح، كان لا يتوقف عن مراقبة حركاتنا من خلال المرآة الارتدادية، وصلنا ثُكْنة صغيرة موجودة في العدم، مقطوعة عن أية حركة، لا حياة في الأنحاء.

رمل وذباب غريب الشكل يَطِنّ.

في هذه الثكنة البئيسة ببنايات متهالكة حيث الغُرَف بدون أبواب وجدنا شبانًا آخرين، كان عددهم يفوق الخمسين تقريبًا، غالبيتهم تتكلم اللَّهجة التونسية وآخرون المغربية والليبية والمصرية، فور نزولنا وُزِّعت علينا ألبسة عسكرية وأحذية رياضية دون أن يطلبوا منا مقاساتنا، قال المسئول الذي وزع علينا ذلك وبلهجة سودانية فهمناها بصعوبة: "كُلٌّ وحظّه، لكن يمكنكم التبادل بينكم حسب قياساتكم الحقيقية".

في المرقد الجماعي الذي نمنا فيه مفترشين الأرض جنبًا إلى جنب، غير بعيد عني يتمدد شاب مغربي عرفته من لهجته الفاسية، لم يتوقف طوال الليل عن الشهيق والبكاء راجيًا المسئولين السماح له بالعودة إلى أُمِّه وقريته.

كان المسئول عن الثكنة عسكريًّا سودانيًّا يبدو وكأنه من جنوب السودان، اسمه طوني يتكلم المصرية بصعوبة مخلوطة بالإنجليزية، لا يتردد في تلبية رغبات الجميع، يجلب لنا ما نريده، لكن كل شيء بالمقابل، كل طلبية بثمن، فمن له بعض الدولارات يمكنه أن يحصل على أكل جيد ويدخن ويشرب حتى الماء المعدني والبيرة إذا ما أراد.

في اليوم الثالث، شكَّلنا نحن الجزائريين سَرِيَة أطلقنا عليها اسم "سرية أنصار القدس"، مما جعل المسئول السوداني المستر طوني كما يسميه الجميع يضحك معلقًا علينا، ورائحة النبيذ تعبق من فمه: "اسم كتيبتكم أنصار القدس وأنتم ذاهبون لتحرير كَابُل؟ جنون جزائري!".

رائحة النبيذ الصاعدة من فم المستر طوني ذكَّرتني بتلك الرائحة التي كنتُ أشتمُّها في أنفاس جانين غروطو وهي تُمرِّر برؤوس أناملها الرقيقة فوق جلد ظهري وعلى رقبتي!

هل غرق خالي يونس في البحر الذي كنت أشاهده في رسومات كتب جانين غروطو؟

ضحكة المستر طوني الساخرة والعالية ذكَّرتني بقهقهة مصطفى أوبختي صاحب أبُولُّو، وهو يعيد ترتيب قصة خالي يونس في رأسي كي يحررني من الخوف من البحر.

أيُّ بحر، وأيُّ غرق؟

أنا الآن أغرق في رمل الصحراء؟

في اليوم السادس تحركت ريح قوية محملة برمل أصفر غطى كل شيء، حتى ما عدنا نميز الأشخاص الذين من حولنا، في المساء إذ هدأت العاصفة الرملية قليلًا وصلت إلى الثكنة مجموعة أخرى من المجاهدين، كانت أغلبيتهم من الشباب التونسيين كما تدل عليهم لهجتهم الواضحة، وكانت من بينهم ثلاث فتيات في عمر الأزهار لا تتجاوز أعمارهن أعمار تلميذات الثانوية، يرتدين ثيابًا رجالية إضافة إلى امرأة ستينية أو هكذا بدت، ربما من كثرة

الإعياء، حكوا لنا بأنهم جاءوا بَرًّا عبر صحراء ليبيا الواسعة المخيفة، كانوا حُفاةً وشبهَ عراة، كانوا مصحوبين بدليل صحراوي يبدو أنه متخصص في تهريب البشر من بلدان إفريقيا ما بعد الصحراء إلى الشمال، كان يحدث طوني وهو ماسك رزمة من الأوراق النقدية سلَّمها له هذا الأخير وهو يعدُّها بين أصابعه بطريقة سريعة واحترافية، تمرُّ الأوراق بين أصابعه كما تمر في فم آلة العَدِّ الميكانيكية في البنوك، وضع الأوراق النقدية في جيبه وعاد من حيث أتي.

استقبل طوني المجموعة بدلو ماء، وعلى الفور اختلى بواحدة من الفتيات خلف سور الثكنة، بعد لحظاتٍ سمعناه ينهق كحمار يلجُ أتانة.

ومع سقوط الظلام، تقدمت ثلاث حافلات عسكرية متوسطة الحجم، والشاب المغربي لا يزال يبكي، وأنا أفكر في أمي التي كانت سعيدة يوم وقفت على جثة مهدي للتعرف إليها وصافية الملامح حين عدنا من مراسيم دفنه دون صلاة جنازة. تحت صراخ طوني ركبنا بنظام ثم توجهنا نحو المطار العسكري، لا حركة طيران ولا مسافرين مدنيين فيه، مطار شبه خالٍ.

ركبنا طائرة أو ما يشبه طائرة، أقلعت بنا دون أن نعلم إلى أين.

أقلعت الطائرة، التفتُّ وإذا بأخي مهدي يجلس بجواري!

قال لي: "أسافر معك كي أشهد على بطولة الوحش فيك".

كان أبي عللَّا فليتا أول من رفع العلم الوطني صبيحة الاستقلال في الساحة الرئيسية على واجهة بناية البلدية، ومن أطلق عليها اسم ساحة الحرية وقد كانت تُسمى في الزمن الاستعماري بساحة السلاح، بخفَّة ولياقة رياضي مُتمرِّس وحماس فائض، تحت عيون آلاف المواطنين الذين جاءوا للاحتفال بهذا اليوم العظيم، تسلَّق واجهة بناية البلدية من نافذةٍ إلى أخرى أعلى حتى أدرك السطح فأنزل العلم الفرنسي ورفع بدلًا عنه العلم الجزائري.

وزغردت له النساء وأطلق الرجال البارود ورقص الجميع.

من أعلى البناية بكى والدي فرحًا وهو يتأمل العلم يرفرف.

المجاهدون يبكون أيضًا.

للمجاهد قلب ودمع مالح وأشواق.

وها هو عللَّا فليتا اليوم يهرول من ساحة الحرية إلى آخر الشارع الرئيسي الذي يقسِم المدينة إلى نصفين، من باب الدزاير جهة الشرق حتى باب وهران جهة الغرب، يردد عباراتٍ غامضةً لا أحد يفهمها ويُقبِّل العلم الذي يحمله بيده ويبكي، ويُنشد النشيد الوطني بصوته الجريح ويبكي، يؤدي التحية العسكرية لبعض المارَّة، يخبط قدميه بقوة على الأرض ثم يبتسم ويمضي.

يضحك ويبكي.

للفرح بكاؤه بدمعه المالح كما للفجيعة بكاؤها بدمعه المالح أيضًا.

لا دمع فيه سكر، كما لا بحر ماؤه حلو.

لو أصبح ماء البحر حلوًا لهربت الأمواج إلى الغابة أو إلى الصحراء بحثًا عن رمل فيه بقايا الملح من غابر الأزمان.

هو أبي، هو علّلا يقيم ما بين دمعتين مالحتين واحدة للفرح وأخرى للرّزْء.

منذ جمعة الزلزال الذي ضرب رأسه وقد ضرب المدينة فحوَّلها أنقاضًا على أنقاض، لم يغادر علّلا مدينته ولم يبرح الساحة العمومية والشارع الرئيسي إلا قليلًا، فذلك هو بيته، لا يتوقف عن ترديد النشيد الوطني، ولم يفلت العلم الوطني من قبضة يده، حين فقدت الراية من بهاء ألوانها من فعل الشمس والمطر منحته أختي نوارة واحدة جديدة، كان سعيدًا سعادة طفل يفرح بلعبة غالية، لكنه لم يفرط في رايته الأصلية، يُقال إنها كانت معه في الجبل منذ أيام الثورة، فقد ربطها في شكل عصابة حول جبهته.

تبناه الجميع في المدينة، أصبح أبي مِلكًا للجميع، حتى إن أمي وأختي نوارة تصالحتا مع هذا الوضع، وما عادتا منشغلتين عليه كثيرًا، فهو بين أهله وفي سعادة داخلية عميقة، ارتبطت الاحتفالات الوطنية في المدينة بحضوره الذي يغطي على تلك الشخصيات الرسمية العسكرية والمدنية، التي وبشكلٍ روتيني تقليدي تُشرف على احتفالات عيد الاستقلال وعيد النصر وعيد أول نوفمبر عيد اندلاع الثورة وبعضها يجيء من العاصمة.

في يوم الجمعة، حين تخلو المدينة من كلِ حركة ويتجه الناس لأداء الصلاة الكبيرة، صلاة الجمعة، بهدوء يأخذ علاّلا فليتا طريقه نحو مقبرة الشهداء الموجودة عند المدخل الغربي للمدينة جهة باب وهران، يدور بين القبور حاملًا العلم مرفرفًا ومُنشدًا النشيد الوطني بصوتٍ عالٍ، ومُذكِّرًا ببعض أسماء الشهداء الذين عرفهم وناضل إلى جوارهم، يقف عند الشواهد يؤدي للشهداء التحية العسكرية واحدًا وأحدًا، وحين يتعب يتمدَّد قليلًا عند جدار المقبرة ثم يرجع بعد غفوةٍ عابرةٍ في اتجاه ساحة الحرية ليجد الناس قد انتهوا من أداء الصلاة وغادروا المسجد، يتمدد عند قدم تمثال الحرية المحاذي لظِلِّ شجرة الميموزا ذات الأزهار الصفراء الذهبية البديعة، ينظر إلى السماء ويصرخ عاليًا: "عودوا أيها الشهداء، إني ها هنا أنتظركم، والبلد كذلك فمَهمَّتكم لم تنتهِ بعد!".

ككل جمعة تحضر له نوارة قصعة الكسكسي وإناء اللبن، تجلس إليه قليلًا دون حديث، يتحاشى النظر إلى ساقها، ثم تمضي ويمضي.

دمعة مالحة من عين أختي وبحر مالح غرق فيه خالي يونس!

كان مصطفى أوبختي أقرب الناس إلى أبي، يحتلُّ في حياته موقعًا ما بين الابن والصديق الحميم، في الشارع من كل المارَّة لا يستجيب لدعوة أحد إلا لدعوته، يحدث هذا كل ثلاثاء وهو يوم السوق الأسبوعي في المدينة، إذ يدعوه إلى فنجان قهوة في المقهى الذي هو عبارة عن خيمة ينصبها أسبوعيًّا أحد المواطنين القادمين من الضواحي على أطراف السوق، ثم يطويها بمجرد انصراف المتسوِّقين بعد منتصف النهار بقليل ويرحل، يجلسان ساعات طويلة، الصبيحة كلها، وجهًا لوجه، دون تبادل كلمة واحدة، بين الفَيْنَةِ

والأخرى ينظر أبي إلى صِهْره مصطفى أوبختي، على الفور يقدم له هذا الأخير سيجارة، بحركة أُتوماتيكية يُخرِج أبي علبة الكبريت من جيبه، يشعل سيجارته، ثم يسحب نَفسًا عميقًا طويلًا، يضع رأسه في كفِّه ثم يغرس عينيه في السماء، يظلان هكذا يجدد لهما النادل بين الحين والآخر الطلبية، قهوة على قهوة، يدخنان سيجارة على سيجارة، في صمت، وحين يبدأ الناس في مغادرة رحبة السوق، ويشرع الباعة في لمّ سلعتهم المتبقية في الصناديق، يبتسم الواحد للثاني، يقومان في لحظة واحدة ويغادران المكان دون كلام، كُلٌّ في اتجاهه، ويتكرر المشهد في الثلاثاء التالي، تحت الخيمة نفسها وفي الصمت نفسه وأمام فنجانَيْ قهوة يُغيَّران كل ساعة.

لم يمرض عللَّا مرةً واحدةً في حياته الشقية الموزعة بين الشوارع وساحة الحرية والقطط، والكنيسة المهجورة أين يحتمي من المطر والبرد شتاء والريح خريفًا والقيظ صيفًا، مثل أبيه، أي جدي، لم يخلع سِنًا واحدة، حتى ضرس العقل لا تزال في مكانها، لم يزُر طبيبًا، ولم تظهر عليه علامة الشيخوخة كما هي عند مُجايِلِيه من المجاهدين رفاق الجبل والأحلام.

يُقال إن المجنون لا يشيخ ولا يشيب، فهل كان جدي بوطالب الكيَّاس أيضًا مجنونًا؟

يقول أهل المدينة، لمعرفة ما قد يحصل لهذا البلد مستقبلًا علينا الإصغاء جيدًا لما يقوله عللَّا فليتا، فعباراته الغامضة التي يطلقها كل صباح في المدينة، يرددها دون توقف، فيها ما يوحي لما ينتظرنا، إنه نبي يقرأ طالع البلد والعباد.

ذات صباح جاءه رئيس البلدية، هو جالس عند قدم تمثال الحرية في

الساحة الرئيسية، وبحجة الانطلاق في عملية ترميم الكنيسة التي ستُحوَّل إلى مسجد والتي هي ملجؤه في أيام البرد والمطر والثلج والريح، اقترح عليه أن يمنحه غرفة في مدرسة المكفوفين مقابل إخلائه للمكان، رفض أبي رفضًا قاطعًا، كان رفضه بتعبير من حركات يديه وصراخه المنادي على الشهداء والمجاهدين.

في اليوم التالي اختفى عللَّا فليتا، يحدث هذا للمرَّة الأولى منذ زلزال الجمعة الذي ضرب عقله في رأسه وضرب المدينة، وباختفائه بدت الشوارع فارغة، وسادها صمتٌ غريبٌ وما عاد يُسمع فيها حتى الأذان الذي يُرفع بمُكبِّرات الصوت العالية في كل أحياء المدينة، وفي اليوم الثالث لاختفائه سقط مطر من ضفادع دام لبضع ساعات.

مطر من ضفادع!

ضفادع خضراء صغيرة تسقط من السماء الغائمة قليلا وكانت هذه الكائنات الغريبة بمجرد أن تلمس الأرض حتى تجري في كل اتجاه وتلتهم كل شيء رطب في طريقها، وبعد أن توقف مطر الضفادع عن السقوط زحفت أسراب جراد أسود جاءت على ما بقي من أغصان أشجار لا تزال واقفة على الأرصفة المُحفَّرة وفي الساحات العمومية وعند مداخل المدينة، وتحولت الساحة المركزية، ساحة الحرية، إلى مرتع لذباب أزرق كل واحدة بحجم طير.

قال حنة منصورة:

- هذا يوم اللطيف!

- وما هو يوم اللطيف يا حنة؟

- يوم لا كالأيام، فيه اللعنة تمشي على الأقدام.

قال البعض:

- هذه اللعنة بسبب تصرف رئيس البلدية مع عللّا الدرابو بطرده من مأواه بخربة الكنيسة.

وقال آخرون:

- سيضرب المدينة قريبًا زلزال جديد، وبدأ الناس يهجرون بيوتهم خوفًا من أن تنهار على رؤوسهم ولم ينسوا بعد ما حدث لهم من سنوات قريبة.

وفي اليوم السابع لاختفاء والدي، أخذت أمي تهذي في الليل تقول أشياء غريبة ومخجلة، كلام وَقِح، وبدت الكآبة واضحة على وجه مصطفى أوبختي، وللمرَّة الأولى بُلْتُ في فراشي وقد أصبحت شابًّا بعد أن شاهدت بأُمِّ عيني سربًا من الضفادع الخضراء تتحرك في المرحاض وتحت السرير.

وتعددت الشائعات حول اختفاء والدي عللّا فليتا.

قالت بعض الألسن إنه شوهد في مكَّة المكرَّمة في بلاد مشى عليها الرسول سيد الخلق، وقد أدركها على جناح البُراق النبوي، وأنه يقوم هناك بتربية نوع من الحمام في باحة الحرم المكي ذي لون أبيض ثلجي، في خطة تهدف إلى تعويض الحمام الأزرق بالسلالة البيضاء في المدينة كاملة، وقال آخرون إنهم شاهدوه في ساحة الأسلحة بمدينة وهران راكبًا على ظهر أحد تمثالَي الأسدين العظيمين المنتصبين عند مدخل البلدية، وأن الأسد قام من رخامه وتحرك وسار به في المدينة وهو على ظهره، وكان الناس ينظرون إليه حيارَى.

لم تمضِ سوى أيام قليلة على اختفاء علّلا فليتا وإخلائه للكنيسة، حتى استولت عليه مجموعة من الشباب الملتحين الغرباء، يؤكد الجميع بأن تحركهم ذلك كان بإيعاز من رئيس البلدية في صفقة بينهم، تقضي بمنحهم البناية مقابل الوقوف معه ومساندته من أجل تجديد انتخابه في الدورة القادمة التي لم يبقَ على موعدها سوى بضعة أشهر. على عَجَلٍ تم ترميمه الكنيسة، وأُقيمت في رحابها أول صلاة للجمعة، جمعوا فيها وجوهًا جاءت من مدن بعيدة وأخرى جُلبت من القرى والمداشر القريبة في حافلات وشاحنات بضائع، ولوحظ بأن أغلبية الحاضرين كانوا طلبة من جامعة وهران ومن مراهقي ثانوية المدينة ومن بعض الجمعيات الدينية والخيرية والرياضية.

ذات مساء بارد من شتاء صقيعي ظهر علّلا فليتا ثانيةً في شوارع المدينة الحزينة، بدا وكأنه نقص من عمره عشريّتان، حلق لحيته وغيَّر ملابسه لكن الراية لم تفارق يده، كانت القطط أول مَنْ تعرف إليه فجاءته تموء من كل الجهات ملتصقة به متمسحة بقدميه، وإذ شاهده بعض المارَّة الذين تعرفوا إليه حتى أسرعوا إليه طالبين منه العفو، كان واقفًا يرتجف بردًا في وسط ساحة الحرية، نظر إلى مسجد جامع اليهود الذي يقابله وقد نُصب على سقفه المنهار جزئيًّا مُكبِّر صوت ضخم بعلامة تجارية يابانية تُرى من بعيد، يرفع أذان العصر، لم يعلق ولم ينزعج لذلك، عاد للجلوس عند قدم تمثال الحرية الذي يشبه تمثال الأمير عبد القادر المنصوب في وسط العاصمة وما هو بالأمير، أنشد علّلا عاليًا النشيد الوطني، دخن سيجارة ونام إلى ظل شجرة الميموزا التي يبدو أنها نبتت في غفلة من الجميع بطريقة عشوائية في هذا المكان، بعد أن يبست أشجار الأرصفة وجرفت الأخرى التي كانت تزين ساحة مطعم الاستقبال الجيد والذي أصبح مقهى الاستقلال.

الأشجار هي الأخرى تعيش تناسخ الأرواح!

بين الحين والآخر، كان عللّا يذهب إلى الدوش العمومي، الذي أقامه بنفسه فوق الجنينة الخلفية لمقهى الاستقلال للاستحمام، حيث تعوَّد أن يترك ملابسه الوسخة عند المشرف على الحَمّام، تأتي نوارة في اليوم التالي تأخذ الملابس الوسخة بعد أن تكون قد تركت له أخرى نظيفة.

حين يجوع عللّا يدخل أي مطعم، يجلس إلى طاولة، يقدم له العامل وجبة اليوم حتى دون أن يطلب شيئًا، يأكلها ثم يمضي.

أكله كأكل العصافير، يأكل كي لا يموت.

هذا الصباح، وهو واقف بالساحة الرئيسية، الجو بارد والسماء تكاد تمطر، لمح عللّا فليتا شخصًا، عرفه على الفور، صرخ فرحًا ومستغربًا، دون أن يفهم قصده أحد من المحيطين به أو من المارَّة: "إنه الشيخ مسعود شوراكي، بلحمه وشحمه"، وكمَن يريد أن يسترجع قطعة من رأسه الذي فقده في جمعة الزلزال المريع، أسرع نحوه، كان الضيف يحدق في جامع اليهود حيث قضى عمره، دارت برأس الشيخ مسعود تلك اللحظات الصعبة والخطيرة التي قضاها في هذا المكان الديني وهو يستقبل المجاهدين ويسهر على أمنهم وسلامتهم من العسكر الاستعماري، ومن عيون الخونة المزروعين في كل مكان، نظر عللّا فليتا إلى الشيخ مسعود شدَّه من كتفيه قائلًا بصوتٍ عالٍ والعَلَم الوطني في يده:

- ها أنت تعود يا شيخ مسعود شوراكي، كنت أتوقع عودتك إلى مدينتك وحيِّك وناسك وجامعك أيها المجاهد.

تعانقا.

منحه العلم وعلى الفور قبَّله الشيخ مسعود بدموع سخيَّة حارَّة.

- هذا أنت يا السي عبد اللّـه فليتا؟

وعانقه بقوة، وظل يتأمله للحظات، يمرُّ برأس الشيخ مسعود شوراكي شريط الماضي الصعب؛ حيث عبد اللّـه فليتا يجيء متسترًا إلى جامع اليهود ليتسلَّم بعض الوثائق والمنشورات الخاصة، ويسلِّم للشيخ مسعود بعض الرسائل التي يجب إيصالها إلى قادة الثورة في مناطق مختلفة، يتذكر أنه حضر مرات عديدة اجتماعات سِرِّيَّة إلى جانب بعض قادة الجبهة عُقدت تحت سقف هذا المعبد الذي شُيِّد منذ قرون، بناه الأجداد الذين طُردوا من قرطبة في نهاية القرن الثالث عشر ثم أُعيد بناؤه مع الفوج الثاني الذي وصل المنطقة بعد سقوط غرناطة.

سار عللَّا فليتا خطواتٍ مع موكب المجاهدين المرافق للشيخ مسعود شوراكي والناس من حوله لا تصدق التغير الذي طرأ على حال عللَّا وقد استبشروا خيرًا، فهل رؤيته لرفيقه سنوات الثورة أعادت له عقله؟

اقترب الجميع من مدخل الكَنِيس، لم يتفاجأ مسعود شوراكي بتحويل الكنيس إلى مسجد، ولم يتأسَّف إذ لم يعُد في المدينة ولا حتى في الناحية يهود وبالتالي ما عادت هناك حاجة لكنيس، إنه منطق التاريخ الجارف بعنفه وأخطائه وحسراته وإيجابياته، وحين أدرك باب البناية وقف الشيخ مسعود عند العتبة وإذ هَمَّ بالدخول بعد أن خلع حذاءه اعترضه شاب بلحية طويلة، وبلغة صارمة منعه من اجتياز درجات المدخل، قائلًا: إن الإمام أوصانا بأن المسجد لا يمكن ليهودي أن يطأ أرضيته الطاهرة حتى ولو كان سابقًا كنيسًا، وقف الشيخ مسعود حائرًا وقد تقطَّعت أنفاسه

وبردت مفاصل ساقيه، والتفت إلى مرافقيه من رفاق الثورة، فأخفضوا جميعهم رؤوسهم من الحرَج ولم ينبِسْ أحد منهم بكلمة.

وحده أبي علّلا فليتا، ما بين الحضور والغياب صرخ عاليًا: "الاستقلال أيها السادة ليس معناه أن نعيش لوحدنا، الاستقلال هو أن نعيش معًا بالجمع لا بالمفرد".

حزينًا، منكسرًا، انسحب علّلا من الموكب وعاد إلى الساحة المركزية حيث قطيع قططه تنتظره، ماسكًا العلَم بيُمناه، مرددا بحرارة وبصوتٍ عالٍ كلمات النشيد الوطني، اتخذ له مكانًا تحت شجرة الميموزا وهو يراقب الشيخ مسعود شوراكي يغادر المكان مطرودًا ومُهانًا تحت أنظار رفقائه في السلاح.

منذ زلزال جمعة مسجد جامع اليهود لم يتفوَّه علّلا بجملة واحدة واضحة المعاني، باستثناء ترديده كلمات النشيد الوطني وبعض العبارات الغريبة غير المفهومة، اليوم وللمرَّة الأولى ها هو في حضرة الشيخ مسعود شوراكي تكلم وكان فصيحًا شاهدًا على التاريخ وعلى الرجال الذين صنعوه، في حين سكت الجميع الذين ألسنتهم مندلقة في خُطَب المناسبات وما أكثرهم.

سار خبر كالريح في المدينة مفادُه أن الشيخ مسعود شوراكي اليهودي أعاد لعلّلا فليتا المجنون عقله وأنطق لسانه بكلام مفهوم بعد بَكْمٍ طويل: "إنها قوة السحر الخارقة عند اليهود"، علق البعض.

وقال بعضهم: "لا يمكن أن يُنطِق المجنونَ إلَّا يهودي!".

لقد تغيَّر الزمن يا أبي.

يوم حملتُ وللمرَّة الأولى السلاح الناري، بين يديَّ ارتعشت سعادة، أنا في حالة تشبه النيرفانا، كاد أن يُغمى عليَّ فرحًا، بهجة، اقتربت تلك اللحظة التي انتظرتها طويلًا، ها أنذا أطل على بستان السعادة الأخرى، للسعادة وجوه، منذ أن شاهدت أمي سعيدة لموت أخي مهدي، تستقبلنا بأسارير وجه منبسط هنيء ونحن عائدان على التوِّ من مراسيم دفن أخي، نعم أخي مهدي الذي قضى كما قضيت أنا تسعة شهور في الرَّحِم نفسه، رضع من الثدي الذي منه رضعت الحليب الأبيض والحنان النوراني، قبَّلتُ القطعة الحديدية الباردة الدافئة ثلاث مرات أو أكثر وكأنني أقبل جبهة أخي الميت، البرودة الدافئة، إلا أنها الرغبة التي لم تتحقق فقد وصلتُ متأخرًا إلى المقبرة، وجدتُهم قد أنزلوه إلى عمق الحفرة، وقد رمى عليه مصطفى أوبختي طُنًّا من التراب الأحمر.

قبَّلت الكلاشنكوف بحرارة وأنا أرى وجه أخي مهدي، وأحمدُ اللَّه أن الروس صنعوا هذه القطعة السحرية.

تحررتُ من الخوف.

تحررت منِّي.

الوحش البديع الذي بداخلي يرقص زهوًا.

بمجرد أن مسكت السلاح بين يدَيَّ عادت صورة أخي واختفى الصوت الهاتف، للمرَّة الأولى ألتقي بأخي مهدي على هذه الأرض البعيدة، بلاد الأفغان بكل تكويناتها العِرْقِيَّة الكثيرة والمتناحرة، يتبعني حتى ها هنا، عينه عليَّ أم عيني عليه؟ نسيت الأمريكان والسوفيات والمجاهدين، كان أخي مبتسمًا لي، احتضنني بقوة شعرت بذراعيه رهيفتين حدَّ الهشاشة، قائلًا بسخرية رائقة: لماذا تركت شعر رأسك يطول هكذا، حتى أصبحت بسالف كسالف الأفغانيين أو الهنود؟

ضحكنا معًا بصوتٍ عالٍ كطفلين، وللمرَّة الأولى أنتبه إلى أن شعري بالفعل قد تدلَّى ووصل حتى كتفيَّ، لم أحلقه منذ وصلت إلى كَابُل وقد مضى على وجودي بها تسعة شهور وبضعة أيام. سرنا معًا في شارع وسط قرية صغيرة على أطراف كَابُل، هي ليست قرية إنما عبارة عن بيوت متناثرة في فوضى عمرانية غريبة، ذكَّرتني فوضى العمران ها هنا ببلادنا حيث تنبت بشكل متوحش ووحشي على أطراف المدينة أحياءٌ لا بداية ولا نهاية لها، نمشي معًا بخطوات موزونة فوق ظِلِّينا اللذين يسبقاننا أمام انعكاس ضوء آخر عمود كهربائي لا يزال يشتغل.

كنتُ أتأمل ظِلَّه على الأرض ونحن نمشي وأداعب سلاحي الناري وأُربِّت عليه بلطف وحنان وأشعر بأناملي عليه، كما كنت أشعر بأنامل السيدة جانين غروطو فوق ظهري ورقبتي وهي تقرأ وتشرح لي مقطوعة من قصيدة "المركب السكران" لرامبو، لم أكُن أفهم من القصيدة المعقدة شيئًا لكني كنت أرى البحر وأشعر بحرارة الأنامل الناعمة ترقص فوق جلدي، جلد الأفعى!

المركب السكران أم الأنامل السكرانة؟

في مُجمَّع عسكري يُطلق عليه اسم "خان المغاربة الأفغان" تدربت على استعمال السلاح وتفكيكه وتركيبه، حصل ذلك في أقل من أسبوع، كنت متحمسًا مستعجلًا الوقت كأني على موعد أخشى أن أضيعه، كأنني أنتظر قطارًا أخشى أن يمرَّ موعد مروره، في اليوم الثالث للتدريب على استعمال السلاح، قال لي العسكري الأفغاني المعرب بأنني سريع الفهم ويمكنني الذهاب إلى الجبهة فورًا، قالها وهو يبتسم، ضمن هذا المعسكر هناك جناح خاص بالأفغان الجزائريين وهي السرِية المسمَّاة "أنصار القدس"، يقودها مجاهد بعين واحدة، الجميع يناديه "الشيخ سليمان الجزائري الأفغاني"، ويُقال له اختصارًا في المعسكر الشيخ سليمان الأعور، حسب لهجته فهو من الجهة الغربية، من القطاع الوهراني وبالضبط من مدينة سيق التابعة لولاية معسكر، حسب لهجته.

على مدى تسعة أشهر لم نشتبك مع السوفيات الشيوعيين سوى مرتين، استُشهد فيها الشاب المغربي الذي بات يشهق ليلتها في ثكنة مطار مروي بالسودان، راجيًا المسئولين إعادته إلى بلاده. لقد اختفت السيدات الثلاث اللواتي قدمن من تونس، قيل لنا بأنهن نُقلن لجبهة أخرى في مَهمَّة جهاد النِّكاح، وقد احتفظ "خان المغاربة الأفغان" بالمرأة الستينية، كانت تبات كل ليلة متنقلة من فراش إلى فراش، من أمير إلى مجاهد إلى آخر.

في دروس العصر التي درج القائد الشيخ سليمان الأعور الجزائري الأفغاني على تقديمها لنا يوميًّا كان لا يتوقف عن تذكيرنا بساعة العودة إلى الجزائر، عودة لا مجال للشك فيها، للشروع في المعركة الكبرى هناك،

معركة بناء جزائر أفغانية عادلة وفاضلة، فوجودنا هنا في بلد جمال الدين الأفغاني - رضي اللَّـه عنه - وجود عابر لمساعدة الإخوان المجاهدين الأفغان في حربهم المقدسة ضد الشيوعيين من أجل إعلاء كلمة الإسلام، وكان يؤكد أن وجودنا على هذه الجبهة هو عبارة عن تجربة بسيطة ليوم المعركة الكبرى في الجزائر، بهدف بناء المغرب الإسلامي الكبير والتمكين للإسلام في بلدان إفريقيا جنوب الصحراء، التي ترك لنا فيها الشيخ عبد الكريم المغيلي أثرًا لا يُنسى وأولها حربه ضد اليهود في تنميط وهدم أماكن عبادتهم، علينا أن نُحيي تقاليد وسيرة الشيخ المغيلي في تلك المناطق وفي غيرها من العالم.

منذ أن نزلنا بهذه البلاد المباركة، كان المجاهدون الأفغان أبناء البلد لا يبخلون على المجاهدين العرب الأفغان بتزويدهم بكميات معتبرة من الحشيش، وكانوا يبررون لنا ذلك بقولهم بأن هذه النبتة مباركة من قِبل الأجداد، وأنها تزيد من شجاعة المسلم وتجعله يُقبل على الحرب والاستشهاد إقبالًا مثاليًّا، لا يخاف في اللَّـه عدوًّا. كان الشيخ سليمان الأعور الجزائري الأفغاني هو مَن يتسلَّم حصة سرية "أنصار القدس"، وهو من يوزع ذلك علينا بالعدل والقسطاس، في البداية ترددت في تناول الحشيش، لكن خروجنا إلى الجبهة وما لاحظته من شجاعة وإقبال عند الذين يستهلكون الحشيش جعلني أنا الآخر أجرب، وبالفعل كان تدخين هذه النبتة العجيبة مُساعدًا لي على نسيان الموت والتركيز على الهدف الذي هاجرت من أجله، ألا وهو الانتقام لأخي لا القضاء على السوفييت، مع مرور الأيام أصبحنا ندخن جميعًا الحشيش من سبسي مشترك قبل درس العصر كي نستعد لأي هجوم ليلي محتمل، فالروس الشيوعيون يفضلون قنبلتنا في الظلام، نجلس في

حلقة كبيرة يملأ الشيخ سليمان الأعور السبسي بالحشيش، يأخذ منه نَفَسًا أو نفسين ثم يمرره إلى مساعديه ثم منهم إلينا نحن البسطاء، كنت أحب هذه الجلسة ومن خلالها وخاصة حين يشعشع الجميع وتندلق الألسن فأكتشف الرؤوس الدبرة وأحدد هدفي جيدًا.

ذاتَ ليلةٍ ونحن في سهرة إخوانية وبعد أن استهلكنا حصتنا من الحشيش، تناول الكلمة قائد سريتنا الشيخ سليمان الأعور الجزائري الأفغاني وقد استهلك ربما أكثر مما تعوَّد عليه، وكعادته يربط دائمًا جهادنا المقدس ضد الروس الشيوعيين الملاحدة بما ينتظرنا من معركة كبيرة في الجزائر، كنت ليلتها في الحراسة، واقفًا على باب الخان، وبين الحين والآخر أسترقُ السمع لحديث الشيخ إلى مساعديه والمحيطين به، وبعفوية كبيرة بدأ يسرد على الجميع ذكريات الجامعة مستعيدًا الخطوات الأولى للتمكين الإسلامي وتكوين النواة الأولى للأفغان الجزائريين التي شكَّلها مَعيَّة بعض المجاهدين، بعضهم قد قضى نحبه وبعضهم هاهم من حوله وبعضهم الآخر لا يزال في الجزائر يناضل من أجل إعلاء كلمة اللّه وراية الإسلام: "الحمد للّه كل الذي خططنا له قد تحقق أو هو في طريق التحقق"، الحديث يجرُّ الحديث، والسبسي بعد الآخر، حتى وصل إلى عملية اغتيال الطالب الملحد كمال أمزال المنتمي إلى زُمْرة الحركة من أجل الثقافة القبائلية المزدكية بطعنة سيف من مجاهد ليس أقل شجاعةً ولا شرفًا من خالد بن الوليد، وعملية تصفية الطالب المِثْليّ مهدي فليتا في غرفته وبعناية اللّه تمت العملية بدقة متناهية، وكيف نقلوه ليلًا من العاصمة حتى مدينة شلف التي كانت عبارة عن أنقاض جرَّاء الزلزال الرهيب الذي ضربها قبل يوم واحد، وكيف حفروا له حفرة عميقة بالتنسيق مع مجاهدين في المدينة والذين كانوا على علم بالخطة،

وسحبوه من الكيس البلاستيكي الكبير الذي كان فيه ودفنوه تحت الردم بأطراف مسجد جامع اليهود الذي انهار جزء كبير منه، وأنهم بعد ذلك صلوا صلاة الفجر على أطراف المسجد وعادوا إلى العاصمة، وكيف أن الأمن وبعد التأكد من اختفاء الطالب مهدي فليتا والقيام ببعض التحريات أوقف مجموعة منهم لمدة ثلاثَ ليالٍ، ثم بمجرد أن عُثر على جثته تحت الأنقاض تم اعتبار موته طبيعيًّا، وقال أحد المسئولين عن القضية: "إن الطالب عاد لزيارة أهله فكان قدَرُه كقدر الثلاثين ألف ضحية الزلزال".

وطُوِي الملف.

حين سمعت القصة وأنا على الباب في دور الحارس، كاد أن يُغمى عليَّ، لكني قبَّلْت سلاحي الناري قبلةً حارَّةً أخرى، عانقت الكلاشينكوف ودخَّنت سيجارة حشيش وشعرت بالسعادة إذ أصبح الهدف واضحًا ومُحدَّدًا.

أردت أن أطلق النار على الجميع لكني أجَّلت العملية إلى يوم آخر.

دخنت سيجارة حشيش أخرى، قبل أن أترك مكان الحراسة لمجاهد آخر، لم أنتبه كَمْ كانت الساعة، دخلت خان المغاربة الأفغان، تمددت لأنام فإذا بي أجد مهدي بجواري، كان مبتسمًا، فَخُورًا بي، أنا الذي دافعت عنه في الزقاق من اعتداءات أطفال الحي الشياطين، ها أنذا أستعد للدفاع عنه وقد أصبح شابًّا يعيش في رأسي.

أتهيَّأ لاجتثاث بذرة الظلم، حددت الهدف، قررت تصفية الشيخ سليمان الأعور الجزائري الأفغاني ومساعديه الاثنين.

في اليوم التالي، بدأت في متابعة تحركاتهم اليومية بدقة، وميَّزت وجوههم بدقة أيضًا، أراقبهم صباح مساء وأنا أشعر بالسعادة لاقتراب الساعة، ساعة القتل المُحرِّر، هكذا شعرت بنفسي خفيفًا، وعادت حالة الأرق السابقة فلم أعُد أنام، وبدأت تتحرك فيَّ موهبة الرسم، وجدت نفسي أرسم البحر على دفتر كان في أمتعتي الشخصية وكأني أريد أن أتصالح مع البحر، بحر آخر، ألَّا أكون الغريق ولا حكاية الغريق الكاذبة.

كنت أريد بحرًا آخر.

قُضِيَ الأمر.

زلزال السعادة في رأسي، والإصبع على زناد الكلاشينكوف وأخي مهدي يقف بجواري مبتسمًا.

أطلقت النار على الشيخ سليمان الأعور الجزائري الأفغاني قائد سَرِيَّة "أنصار القدس".

ثلاث رصاصات حيَّة لموت مؤكد!

أتنفَّس هواءً من وفاء.

دخنت سيجارة حشيش أخرى، كانت السيجارة الأخيرة، قررت ألَّا أدخن ذلك ثانية أبدًا.

مبتسمًا، كان أخي مهدي يراقب المشهد، واقفًا في رأسي، لا أدري هل كان يبتسم لموته الذي أصبح خفيفًا عليه وعليَّ، أم لموت الشيخ سليمان الأعور الأفغاني؟ لم تَكُن ابتسامته كابتسامة أمي بعد أن تعرَّفت إلى جثة ابنها، ولا الارتياح الذي بدا على ملامح وجهها النحيف حين عُدنا من مراسيم دفن ابنها.

كان مهدي مبتسمًا ابتسامة الميت المرتاح، ابتسامة الملاك.

كان فرحًا بموته.

قبَّلت عقب سلاحي الناري ثلاث قبلات وصلَّيت الفجر، للمرَّة الأولى أصلِّي بعمق وصدق للّه في هذه الأرض.

كان اللَّه قريبا جدًّا من قلبي، وكانت السماء جالسة في كفي.

الآن أشعر بأن مَهمَّتي انتهت، على المحارب أن يعود من حيث أتى.

قطعتُ كل هذه المسافة الطويلة، من الجزائر مرورًا بدمشق فالسودان وأفغانستان، من أجل إطلاق ثلاث رصاصات؟

ثلاث رصاصات كانت كافية لتغيير مسار حياة كاملة.

أنا سعيد.

قبَّلني أخي مهدي الذي خرج من رأسي فرحًا كالطفل واحتضنني وبكى فرحًا، شعرتُ وكأنه سعيد بموته الآن، احتضنته ومشينا في شوارع خلفية في مدينة كَابُل الخلفية نبحث عن أبينا الذي ضاع في شوارع الأصنام بعد أن ضيَّع عقله وجمع من حوله قطيعًا من القطط الضائعة.

كان أخي مهدي مثل أبي يعرف لغة القطط.

في أفغانستان من مات من عرب الأفغان لا يُسأل عن موته، لقد مات شهيدًا والسلام وهو في ذلك محظوظ، فكَابُل بوابة الجنة.

اغتنمت فرصة الهدنة القصيرة المُوقَّعة ما بين المجاهدين والروس بإشراف الصليب والهلال الأحمرين لإجلاء الجرحى والنساء والأطفال في منطقة شرق كابُل، وقررت الرحيل والعودة إلى الجزائر، بي رغبة كبيرة للوقوف

على قبر أخي في تلك المقبرة الفوضوية وأقول له: اليوم يمكنك أن تنام مرتاحًا، وأقرأ عليه الفاتحة دون أن تضيع مني كما حصل معي في يوم دفنه، وأقول لأمي شيئًا لم يتضح بعد في رأسي، شيئًا يرفع من ملامح وجهها علامة السعادة التي ظهرت عليها، وهي تتأكَّد من أن الجثة التي جيء بها للتعرف إليها ومعاينتها هي بالفعل لابنها مهدي...

سأحكي لها تفاصيل رحلتي إلى بلاد الأفغان صحبةَ أخي المقيم في رأسي، وسأقول لها: الآن يمكنك أن تحزني كأيِّ أُمٍّ تحزن على فراق ابنها البِكْر، وستحزن أمي حزنًا صادقًا على فراق مهدي.

أعرف بأن قبره قد نُبش وأن عظامه قد أُحرقت، لكن مهدي أكبر من قبر ومن جسد.

ها أنذا أذوق عسل السعادة الحرّ المقطَّر من شُهد الموت.

القتل قبيح لكنه سعادة في بعض المرات، يا أخي مهدي.

هنا وفي ظل الحرب المفتوحة والفوضى العارمة في كَابُل وضواحيها، كل شيء يُباع ويُشترى، من علبة سيجارة مالبورو مرورًا بالحشيش وصولًا إلى الغلمان ومدافع الهاون، يكفي أن تملك أوراق الدولار لتحصل على ما تريد.

لا أخلاق للحرب.

أمراء الحروب يكدسون أموالًا عمياء في مثل هذه المناسبات العنيفة، لم يَكُن صعبًا عليَّ أن أجد مهربًا يوصلني من كَابُل حتى مدينة مشهد في إيران، الأمر بسيط جدًّا، بعتُ سلاحي للسائق الذي تكفَّل بنقلي، كل قطعة ولها سعرها المعروف في السوق، سرنا يومًا وليلة، وكان الطريق سالكًا، بين

الفَيْنةِ والأخرى كنا نسمع بعض صوت إطلاق نار من بعيد، من قرى بعيدة عن الطريق الذي نقطعه، العسكر الذين على الحواجز الأمنية جميعهم على معرفة حميمة سابقة بالسائق المهرب، كان يُحدِّث بعضهم باللغة الباشتوية في هذا الحاجز، وتارةً بالدَّرِّية في حاجز آخر وتارةً بالعربية، السائق المهرب يتكلم إضافة إلى ذلك الإنجليزية الأمريكية بطلاقة والروسية أيضًا، حين سألته أين تعلَّم هذه اللغات قال لي: إنه دكتور في الفيزياء الفضائية، وهو خرِّيج جامعة كييف، أوصلني حتى مطار مشهد الدولي ولم يتركني حتى أنهيتُ جميع إجراءات السفر، يبدو أن الجميع يعرفه ها هنا أيضًا، رافقني حتى بوابة ركوب الطائرة التي أقلَّتني إلى إسطنبول التي وصلتها ليلًا بعد خمس ساعات من الطيران، خلال الرحلة لم أشعر بالتعب ولا برغبة في النوم، كانت لي شهية كبيرة للأكل وقد طلبت وجبتين، كنتُ أستعجل الوصول إلى الجزائر، إلى الأصنام مدينتي، إلى قبر أخي أو ما بقي منه، مكثتُ أربع ساعات ونصف الساعة في الترانزيت بمطار إسطنبول الدولي الذي لا ينام ثم ركبتُ طائرةً في اتجاه تونس، كل شيء تم ترتيبه بدقة في كَابُل.

قضيتُ ليلتين في تونس، لم أغادر غرفة الفندق سوى مرتين، في المرة الأولى قادتني قدماي دون سابق تخطيط حتى باب جامع الزيتونة، وفي المرة الثانية مشيتُ ما بين البيت الذي وُلد فيه ابن خلدون والتمثال الذي نُصب له في الشارع الرئيسي الحبيب بورقيبة.

استبعادًا لأي طارئ أمني وتفاديًا لأية مذكرة توقيف قد تكون صدرت في حقي غيابيًّا وهي بحوزة شرطة مطار هوَّاري بومدين، قررت الدخول إلى الجزائر برًّا، ركبت سيارة أجرة مع أربعة ركاب آخرين، وفي معبر يُسمى

أُمِّ الطبول كانت الإجراءات عادية وروتينية، لم نترجَّل حتى من سيارتنا، السائق هو من قام بجميع الإجراءات، كان معي مبلغ لا بأس به بالدولار الأمريكي والفرنك الفرنسي، حجزتُ غرفة بفندق السلام بعنَّابة، فندق شعبي في حي بسيط، كنت أفضِّل البقاء في غرفتي، الفندق شبه فارغ، مع موعد نشرة أخبار الثامنة أنزل إلى بهو الفندق أجلس قُبالة جهاز التلفاز أتابع ما يجري في البلد، أخرجُ مراتٍ أمشي في الشوارع وأجلس في مقهى بساحة الكور وحيدًا كمَن يترقب حدوث شيء ما، لكن شيئًا لم يقع، يحدث أن أشك في وجه شخص ما فأعتقد بأنه رجل أمن يلاحقني ويراقب حركاتي، أغيِّر طريقي فيغيب الشخص فأتنفس الصُّعَداء، أمشي في هذا الشارع فأتوقع أن يرتمي عليَّ أحدهم ويضع كيسًا أسود على رأسي ويُدخلني في سيارة شرطة مموَّهة، أتذكَّر حكاية والدي وصرصوره، فأتحاشى الاقتراب من أي بوليس حتى ذلك الذي يقوم بتنظيم السير.

في المقاهي الشعبية، لا حديث سوى عن آثار مظاهرات 5 أكتوبر، يتكلمون ويحتسون فناجين القهوة وكؤوس الشاي والزنجبيل ويدخنون التبغ الوطني الرديء، أو الأمريكي المُهرَّب من الجنوب، يعرض التليفزيون بشكلٍ دائريٍّ مغلق صور بعض مَقرَّات مؤسسات الدولة والسيارات الرسمية ومواقف حافلات النقل العمومي محروقة أو مخرَّبة أو منهوبة.

كلما شاهدت الخراب تذكَّرت أمي!

قضيت قرابة السنة في عنَّابة، بالضبط عشرة أشهر وواحد وعشرون يومًا، كنت أغيِّر فيها إقامتي من فندق إلى آخر كل ثلاثة أسابيع، لم أخبر أحدًا بوجودي في الجزائر، وحين تيقَّنت بأن الأمور عادية وأن الجميع

نسيني بمَنْ فيهم الحكومة وأجهزتها الأمنية التي لها من الانشغالات ما هو أهم مني، قررت العودة إلى العاصمة، من باب الاحتياط فضَّلت الرحلة عن طريق القطار الليلي.

حين دخلتُ بمدينة سيدي عبد الرحمن الثعالبي وجدتُها كأنها تتحرر من كابوس، الناس اندلقت ألسنتهم على آخرها، فوضى مطلقة، الأحزاب التي كانت ولمدة أزيَد من ربع قرن تعيش في السرية وزعماؤها في الملاحقات والمنافي والتصفيات بدأت تنشط في العلن، الإسلامية منها والشيوعية والأمازيغية والعروبية، وقد بلغ عدد ستة وستين حزبًا، أكثر من أحزاب القرآن الكريم! وأنا في العاصمة لم أخبر أحدًا بعودتي، قلت سيبعث الجزائيون الأفغان في أثري مَن يقوم بتصفيتي، فيدهم طويلة ولهم خلايا نائمة بعيون مستيقظة في كل مكان. جددت تسجيلي في الجامعة، كنت أُريد أن أقطع علاقتي نهائيًّا بماضيَّ الجامعي السابق، غيَّرت التخصص من الحقوق إلى علم الاجتماع، أردت أن أتجدد، أن أحارب ما كان فيَّ.

عدتُ ثانيةً للعيش في نفس الإقامة الجامعية، مع ذلك لم أعثر على الساحة التي كنت ألتقي فيها بأخي مهدي بعد منتصف الليل ولا كرة السلَّة ملقاة في الوسط!

كلما استعدت بعض تفاصيل حياتي بكَابُل أشعر بارتياح عميق لهذه التجربة المعقدة والغريبة، اغتسلت روحي من كل إحساس بكراهية الآخر.

أخيرًا تحررت من صوت أخي ومن صورته ومن صورة أمي السعيدة لحظة التأكُّد من موت فلذة كبدها.

أريد الابتعاد قدر الإمكان عن السياسة وعن الجماعات الدينية.

بعد أن أديتُ واجبي تجاه موت أخي مهدي، أريد أن أؤدي واجبي تجاه الحياة، حياتي أنا، أن أعيش، أن أخرج من هاجس المهمة إلى فضاء الحياة المفتوح.

أريد أن أعَضَّ على تفاحة الحياة بأسناني كلها، أن أجربها بجسدي وبأحاسيسي وبأفكاري.

أشعر بجوعٍ ذِئْبيٍّ شَرِسٍ للحم الحياة الحيّ، الحرية.

أنظر خلفي، في مرآة أيامي وأقول: "لم أشعر للحظةٍ واحدةٍ بأنني ذقت مِلْح الحياة، ها أنذا أبحث عنها".

الحياة ليست خطًّا مستقيمًا، إنها مَمَرٌّ خاصٌّ جدًّا به منعطفات ومنحدرات وجبال وسهول، إنها كومة من الانقلابات والمراجعات والمفاجآت.

اليوم وللمرَّة الأولى أحلم.

بعد أن أتممت إجراءات تجديد التسجيل والحصول على غرفة في الإقامة الجامعية نزلت إلى وسط مدينة الجزائر العاصمة، شاهدت بناية البريد المركزي وساحة أودان والمقر الرئيسي لشركة الخطوط الجوية الجزائرية، بطابور طويل يمتد على عشرات الأمتار من البشر الواقفين على الرصيف، وبعضهم يتدافع قدام الباب الزجاجي والعاملون بالشركة يصرخون، كأن الجميع يريد أن يسافر، أن يهرب، أن يغادر، أن يختفي، مع ذلك شعرت بالشوارع جميلة ونظيفة، للمرَّة الأولى أنتبه بأن هناك أشجارًا بأغصان خضراء بديعة واقفة بأُبَّهة على الرصيف منذ قرابة القرن، وها أنا أرى الألوان الفاتحة

في الفساتين والأقمصة المعروضة في فيترينات المَحَالِّ على طرفَي الشارع، أرى نساء وفتيات لم أشاهدهن من قبل، جميلات وحزينات أو قلقات.

أتحرر نهائيًّا من بقايا ملامح وجه أمي السعيد لموت مهدي، لتخلصها منه، صوت أخي مهدي الذي اُغتيل لم يعُد يئنُّ في أذني إنه يغني، أتنفس، في هذا الشارع الرئيسي ديدوش مراد، أسترجع فجأةً حكاية مصطفى أوبختي وعشيقته سارَّة شوراكي، التي غادرت الأصنام مراهقةً مع عائلتها إلى جربة بتونس قبل الاستقلال بقليل، وأتساءل: "كَمْ يكون عمرُها الآن؟ هل يا تُرى تكون قد نسيت مصطفى أوبختي وتزوَّجت شابًّا وأنجبت منه كمشة أطفال تحرص على أن يحتفلوا بعيد خانوقا، وتروي لهم قصص جدهم المجاهد الشيخ مسعود في مدينتنا؟".

أحدق في فيترينة فأنسى حكاية سارة شوراكي.

أمشي دون هدف في المدينة وفي رأسي تمشي أشياء كثيرة وتتقاطع وتتجاذب وتتنافر، شيئًا فشيئًا أشعر وكأنني أكتشف نفسي ومعها ومن خلالها أكتشف هذه المدينة من حولي وفيَّ، أتصالح معهما، مع نفسي ومع المدينة، الناس تبتسم، أبتسم أنا أيضًا، ها أنا أتعلم فن الابتسامة ويحقُّ لي ذلك بعد كل هذا الغياب في بلاد الأفغان، تَعلُّم الابتسامة أصعب من تعلم معادلات في الفيزياء النووية، أصعب من تعلم الرمي بالرصاص الحي، وأمشي أصعد شارع ديدوش مراد حتى آخره، ثم أعود نازلًا فيه بعد أن أغيِّر الرصيف حتى البريد المركزي، أمُرُّ بالقرب من مدخل الجامعة المركزية، والناس تمشي كما أمشي، صاعدين وهابطين، مسرعين ومتراخين، مبتسمين وغاضبين وحيارَى، فجأة وللمرَّة الأولى شعرت برغبة غريبة جدًّا تصعد من أعماق اللاوعي، ما هذا يا إلهي؟

رغبة شيطانية.

أقف أمام مرآة فيترينة وأتأملني لأتأكد بأن هذا الذي يقابلني هو أنا، وليس آخَر غريب عني يسكنني أو يسكن معي في جسدي ويتكلم نيابةً عني في رأسي!

الحياة ليست خطًّا مستقيمًا.

أمشي في الشارع، أنا ولست آخر، يعود مصطفى أوبختي إلى ذاكرتي فأراني وأنا ألتصق بظهره قابضًا بقوة على خصره راكبَيْن دراجته الهوائية أَبُولُّو، ننزل في اتجاه البحر خلف الربوة المطلة على شاطئ بيدر، البحر الذي سرق خالي يونس، وأنا أستعيد لحظة مشاهدتي البحر للمرَّة الأولى، البحر بمائه وملحه وموجه وحكايته، لا البحر المرسوم على كتاب نصوص القراءة المدرسية أو في تلك الكتب التي كانت تقرأ لي منها السيدة جانين غروطو وهي تمرر أناملها الرقيقة المليئة بالنار على ظهري وعلى رقبتي، وأنا أستعيد تلك اللحظة اجتاحتني رغبة غريبة، رغبة في شرب كأس نبيذ!

أستعيدُ الآن مقطوعة من قصيدة المركب السكران لرامبو التي حفَّظتني إيَّاها السيدة جانين غروطو وشرحت لي معاني كلماتها المعقَّدة.

كأس نبيذ؟؟؟

نعم بي رغبة لكأس نبيذ كي أستعيد أنفاس جانين غروطو وضحكات مصطفى أوبختي النبيل، وهو يشرب من القِنِّينة مباشرةً ونحن جالسان على الرمل في حضرة البحر، قلبي يدق بشكل غريب، ساقاي ترتجفان، أيُعقل أن أفكر في شرب كأس نبيذ؟ أنا الذي ضيعت يد أبي الكبيرة من

يدي الصغيرة، انزلقت ونحن نغادر مسجد جامع اليهود بعد أن ضرب الزلزال المدينة، كان ذلك في وقت موعد صلاة الجمعة، أيُعقل ذلك وأنا الذي قضيت حياتي قبل أن أهاجر إلى أفغانستان في مسجد الحي الجامعي بين كتب سيد قطب ومالك بن نبي، والحصص التلفزيونية التي يقدمها الشيخ محمد الغزالي ودروس دينية يقدمها أشخاص غرباء قادمون من البلدان العربية، أيعقل أنا أن أشتهي كأس نبيذ! هناك غريب يسكنني يشاركني هذا الجسد وهذا الرأس هو من يرغب في الكأس لا أنا، من أنا ومن الغريب الذي يقيم فيَّ؟ وأتأمل شكلي ثانية المنعكس في مرآة فيترينة أخرى، ويقابلني وجهي أنا وليس وجه شخص آخر! إذن أنا الذي يفكر في كأس النبيذ وليس أحدٌ غيري!

الحياة ليست خطًّا مستقيمًا، الحياة تشبه مسار قط هارب يمشي بطُرْقة حلزونية.

كنت أمشي وأحاول أن أقنع نفسي بأنني أنا هو أنا وليس هناك شخص غيري يكون في غفلة مني قد سكن هذا الجسد واستولى على هذا العقل، وتشهَّى كأس نبيذ.

هي جانين غروطو قد أكلت مخي الصغير وأثرت فيَّ ولم يظهر تأثيرها إلا الآن، ظهر في هذه الرغبة الغريبة.

مَن يسكنني؟

أتلمَّس بعض أوراق نقدية أمريكية في جيبي وأتذكَّر المهرب الأفغاني الذي اسمه عبد الجبار أو عبد الغفار، دكتور في الفيزياء الفضائية وصاحب

الصوت الجميل وهو يؤدي أغاني فلكلورية بشتونية بإيقاع هادئ مثير للشجن، ونحن نقطع الطريق السيار ما بين كَابُل ومشهد الإيرانية.

لم أترك لنفسي فرصة التردد أو التراجع عن هذه الرغبة، دخلت مطعم، حانة لا براس La Brasserie de la fac الحانة، المطعم الشهيرة الموجودة مقابل باب الجامعة المركزية، كنتُ قد سمعت الكثير عن هذه الحانة من قِبل روَّاد قاعة الصلاة بمسجد الحي الجامعي، إنه المكان الذي تلتقي فيه زُمَر المثقفين الفرنكفونيين الذين كنا نُكفِّرهم، وننعتهم بأحفاد فرنسا أو بمناضلي "حزب فرانسا"، وكان البعض يطالب بتصفيتهم وإخراجهم من البلاد. في مثل هذه الساعة الحانة - المطعم لا براس - غاصَّة بالزبائن، نساءً ورجالًا ومن كل الأعمار، الجو حميمي وهادئ وكأن الجميع يعرف الجميع، الجميع يُحيِّي الجميع باحترام، مثقفون وإعلاميون وجامعيون وإطارات سامية في الدولة، نقاشات في السياسة والأدب والسينما وأمور الجامعة، هناك في آخر القاعة، شاعر يقرأ قصائد بالفرنسية، صوته يشبه صوت مُغنِّي البلوز، يقف منتصبًا فوق الطاولة، والنادل يحاول أن يساعده كي لا يسقط، وهو يضحك والنادل يبتسم، بيده كتاب يقرأ منه وبالأخرى كأس نبيذ، وبعض الزبائن يحاولون أن يُهدِّئوا من حماسه، وبعضهم يحرضه على ذلك وأكثر، الجميع مبتهج ومتجاوب مع قراءته البديعة.

يقول له أحدهم: "انزل يا جمال، انزل".

ويقول له الآخر: "ارفع صوتك يا جمال، إننا لا نسمع".

عرفتُ لاحقًا بأن الشخص الذي كان يقرأ القصائد هو الشاعر والمجاهد جمال عمراني صديق جان سيناك.

كان الجو أكبر مني بكثير، شعرت بنفسي غريبًا في المحل، ومثل ذلك شعر الشخص الذي يسكنني، فلم تَكُن لي ولا له الشجاعة على البقاء، فغادرت. في الشارع تساءلت بيني وبين الشخص الذي يُقاسمني هذا الرأس وهذا الجسد: لماذا لا نبحث لنا عن بار شعبي بسيط لتحقيق الرغبة؟ انعطفتُ من شارع ديدوش مراد نازلًا باتجاه شارع ميسوني، وأنا أقول "مَن دخَّن الحشيش مرارًا لا يخشى من شرب كأس نبيذ تصنعه وتبيعه الدولة الإسلامية".

في هذا البلد الغريب ثلاثة أشياء متوافرة بكثرة، الصلاة والتمر والخمر.

عثرت على بار صغير بباب نصف مفتوح، في زقاق فرعي يتقاطع مع شارع فيكتور هيغو، عليه حارس مفتول العضلات بسالف ينزل كذيل خلف ظهره، موشوم الذراعين، لا يكلم أحدًا، أردت أن أدخل، نظر إليَّ باستغراب وكأنني في المكان الخطأ، ثم خاطبني بالفرنسية حتى دون أن ينظر إليَّ: "Vas te coucher bébé".

واصلتُ طريقي وأنا أحدث زوج أختي مصطفى أوبختي عن رغبتي العجيبة في كأس نبيذ، وهو يضحك مني، كان يقهقه في رأسي قائلًا: "مَن يخشى البحر لا يشرب النبيذ".

عند منتصف النهار تمامًا يستيقظ شيطان القيلولة في شكل ديك أحمر الريش، يدور القرى ويدخل الغُرَف من الفراغات التي تحت الأبواب، وحين يستيقظ شيطان القيلولة أتشهّى جسد الأنثى؟

أنا شيطان القيلولة بشحمه ولحمه!

كيف ساقت الظروف هاجَر شريفي في طريقي.

الغريب للغريب حبيب.

هاجر شريفي طالبة غريبة الأطوار، وربما هذه الحالة الغريبة والغامضة فيها هي التي جعلتني أُشدُّ إليها، هناك أشياء لا تُفسر تجعل الأرواح تتجاذب أو تتنافر، فهاجر شريفي ليست بالفتاة الجميلة بل هي أقرب إلى الفتاة الدَّميمة.

أحبُّ الأشياء القبيحة التي ينفر منها العامة.

منذ قيلولة لقائنا الأول التي تناولنا فيها معًا كأسَيْ عصير برتقال في نادي الطلبة عبد الرحمن طالب لصيق بناية الجامعة المركزية المطل على الشارع الرئيسي، كأسا عصير بسرب من الذباب يحوم حولهما، أحببتها، وجهًا لوجه وشيطان القيلولة يراقبنا من الداخل، من داخلنا، تأملت أناملها التي أكل أطرافها صابون الغسيل وأظفارها مُقلَّمة بطريقة غير مرتبة حتى لتبدو

وكأنما قضمتها بأسنانها، تحرك أناملها حول كأس العصير راسمةً دوائر متتالية كأنما تفكر في طريقة إنقاذ غريق ساقط في قاع الكأس الذي تشرب منه، غريق يشبه خالي يونس، كانت ملامح وجهها أمام ضوء النهار القوي القادم من النافذة تمنحها عمر امرأة في الخمسين.

ها أنا أسقط غريقَ كأسِ عصيرٍ بدلًا من الغرق في البحر كما كانت تتصور ذلك أمي التي سعدت لموت أخي مهدي.

لم تكُن هاجر شريفي جميلة ولكنها كانت مليحة، بها سِرٌّ ما، مِسْرَارة كما كانت تقول حنة نانا عن أختي نوارة، مؤثرة بقوة على مَن يجالسها، تفرض الاستماع إليها، فتاة ذكية، كما يبدو من حديثها، قارضة كتب الفلسفة وعلم النفس، تقرأ بالفرنسية أكثر ما تقرأ بالعربية، تتكلم العربية الفصحى حتى وهي تخاطب النادل الأمازيغي الذي استغرب لسانها ولم يعلق، وهي تحدثني لا تقول عبارة إلا وطعَّمتها بقول لأفلاطون أو كانط أو سبينوزا أو جاك دريدا وفرويد وبياجي، وحتى ابن سيرين لا تُخطئه ولا تنساه، لم أكُن أفهم كل ما تقوله وكنت أوافقها وأدَّعي أنني أفهم تحليلاتها الغارقة في الغموض.

هاجَر شريفي لا تحب الموسيقى وتكره السياسة، تعدُّ الموسيقى ضجيجًا يفسد الاستماع إلى اللغة ويعكر المعنى.

في وحدتي هذه، أصبحت أترقَّب لقاءاتها وأتمنى الجلوس إليها لأنني لا أفهمها، ممتع أن تجلس إلى شخص يحدثك لساعات وأنت لا تفقه شيئًا مما يقوله، وتحرك رأسك كما وأنك تفهم كل تفصيل، هي تجربتي مع هاجر منذ لقائنا الأول.

تقيم هاجر شريفي في خطاب الفلسفة والسيكولوجيا أكثر ما تسكن في جسدها أو في الحياة.

"صغيرًا كنتُ أحبُّ الأصوات الطبيعية الصادقة التي لا أفهمها، ولا زلتُ أحبها حتى الآن، أحب نهيق الحمير في زريبة جارنا الحاج بوقادير الذي يسكن على بُعد زنقتين عن بيتنا، نهيق الحمير أجمل من صهيل الخيل، الحمار صادق في نهيقه، بديع فيه، وكنت أحب أيضًا صوت مؤذن الحي السي العالمي، صوت يدعو للشجن والإيمان، كان يرسله للمؤمنين من أعلى منارة المسجد الصغير المتواضع الدافئ دون استعمال مُكبِّر الصوت المتوحش، وكان يحلو لي الاستمتاع به عند الفجر، كنت أفتح عينيَّ في الظلام وأستمع إليه بشعورٍ غريبٍ ما بين الخوف والسعادة".

حين رويتُ لهاجر شريفي حكاية عشقي لهذين الصوتين، على الفور قدمت لي محاضرة عن تحليل الأحلام عند فرويد، وظلت كلما التقينا إلا وعادت لحكايتي وأعطتها تفسيرات جديدة، لقد أصبحت في حضرتها وبين يديها مريضًا نفسيًّا ومُعقَّدًا ووحشًا حقيقيًّا.

كلما رأيت هاجر شريفي تنزل من حافلة نقل الطلبة أين كنت أنتظرها عند الموقف الأخير، أتخيلها وكأنها خارجة للتوِّ من قصص الكتب القديمة التي تتحدث بغموض عن الفلاسفة والحروب والفروسية أكثر ما هي قادمة من أسرتها البسيطة المقيمة في حي الحراش الشعبي.

كنتُ أحبُّ الاستماع إليها لا لكي أفهم أمرًا ولكن لأنسى جملة من الأصوات الغريبة التي تتقاطع في رأسي، كانت أحاديثها منقذة لي.

وأنا أستمع دون أن أفهم كلام هاجر شريفي بدأت أسترجع صورة

الشيخ سليمان الأعور الجزائري الأفغاني مُمَدَّدًا في دمه النازف من رأسه.

ثلاث رصاصات حيَّة وموت مُؤكَّد.

على الرغم من جرح اليُتْم المبكر، كانت هاجر شريفي تلبس الابتسامة، تقاوم بصمت وفلسفة كابوسًا يؤرقها عاشته مع زوج أمها قاسم عزيز الذي يشتغل بائع الدجاج المشوي على الجمر، قضى في هذه المهنة أكثر من ثلاثين سنة، ثلاثون سنة من ذبح وترييش وشواء الدجاج، في كل الفصول لا يُرى إلا واقفًا محدقًا في سفافيد الدجاج التي تدور أمام الجمر، يراقب درجة الطهي والشواء، تعرَّف إلى أمها المطلقة كزبونة مفضلة ومداومة تُحبي لحم الدجاج بطريقة شَرِهَة، يختار لها دجاجة يعتني بتجميرها عنايةً خاصةً يركب على السفود في الموقع الذي يجعل شواءَها مميزًا حسب قربها أو بعدها من النار: "هي دجاجة لالة باتو يجب أن تنضج على نار هادئة".

واستوت لالة باتو على نار قاسم عزيز قبل أن تستوي دجاجتها.

" حين تزوج قاسم عزيز أمي باتو، طلب مني أن أشتغل معه في محل " شواية الدجاج الملكي" ، في البداية كنت مكلفة بعملية ترييش الدجاج، كنت أقضي يومي أنتف الريش من دجاج مذبوح يتساقط الدم من حنجرته، أُغطِّسه في برميل ماء مغلي حتى يسهل ترييشه، كنت سعيدة بهذا العمل لكن مع الأيام أصبح يُقلقني، أنام فلا أرى سوى رؤوس الدجاج مقطوعة، دجاج في ماء مغلي، دجاج يدور في سفود أمام نار جمر...

كانت أمي تشتغل موظفة في البريد المركزي، مراقبة للصكوك البريدية، وكلما سئلت عن مهنة زوجها تقول: " إنه تاجر استيراد وتوريد علف الأنعام" .

كانت أمي باتو واسمها الحقيقي باتول مصابة بعقدة السِّنّ، ترفض

عمرها، منذ أن بلغت الثلاثين لم تحتفل ولو لمرة واحدة بعيد ميلادها، وتصرح للجميع بأنني أنا هاجر أختها الصغرى ولست ابنتها، رَفعتْ دعوى قضائية أمام المحكمة الإدارية بالعاصمة لتغيير تاريخ ميلادها، وهو ما حصلت عليه بعد دفع غرامة معتبرة.

هكذا أصبحت أمي أصغر مني سِنًّا على الأوراق، كانت سعيدة بهذا الانتصار عليَّ والذي هو انتصار على العمر، وكان يحلو لها أن تعرض في كل مناسبة وبغير مناسبة على بطاقة تعريفها الوطنية كي تُبرز تاريخ ميلادها أمام زملائها وزميلاتها في العمل".

تُعجبني هاجر شريفي حين تشرع في تفكيك عُقَد أمها، وكأنما هي مُمَدَّدة على سرير اعتراف مريضة نفسية، كانت ترى الجميع وكأنهم في مستشفى المجانين بمَنْ فيهم أنا.

لست أدري هل أحبُّها أم أُشفق عليها؟

ربما حكايتي عن حبي لنهيق الحمير وصوت الإمام البديع هو من جعلها تقترب مني، مرات كنت أقول: "إنها ترى فيَّ شخصًا عليها مسئولية معالجته، ولا علاقة لها بأحاسيس الحب كما يحدث أن أتخيل ذلك، أنا الغبي الذي لم يقرأ الفلسفة وعلم النفس".

"يوم أدركت باتو سِنَّ اليأس، استمرت على عادتها محاولةً مخادعة زوجها السي قاسم الشواي، فمع نهاية كل شهر، تفتعل لذة آلام نزول دم العادة الشهرية، علامة الخصوبة، تضع الحفَّاظة القطنية في المكان المناسب، تتفقَّدها بعد كل ساعة، تسرع إلى بيت الراحة، تختفي قليلًا لتعود بوجهٍ أصفر، تتمدَّد فلا يأتيها نوم ولا ألم، وتشرب القهوة كثيرًا، ومع تأكُّد انقطاع

الدورة الدموية نهائيًا بدأت في التدخين خفية عن زوجها، وتوقفت عن أكل لحم الدجاج المشوي" .

"أُصيبت أمي بفوبيا الشك، تشك في تصرفات زوجها قاسم عزيز تجاهي، وتقرأ بريب جميع حركاته ونظراته تعتقد بأنه سيُرِّيشها مثل دجاجة ويُدخلها في سفود ويضعها تُشوى أمام النار ويبيعها لأول مُشترٍ، وكانت تفتش جيوبه، ويحدث أن تتصل ببعض أرقام هواتف تعثر عليها في أوراقه، وإذا ما كان الرقم لامرأة تُسمعه ما لا يسمع، وتضطره لمعاودة مكالمة السيدة وهي بمحاذاته كي تتأكَّد من أن صاحبة الرقم هي ليست أكثر من زبونة أوصت على دجاجة مُحَمَّرة" .

شيطان القيلولة يسكنني يخرج من حركات شفاهها ومن أصابعها الخشنة التي نتفت ريش الدجاج أزيَد من عشر سنوات.

"كنت أشعر بأن باتو تريد أن تكون مثلي، تكره العمل في مراقبة الصكوك البريدية، فهي تحلم أن تذهب إلى الجامعة مثلي، تجلس في نادي عبد الرحمان طالب مثلي، تشرب عصير البرتقال الوطني أو قهوة معصورة وتدخن سيجارة في الهواء الطَّلْق لا في المرحاض، وتحدث الطلاب مثلي، تختار مقعدها في المُدَرَّج إلى جانب الطالب هذا أو ذاك مثلي، تستمع لمحاضرة أستاذي المفضل عليّ الكنز أستاذ علم الاجتماع الثقافي والمغرم بلوسيان غولدمان وجورج لوكاتش ورولان بارط مثلي.

كل صباح قبل أن تخرج لعملها تردد عبارتها الشهيرة: الناس تصرف شيكات بالملايين وأنا أراقب صحة الأرقام عليها وأعد عدد الأصفار!" .

كانت علاقة هاجر شريفي بزوج أمها قاسم الشوَّاي غامضة ومرتبكة،

يحلو لها حين لا تتحدث إليَّ في الفلسفة والفلاسفة أن تُعرِّج على قصة زوج أمها، يبدو حديثها عنه وكأنها يخفي إحساسًا غريبًا، يختلط فيه الاحترام بالخوف، أو شيء ما يشبه ذلك، وربما هذا ما أقلق أمها أيضًا، وشرعت في التخطيط لترحيلها من البيت قبل أن يحترق على آخره، فالنار التي يُشوى بها الدجاج قد تصل البيت فتشوى بها القلوب والأجساد.

ما كان يزعج هاجر في زوج أمها قاسم الشواي هي رائحة الدجاج التي تعبق منه، مع ذلك كانت تجد فيه الرجل الجاد والمثابر، لذا كانت ترى بأن الرجل الذي يُسعدها مستقبلًا في حياتها يجب أن يكون شبيهًا بزوج أمها، في الابتسامة والحضور والعمل وفن ترييش الدجاج والتعامل مع النار.

مع مرور الأيام كنت أشعر بأنها تبحث عن صورة زوج أمها فيَّ، وكلما أبديتُ بعض ما يحيل عليه في عيونها اقتربت مني أكثر، وكلما بدر مني تصرف لا يُذكِّرها به ابتعدت عني وقاطعتني يومًا أو يومين.

لا تردد في القول بأنها معجبة بقصة حياة قاسم الشواي أكثر من إعجابها بشخصه وعمله ووفاته لأمها، فعلى الرغم من أنه كان أُميًّا لا يعرف قراءة سوى الأرقام، فإنه كان فَخُورًا بشجرة عائلته التي يقول إنها تنزل من نطفة الرسول الأعظم - صلى اللّه عليه وسلم -، لذا كان يسافر عشيَّة ليلة القدر من كل رمضان إلى مسقط رأسه في قرية المالحة ليستمع إلى شيخ زاوية القرية السي عبد الجليل الكبير، يستعيد شجرة النَّسَب التي يحتفظ بنسخة أصلية منها في محفظة من جلد الغزال الأصلي، لا يتسرب إليها غبار ولا رطوبة ولا يد عابثة، نسخة مزوقة مكتوبة بخط أندلسي بديع وبحبر صيني لا يحول، يحدث مثل هذا الاحتفال مرة في السنة وبمناسبة شهر رمضان المبارك وبالضبط في ليلة القدر، يجتمع أبناء القبيلة قادمين من الضواحي ومن المدن

البعيدة حول الشيخ عبد الجليل الكبير القيِّم على الزاوية، حيث تُنصب موائد عليها أكل كثير وتَمْر بأنواع كثيرة وحلويات تقليدية متنوعة، وصحون العسل الحُرّ الذي يُشترى خصيصًا من نَحَّال لم تطأ قدماه يومًا المدينة، وصينية نحاسية كبيرة عليها كؤوس الشاي بالنَّعْنَاع، حين يكتمل الجمع من الأجداد والأبناء والأحفاد ذكورًا وإناثًا، وبعد صلاة التراويح التي تُقام في فناء الزاوية بين أفراد القبيلة، يتقدم شيخ الزاوية مرتديًا جلَّابة مصنوعة من الوبر الأصلي والتي يلبسها مرة واحدة في السنة وذلك لأداء طقوس فتح المحفظة الجلدية العجيبة، تحت عيون الحضور المندهشة، وبحركات موزونة دقيقة، كأنها أنامله تعزف على أوتار حساسة لآلة موسيقية نادرة، يُخرج مخطوطة شجرة العائلة من محفظتها الجلدية، ويشرع في قراءة أسماء سلسلة الأجداد المتصاعدة جيلًا بعد جيل، اسمًا بعد اسم، حتى يصل إلى اسم فاطمة الزهراء بنت رسول اللّه - عليه الصلاة والسلام - وزوجة عليّ - كرَّم اللّه وجهه -، والتي يُروى عنها في بعض كتب السيرة بأنها كانت تلد من جنبها وليس من المكان الذي منه تنجب النساء جميعًا منذ بداية الخليقة، ومع ذِكْر كل جد في السلسلة يُهلِّل ويُكبِّر الجميع.

في مثل هذه المناسبة، تُطفأ المصابيح الكهربائية وتُشعل بديلًا عنها شموع تقليدية تنبعث منها روائح عطرة، رائحة الفراولة وحَبّ الملوك والياسمين والخزامى والنعناع، والمنصوبة في شمعدانات من نحاس أصلي موزعة على أركان الصالة.

تضحك هاجر شريفي وهي تقصُّ حكاية قاسم الشواي زوج أمها، وتعلق:

- كلما قصَّ علينا حكاية حفل شجرة النَّسَب هذه، سألته ما بين الجد

والهزل: لماذا شجرة نسب العائلة هذه لا تذكر أسماء النساء وهُنَّ اللواتي يلدن، هن حقيقة الانتماء لا الرجال، لماذا يفتخرون بالانتماء إلى فاطمة - رضي اللّه عنها - ويتحاشون ذكر جداتهم الأخريات؟

تسحبني أمي إلى خارج الغرفة، قائلة: لقد خرب أفلاطون وفرويد عقلك، عيب هذا الكلام في حضرة قاسم عزيز وهو بمثابة أبيك.

كلما تحدثت إلى قاسم عزيز الشواي أشعر بشيء غامض يُشوِّش داخلي، يجمِّرني، مرات أقول إن أُمِّيته أبقت عليه إنسانًا صادقًا شفافًا.

الواقع إنني كنت أنتظر عودته من الاحتفال السنوي بشجرة النسب بشغف كبير؛ ففي هذه الليلة يتحول قاسم عزيز الشواي إلى رجل وَرِع ويتغير فيه كل شيء، جلسته ونظراته وصوته ولون عينيه وطريقة شربه الشاي وتختفي منه رائحة الدجاج.

تحكي هاجر شريفي:

"كانت ليلة صيف ساخنة ورطبة، ليالي الصيف قصيرة جدًّا، هذا العام رمضان جاء في الصيف، بعد أن انتهى قاسم الشواي من رواية تفاصيل قصة الاحتفال بشجرة النسب وعادت رائحة الشواء إلى جسده، انسحبت إلى سريري، أطفأتُ المصباح بعد أن أعدتُ قراءة بعض مقاطع من محاورات أفلاطون وفصل من سيرة معاناة سبينوزا مع المتطرفين اليهود؛ حيث نجا من محاولة طعن قام بها أحد المتدينين المتعصبين، ترجمة جديدة ومُنقَّحة ومُهمَّشة باللغة الفرنسية، أحدِّق في السقف وأنا أحاول ترتيب فوضى الأمور المختلطة في رأسي، وإذا بي أحس وكأن أحدًا غريبًا اقتحم عليَّ غرفتي، بعد لحظات شعرت وكأن جسدًا غريبًا تسلل تحت الغطاء الصيفي الخفيف على سريري، إلى جنبي، من رائحة الشواء المقرفة أدركت

بأنه عزيز قاسم، أردت أن أصرخ لكن لساني تحول إلى ما يشبه الخشبة في فمي، احتضنني بقوة، حاولت أن أقاوم أن أدفعه خارج السرير، كانت أنفاسه متقطعة، قبَّلني على عنقي، هددته قائلة: سأنادي على باتو، قبَّلني على فمي، قفزت من السرير وطلبت منه بإلحاح أن يغادر الغرفة وإلا ستكون فضيحة في الحي، احتضنني مرةً أخرى وهو يرتجف ويبكي، قبَّلتُه على وجنتيه ونام بين ذراعَيْ.

أقبلت باتو، وجدتني أتصبَّبُ عَرَقًا، لباس نومي الصيفي الخفيف مُبلَّل، صحوتُ، كان زوج أمي قاسم عزيز الشواي يشخر في الغرفة المقابلة التي عادت إليها أمي بعد أن اطمأنت عليَّ.

شعرت بإحساس غريب وأنا أستعيد هذا الحلم وأمي باتو تناولني كأس ماء بارد.

وتساءلت: هل إني أحبه أم أشتهيه أم أخشى ما يُبيِّت له؟

بعد هذا الكابوس المزلزل قررت مغادرة المنزل والانتقال للعيش في المدينة الجامعية، بمجرد أن علمت أمي باتو بقراري هذا غمرتها السعادة، وكأنها كانت تدرك جيدًا ما يُهيِّئ له عزيز قاسم كي يعلقني مع دجاجه في السفود.

غادرتُ البيت وأنا لا أعرف هل إني أحب زوج أمي أم أخشاه، المؤكد أنني كنت أكره رائحة فضلات الدجاج المنبعثة من جسده ومن رِجْلَيه خاصة.

وكان حميميد فليتا في طريقي بالجامعة وهو عائد من أفغانستان.

هي تتحدث في الفلسفة والسيكولوجيا وأنا مقفل على صوت زغرودة ثلاث رصاصات.

أنا الخارج من مغامرة إلى حيرة، كنتُ أبحثُ عن شخص قادر أن يكون لوحَ إنقاذٍ لغريق، أن يكون مصفاة لأوجاعي المتراكمة.

أنا يونس أنا الغريق.

لأنني لم أكن أفهم ما تقوله من كلام في السيكولوجيا والفلسفة فقد تجرَّأتُ كي أحكي لها بعضًا من أوجاعي.

حين تكون مع الغريب تجد الحرية في التعرِّي أمامه.

حين رويتُ لها قصة اغتيال أخي مهدي بتفاصيلها، وكيف دُفنت جثته تحت أنقاض الزلزال الذي ضرب المدينة وقد جيء بها من العاصمة ليلًا، وكيف أنني دخلت الجامعة نفسها التي اُغتيل فيها أخي بعد ثلاث سنوات من موته وقررت البحث عن قاتله والانتقام منه، فانتسبت دون تردد للمجموعة الطلابية الإسلامية المتطرفة التي اغتالته، وبأمرٍ منهم سافرت حتى أفغانستان، وكيف ظهر وحش في داخلي يسكن معي جسدي، لأجل غاية الانتقام كنت مُستعدًّا أن أهاجر حتى جهنم، وتحملت ما تحملته من مضايقات ومحاولة اغتصاب من جماعة "الشيخ سليمان الجزائري الأفغاني"، استنادًا إلى فتوى أصدرها الشيخ سليمان الجزائري والقائلة بجواز ممارسة اللواط مع أحد المجاهدين، للتخفيف من الضغط النفسي ومواصلة الجهاد دون الانشغال بأمور الجنس السخيفة، وكان يقول ويؤكد بأن للمجاهد المفعول فيه أجرًا عظيمًا يفوق أجر الفاعل، إنه جهاد باللواط، واجهتهم

وعيني على سلاحي الكلاشينكوف، وبرأسي فكرة واحدة هي: الانتقام لأخي مهدي وتصفية زعيم هذه الجماعة الشيخ سليمان الأعور الجزائري الأفغاني، فهو المُدبِّر الذي أمر باغتيال أخي.

وللمرَّة الأولى كنتُ المتكلم وهي المستمعة حتى اعتقدت أنها نسيت أفلاطون وسبينوزا ودريدا وهابرناس ومفضلها سيغموند فرويد...

ونسيَتْ هاجر شريفي عزيز قاسم الشَّوَّاي الذي حاول أن يغتصبها في الحلم.

نظرتُ إليها وهي تهمُّ بمغادرة النادي حتى دون أن تشرب قهوتها كاملة، لكني أبقيتها قائلًا: "اسمعي الحكاية حتى آخرها"، تراجعت خطوة، وضعت كتاب الأخلاق لسبينوزا على الطاولة وهي لا تزال واقفة، قلت لها: "كنت سعيدًا، أسعد خلق اللّـه في التاريخ، في تلك اللحظة التي أطلقت فيها النار على الشيخ سليمان الأعور الجزائري الأفغاني، ونحن على الجبهة في أرض جبلية والأعداء الجمهوريون والشيوعيون على مرمى حجر، كان مثل النذل يترجَّاني أن أسامحَه، أن أعفوَ عنه، يبكي ولحيته الطويلة ترتجف، بال في سرواله وهو يطلب مني ألَّا أطلق النار عليه، يحاول أن يُقبِّل قدمي كالكلب، بركلاتٍ أدفع به بعيدًا عني، كان القرار محسومًا في رأسي، قرار اتخذته يوم رأيت أمي سعيدةً لموت أخي مهدي، أرأيتم أُمًّا سعيدةً بوفاة ابنها البِكْر، قرار جئت به من الحي الجامعي، لا رجعة فيه.

وأطلقت النار، ثلاث رصاصات تكفي لامتلاك السعادة من جديد، انفجر رأسه وطار المخ الأبيض غير بعيد مني.

تسرع هاجر شريفي نحو المرحاض لتتقيَّأ، أتوقف عن مواصلة تفاصيل الحكاية وأشرب قهوتي بتلذُّذ أجدها حلوة كالعسل مع أنني لا أضيف السكر إلى قهوتي السوداء أبدًا.

مرات أقول كان عليَّ أن أقتل أمي أيضًا، ثم أتراجع وأبكي كثيرًا.

عادت هاجر وجلست في مكانها ساكتة، وجهها مبلل وعنقها أيضًا، ضاع منها خطابها عن فرويد وفكرته عن عقدة الليبيدو وعن اللّٰه وعن الطبيعة وعن الجنون، بعض قطرات الماء تنزل بهدوء على عنقها، فتثير فيَّ رغبة جنسية عارمة، للمرَّة الأولى تثير فيَّ هاجر مثل هذا الإحساس، فحديثها العالِمِ لم يترك لي يومًا فرصة التفكير فيها كأنثى، كنت أراها على شكلِ كتابٍ صوتيّ لا يتوقف عن الكلام أو ككومة أفكار تجلس على كرسي بارد.

نظرَتْ إليَّ نظرةً عميقةً وكأنها تراني للمرَّة الأولى، قائلةً بنبرة فيها مثل النحيب: "تسافر يا حميميد حتى أفغانستان كي تنتقم لأخيك"، ثم عانقتني وقبَّلتني على عنقي، تلك كانت أول قبلة دافئة منها، وشممتُ فيها رائحة الدجاج المشوي.

حين غادرنا النادي وضعت يدها في يدي فشعرت بها مثل يد أبي التي ضيعتها لحظة هروبنا من مسجد جامع اليهود وقد ضرب الزلزال المدينة، نمشي معًا في ساحة الجامعة فأشعر بها وكأنها تحررت من كابوس عزيز قاسم الشواي ومن فرويد وسبينوزا وجان بياجي.

أعتقد الآن بأنني أسكن رأسها وحيدًا، أسكن أفكارها المبعثرة، شعرت

بالسعادة بانتصاري هذا عليها، ظلَّتْ صامتة، لم تعلِّق، اكتفت بملاعبة خصلات شعرها المجعَّد أعلى أُذُنها اليمنى.

ثلاث رصاصات في رأس سليمان الأعور حررتني وحررت هاجر شريفي أيضًا.

ومشينا للمرَّة الأولى في شارع ديدوش مراد، كنا صامتَيْن، الجو ماطر قليلًا، العاصمة جميلة تحت المطر.

الحكاية تُسكِت الفلسفة والتحليل النفسي.

قلت لهاجر وهي صامتة:

"لا طير ولا بشر".

... وأخيرًا اهتديتُ إلى الطريق الذي يوصِّلني، تمكَّنتُ من الوصول إلى البيت رغم الأنقاض والهزات الارتدادية التي لم تتوقف وكأنما الأرض ترقص من تحت قدميَّ الصغيرتين وفمي لا يزال مليئًا بالتراب والصراخ والعطش، حين وصلت إلى زنقة سليمان الطراح لم أجد بيتنا في مكانه، اختفى في الغبار والفوضى، الجدران ابتلعتها الأرض، والسقف نزل فوق رصيف الشارع، وأمي لا تزال تولول وقد بُحَّ صوتها، وبعض المحيطين بها يناولونها قِنِّينة ماء، والناس حيارَى كأنما في يوم النشور، بحثت عن أختي حميدة، لم تَكُن هناك، أختي نوارة تجري في كل الاتجاهات تصرخ وتنادي باسمها عاليًا، ولا جواب، أصوات أخرى تنادي على أسماء أبنائها وبناتها وهي واقفة مرتجفة على أطراف الأنقاض المخيفة، بعضهم يحفر بأصابعه، وبعضهم بأدوات البَسْتنَة الخفيفة التي توافرت، الجميع يبحث عن الجميع، وبين الفَيْنَةِ والأخرى يعود الرعب ثانيةً فيهوِي ما ظل واقفًا من بعض جدران بيوت هشَّة جرَّاء الهزات الارتدادية القوية التي لا تتوقف.

الناس تمشي فوق زلزال.

الناس بها زلزال.

زُلزِلت الأرض زلزالها.

قالت لي نوَّارة بصوت ذبيح: "أين أبي؟"، قلت لها: "ضاعت يدي من يده ونحن نغادر مسجد جامع اليهود الذي انهار جزء منه ثم رأيته كالشبح يجري حافي القدمين صارخًا، وقد طار عقله وكان بعض المارَّة يجرون خلفه وقد عرفوه"، "وأين حميدة؟" سألتها، قالت: "خرجت لتلعب مع رفيقاتها وفي رمش البصر اختفت تحت الأنقاض، بلعتها الأرض".

تذكَّرت تعبير أمي ردًّا على أبي حين أخبرها باسمينا اللذين اختارهما لنا، ونحن مغادرون عيادة الولادة: "أفضل الأسماء ما حُمِّد".

تقول طفلة الجيران مصدومة وهي تروي ما حدث لصديقتها حميدة: "كنَّا نلعب ها هنا، بحثت عن معنى (ها هنا) فلم تجد المكان الذي تقصده، لعبة الغُمَّيْضَة، كان دوري أن أغمض عيني وهي مَنْ تختفي، أغمضتهما بكل أمانة بأن وضعت عليهما راحتَيْ كفِّيّ، لم أكُن أرى شيئًا غير الظلام، أنا لا أغش، سمعت صوت خطواتها كالفراشة وهي تبتعد عني بحذر كي تجد لها ركنًا تخفي فيه جسدها الصغير كما تمليه قوانين اللعبة، وإذ أنهيت العَدَّ بصوتٍ عالٍ من واحد إلى عشرة حررت عيني بأن رفعت عنهما راحتَي كفَّي، كانتا في الظلام وانتقلتا إلى الظلام، وجدت العالم من حولي خرابًا فظيعًا وأنا وسط الزنقة التي لم تعُد زنقة وحيدة في الغبار والتراب، والصراخ الذي تعالى من كل الجهات، لا أراني، المنزل الذي لجأت إليه

حميدة حسب اتجاه صوت خطواتها كان مستويًا بالأرض تقريبًا، جزء منه دخل في خندق انفتح وما كان، صرخت خائفة، أناديها "حميدة، حميدة، حميدة"، أجري بحثًا عنها، الأرض لا تزال ترقص، خفت، هربت دون أن أعرف في أي اتجاه أهرب، الرؤية مظلمة، غبار كثيف وصراخ وعويل بشر ونُباح كلاب ومُواء بعض القطط، وصَفَّارات إنذار تنطلق من بعيد، كلما صرخت: حميدة، حميدة، حميدة امتلأ فمي بالغبار وشعرت بالاختناق".

كانت أمي واقفة أمام خراب البيت الذي أشارت إليه الطفلة صديقة حميدة، تنادي عاليًا اسمها، حتى بُحَّ صوتها، وفجأةً وصلت وحدة من الحماية المدنية وحوَّطت البناية المنهارة بشريط أحمر، وبدأت عملية البحث.

في صباح اليوم التالي أخبرنا أحد الجيران بأنه شاهد بأُمِّ عينه رجال الإنقاذ من الحماية المدنية المرفقين بالكلاب المدربة، يُخرجون الطفلة حميدة من تحت أنقاض أحد البيوت القديمة في زنقة سليمان الطراح، لم يَكُن البيت سوى بيت آل شوراكي الذي ظل مهجورًا منذ أن غادروه قبل استقلال البلاد، كانت في حالة ما بين الموت والحياة، وتم نقلها في سيارة إسعاف مباشرة إلى الملعب البلدي، حيث كانت هناك طائرة مروحية عسكرية طبية رابضة مجنَّدة لنقل الجرحى إلى أحد المستشفيات العسكرية بالعاصمة.

كانت أختي نوارة وأمي سعيدتين لهذا الخبر الذي طمأنهما على أن حميدة لا تزال على قيد الحياة وأنها ستعود إلى البيت بمجرد تلقِّي العلاج المطلوب، ونظرًا للفوضى واختفاء الأب لم يتمكن أحد من أفراد الأسرة من البحث عنها إلا بعد مُضيّ أسبوع كامل، ولم يتصل أحد من الحماية للإخبار عن حالها، فكان أن توجهت أمي وأختي نوارة وزوجها مصطفى أوبختي إلى

العاصمة، حين وصلوا إلى المستشفى العسكري كما قيل لهم، سألوا الإدارة عن طفلة اسمها حميدة فليتا تم إنقاذها من تحت أنقاض بيت شوراكي الكائن بزنقة سليمان الطراح وتم نقلها بالمروحيَّة الطبيَّة إلى أحد مستشفيات العاصمة، دقَّق المسئول جميع سجلات قوائم ضحايا الزلزال الذين أُحضروا للإسعاف ولم يعثروا على اسمها، دارت أمي على جميع الأجنحة الأخرى وكذا مصلحة حفظ الجثث علها تصادفها لكن دون جدوى.

ثم انتقلوا إلى مستشفيات أخرى في العاصمة، وبعد يومين من البحث لم يعثروا على الطفلة ولا عن أي أثر مكتوب يشير إلى وجود أثر لها في واحدة من هذه المصحَّات، ثم قِيل لهم ربما تكون قد أُدخلت مستشفى البُلَيْدة، فانتقلوا إلى هناك لكن لا أثر يُذكر، ومع مرور الأيام بدأنا ننتظر إمكانية ظهورها أو الإخبار عنها من مؤسسات أو أشخاص شاهدوها أو تعرفوا إليها، لكن لا شيء عنها.

لاحقًا، زار زوج أختي مصطفى أوبختي جميع مستشفيات الناحية من تلمسان مرورًا بوهران وغليزان دون أثر لحميدة.

وبدأ الجميع يفقد الأمل في العثور عليها إلا أمي فقد رفضت رفضًا قاطعًا أن تقيم لها جنازة، وقد خاصمت صهرها مصطفى أوبختي ولم تكلمه مدة أسبوع لأنه اقترح عليها إقامة عشاء جنائزي تخليدًا لروح حميدة.

كانت أمي كلما تمدَّدت لتنام وقبل أن تطفئ المصباح تردد بحزن بالغ في صوت كليم: أين تنامين يا حميدة يا ابنتي، وفوق أي مُخدَّة تضعين رأسك الصغير؟

مع ذلك كانت ومع كل صباح تقول لنا: "ستظهر حميدة ذات يوم، أشعر وأنها على قيد الحياة، إحساس الأم لا يكذب!".

أحكي لهاجر شريفي قصة اختفاء حميدة وهي ترتجف ارتجافة عصفورة تحت المطر، تتابع الحكاية بصمتٍ وحَيْرَة وقد ضاع من رأسها ومن لسانها فرويد وسبينوزا وابن سيرين والآخرين.

حين انتهيتُ من سرد حكاية اختفاء أختي حميدة لهاجر شريفي، لم تعلق، بل كانت معلقة في غَيْنَةَ أو في حيرة، وبهدوء غادرتني، تركتني وسط شارع ديدوش مراد معلقًا في نهاية حكاية لم تَنْتهِ.

وفي اليوم التالي انتظرتها كالعادة عند موقف حافلة الطلبة غير بعيدٍ عن الجامعة، فلم تظهر وظللتُ هكذا أنتظرها كل صباح دون جدوى.

لماذا يا تُرى اختفت هاجر شريفي كما اختفت حميدة؟

ومن يومها شرعتُ في البحث عن طفلتين في طفلة واحدة: حميدة وهاجر؟

لكن عكس أمي، لم أكُن أتوقَّع أن أصادف لا هذه ولا تلك.

كثيرًا، تغيَّر هذا العالم.

تركتُ أفغانستان في أفغانستان، هناك ببعيدًا، فوجدتُها في الجزائر أو جزء منها.

حين رجعتُ من أفغانستان بفضل الدكتور عبد الجبار أو عبد الغفار، ودخلت مدينة الأصنام وجدتها قد تغيرت وتبدَّلت ذهنية العباد وتغيرت اللغة واللباس، كل شيء فيها انقلب، زلزال ضرب كل شيء فاهتزَّ كل شيء من مكانه.

وتغيرتُ أنا أيضًا، كثيرًا.

اختفى أخي من رأسي وازدادت شهيتي الغريبة لتناول كأس نبيذ.

سبحان اللّه العظيم، كثير من الذين تركتهم في المساجد قانتين ليل نهار ها قد تحول بعضهم إلى بائعي الملابس الداخلية للنساء وملابس نومهن، وقد فتحوا مَحالَّ واسعة في وسط المدينة وحتى في بعض الأحياء الشعبية، أحدهم من الذين كانوا يدرسون معي بمدرسة الحي أطلق لحيته، اشترى المحل الذي كان قد خصصه والدي لبيع الألبسة الأوروبية المستعملة في الطابق الثاني من البناية التي أقامها على الساحة الخلفية لمطعم الاستقبال الجيد، الذي تنازلت البلدية له عن ملكيته وأصبح يُسمَّى مقهى الاستقلال،

وحوَّله إلى تجارة ملابس النساء الداخلية، تصله السلع بانتظام مُهرَّبة من تركيا ودمشق وباريس، رجال الجمارك في المطارات وشرطة المطار والميناء وكذا مفتشو الضرائب في يده، كل شيء أصبح يُباع بثمن في البلاد، الصمت بثمن وغَضّ الطرف بثمن، ضمير المسئول يُباع كما تُباع الألبسة الداخلية النسائية، وبعض من تركتهم معلمين في المدارس يدعون إلى الفَلَاح والصلاة والصلاح غادروها وفتحوا قاعات لرياضة كمال الأجسام، وقد أصبحت تجارة رابحة في هذه الأيام، وبعضهم الآخر أغرق السوق بطب الأعشاب والطب النبوي حيث لا يخلو شارع من دكان بائع أعشاب أو دكان لراقٍ شرعيٍّ معتمد.

وبعضهم الآخر تزوج وأنجب البنين والبنات وانسحب من حلقات الدروس الدينية، وتحول إلى مخبر لصالح النظام، لا ينام من كثرة رسائل التهديد المُوقَّعة من قِبل جماعات إسلامية والتي تملأ صندوقه البريدي يوميًّا، وبعضهم بعد أن حوصر في كل شيء من قِبل أصدقائه القدامى ومن رجال النظام، هاجر إلى فرنسا التي كان يقول عنها عدوَّة البلاد ومنبع الكفر وسبب كل البلاء.

وبعض الذين عرفتهم سابقًا انخرط عدد كبير منهم في صفوف الحزب الإسلامي الجديد، وترشَّحوا للانتخابات المحلية وأصبحوا رؤساء لبلديات أسقطوا عن واجهات بناياتها الاسم الجمهوري وعوَّضوه باسم "البلدية الإسلامية"، وبعضهم الآخر فاز برئاسة المجالس الشعبية الولائية، وبعضهم أسَّس جمعيات خيرية أو دينية بلدية أو ولائية أو وطنية تنشط كملحقة للحزب الإسلامي الزاحف على كل شيء، وهي الأكثر استفادةً من دعم الدولة ومن السلطات المحلية.

يا سبحان اللّـه كل شيء تغيَّر بعد الزلزال.

وحدها أختي نوَّارة لم تتغيَر كثيرًا، ظلت بقدِّها الجميل، كل ما تغير فيها هي مشيتها حيث أصبحت تعرُج قليلًا متأثرة بآثار المرض الخبيث، مرض الخِنْزِير، الذي أصاب ساقها اليُسرى.

كانت حزينة لغيابي الذي طال.

غالبية أبناء الحي الشعبي الذي وُلِدتُ وكبرتُ فيه، والذي انهارت غالبية بناياته الهشَّة رحَّلت السُّلطات أُسَرهم للإقامة في بنايات جاهزة تم تركيبها بشكلٍ مستعجل وفوضوي على أطراف المدينة القديمة، لقد تحصَّلت البلاد على هذه البنايات الجاهزة في شكل هبة من تلك الدول التي اشترطت ربط هداياها بقضية تغيير اسم المدينة من "الأصنام" إلى "الشلف"، وهو ما كان لها، وقد تشكَّلت أحياء جديدة في ظرف لم يتجاوز السنة، يعيش تحت سقف بيت واحد أسرتان ومرات أكثر، تم توزيع الساكنة على البنايات الجاهزة حسب عدد أفراد الأسرة.

الحياة نخلُقها وتخلقنا.

... وتستمر الحياة في الحي الجديد الذي أُطلق عليه اسم "حي الجابوني" Cité japonaise بكل عنفها، أُطلق عليه اسم "الحي الياباني" لأن جميع البنايات الجاهزة التي يتكون منها هي يابانية الصنع أو صينية أو تايوانية، لا يهم! ها هنا في هذا الحي الجديد لا يمر يوم دون أن يتذكَّر رفاق الصِّبَا معاركنا في زنقتَيْ سليمان الطراح ورابح الحرايري، كانوا لا يجيئون على سيرتي غير المحمودة! سيرة الولد الشقي! أمير عَجَاج الأزقة وغبارها، إلا واعتقدوا

بأنني مُتّ، فأنا وُلدت والموت معلق في عنقي منذ الاختيار السيئ لاسمي من قِبَلِ أبٍ يعتقد بأنه هو من صنع الثورة، قال البعض بأنهم شاهدوا صورتي على إحدى قنوات التلفزيون جثة هامدة ملقاة على الأرضية في معركة يبدو أنها وقعت في شمال السودان، بين قبيلة عربية وأخرى إفريقية مسيحية، أو في غابة من غابات البوسنة أين التحقتُ بصفوف المجاهدين هناك وأصبحت الذراع اليُمنى للسيد الرئيس عزت بيجوفيتش بل وزيره للدفاع، وأنني أبليتُ بلاء حسنًا ضد الصرب المسيحيين في وسط أوروبا الصليبية الكافرة.

غيابي أفسد سعادة أمي بموت أخي مهدي، ومن كثرة ما بكتني ليل نهار، كادت أن تفقد ضوء عينيها وأصبحت ضعيفة النظر حتى شارفت على العماء.

دخلت مدينة الأصنام أو شلف صيفًا، ذات ظهيرة قيظ جهنمي، الجدران فقدت ظلالها نهائيًا وكأن الشمس تقضي النهار والليل فوق المدينة، تشويها شيًّا.

لا أحد في الشارع.

لا طير على غصن شجر.

لا حياة، لا زمن.

حين يكون الشخص شابًا يضع على معصمه **ساعة** جميلة، يقضي كل وقته يتأمل شكل الساعة المُرصَّعة ولا ينتبه **للوقت** عليها، وحين يكبر ينسى جمال الساعة وينشغل بالوقت أكثر، بالدقيقة والساعة واليوم والشهر....

بين الحين والآخر تمرُّ سيارة في الطريق الوطني.

لا أحد يتحرك في الحي الجابوني، كل شيء ساكن، قيلولة تشبه الموت الجماعي، حتى القطط اختفت بحثًا عن ظِلٍّ رحيم.

حين طرقتُ باب منزلنا، كان النهار قد انتصف أو تجاوز ذلك بقليل، هي ساعة القيلولة، شيطان القيلولة وحده مستيقظ في أجساد العباد!

ثلاث دقات وها هي أمي تفتح الباب وكأنها كانت تترصَّدني منذ الفجر أو منذ شهر أو منذ عام! تعرَّفت إليَّ من خلال رائحة جسدي حتى قبل أن تفتح الباب، فصرخت عاليًا: "ها أنت تعود يا فلذة كبدي، طريق الأم موصل دائمًا"، وهي تحتضنني وتمرر أناملها الرقيقة على وجهي لاستعادة تفاصيل شكله، تذكَّرت سعادتها وهي تتأمل ملامح وجه أخي مهدي الميت، واسترجعت بدقة شكل أسارير وجهها المنبسطة لحظة عودتنا من مراسِم الدفن.

تبكي فرحةً بعودتي وكنت أبكي على أخي مهدي الذي ضيَّع أمه.

شعرت ببرودة صقيعية وهي تحتضنني على الرغم من الجو القائظ.

قيظ صقيعي!

حين فقدت أمي الرؤية أو كادت وما عادت تستطيع الخروج والمشي في الشارع والذهاب إلى السوق، قال بعضهم: "هذا عقاب من اللَّه عز وجل، يسلطه على كل أسرة بأُمٍّ تنجب مِثْليًّا وبنتًا بمرض الخنزير في ساقها وتتزوج رَجُلًا يستعيد عقله بالحديث إلى يهودي يُدعى مسعود شوراكي، هذه الأم لن تكون نهايتها سوى الجنون أو فقدان البصر".

ملح دموع الفرح فوق القلب كالمطر على النبات.

وأطلَّت أختي نوارة من نافذة غرفة ضيقة، وإذ شاهدتني أسرعت حافيةً لاستقبالي، وأمي تصرخ قائلة: "مهلًا فبطنك مليء".

بطنك مليء!

احتضنتني أختي نوارة بشوق فائض، وهي تبكي كالطفلة وتذرف دموع الفرح قائلة: ها أنت تعود يا بْنَ أمي، يا حميد، للمرَّة الأولى تناديني أختي بهذا الاسم، وهي التي ظلت طوال السنين تناديني باسم يونس، هناك شيء ما تغيَّر، لقد انتهى عصر الخوف الذي كانت تنشره جماعات زوَّار منتصف الليل سنوات حكم الكولونيل هواري بومدين، شعرت بإحساس غريب ونوارة تناديني باسمي الحقيقي الذي وُلِدت فيه والذي بسببه قضى أبي أيامًا في أقبية السجن، اسم كدت أنساه.

شعرتُ بالسعادة لاستعادة اسمي على لسان نوارة.

أين صرصور أبي؟

في حضن أختي شعرت برائحة أخي مهدي.

حين دققتُ النظر في نوارة بدا لي على وجهها حفر السنين، كانت تتحرك بعرَجٍ خفيفٍ جهة ساقها اليسرى التي مسَّها الضُّرُّ ذات زمان، ولكن الابتسامة المتدفقة الصادقة لا تزال هي هي بنورها ومطرها.

إنها شبيهة بهاجر شريفي!

ما إن جلست على طرف المطرح الإسفنجي الندِيّ الرطب، وأمي

لا تتوقف عن احتضاني كما كانت تفعل ذلك وأنا طفل صغير، وكلما قرَّبتني إليها شممت رائحة جسد أخي المهدي الميت، لم أستطع أن أرفع نظري نحو أمي، خوفًا من استعادة ابتسامتها بوفاة أخي مهدي وانبساط أسارير وجهها ساعة عودتنا من دفنه دون صلاة الجنازة، على الفور نزل إبريق القهوة، قهوة أمي لا تشبهها قهوة أخرى، بها رائحة الفُلْفُل أو الهِيل، قهوة ساحرة، سألت عن مصطفى أوبختي فقيل لي إنه يداوم بالمقهى مقهى الاستقلال، فهو الذي يشرف عليه منذ أن طار عقل أبي وهام في الشوارع.

لست أدري لماذا تجنَّبت السؤال عن أحوال والدي، وكأنني أخشى الجواب.

لم أُطِل البقاء في البيت وانطلقت مستعجلًا لقاء مصطفى أوبختي صاحب الدراجة الهوائية أَبُولُّو، ما إن لمحني وأنا لم أتخطَّ بعد عتبة المقهى حتى صرخ عاليًا في الزبائن: المشروبات على حساب المحل يا ناس، هذا يوم عيد!

رمى ما كان بيديه واحتضنني، ثم خطا خطوتين إلى الوراء في حركة مسرحية خفيفة وكأنما ليتأكد بأن الذي أمامه هو "أنا"، أنا يونس أو حميميد، احتضنني ثانيةً وبقوة وهو يقول: سنركب أَبُولُّو ونذهب للبحر ولن تغرق فيه، مَن يسافر حتى أطراف الدنيا لن يخشى موج البحر أبدًا!

وضحكنا، ومرت صورة جانين غروطو خاطفةً برأسي، ثم غابت.

وتقدم الكثير من الزبائن الذين كانوا جالسين حول طاولاتهم للسلام عليَّ بعد أن عرفوا بأنني الابن الأصغر للمجاهد عبد اللّه فليتا.

كنت سعيدًا وحزينًا في الوقت نفسه وأنا أعود إلى هذه المدينة التي

ضيَّعتُ فيها أبًا وأختًا وأخًا في يوم واحد، وضيعت أُمًّا أيضًا.

قدم لي مصطفى أوبختي فنجان قهوة وكأس ماء وعيناه لا تكادان تفارقانني وكأنما يراني للمرَّة الأولى أو كأنما هو يرى كائنًا غريبًا هبط من السماء، أي سماء، وهو يردد: "كنت أعتقد بأنك لن تعود إلى هذه المدينة الملعونة نهائيًّا أيها الملعون، قيل لنا بأنك سافرت بعيدًا إلى سراييفو، فنصبنا بربول على السطح علَّنا نلتقط صورتك في واحدة من نشرات الأخبار الأجنبية، ولم نفلح، وبعضهم قال بأنك هاجرت نحو الشرق إلى دمشق ومنها إلى كَابُل" ثم سكت، ولم يُرِد أن يدخل في تفاصيل الدعايات الكثيرة التي رُوِّجت حول غيابي، فآذان الزبائن منصوبة في اتجاهنا كالرادار، قلت له ضاحكًا: "عمر الشقي باقٍ، ونداء التراب يسمعه القلب جيدًا، ونحن نتبع قلوبنا حيثما حللنا، إنها لا تكذب، ألَمْ تهاجر أنت حتى تونس وعدت وتركت خلفك شهرة كبيرة؟".

نظر إليَّ معلقًا وهو يضحك: "لقد أصبحت فيلسوفًا، سوف آخذك إلى البحر وأرميك في موجه الهادر كي تنقذ خالك يونس من بطن الحوت".

وضحكنا معًا.

قبل أن تغيب الشمس ويسقط الظلام بقليل، وقد اعتدل الجو فصار منعشًا، لا هو بارد ولا هو ساخن، النساء يَرْشُشْنَ قدام أبواب البيوت، وأخذ الناس يخرجون للرصيف بعضهم يجلس عند عتبة بيته إما على الأرض مباشرة أو على كراسٍ بلاستيكية رخيصة، قلت لمصطفى أوبختي: أريد أن أرى والدي الآن، لقد اشتقتُ إليه كثيرًا.

أغلق باب المقهى، وعلى الفور ركبنا أَبُولُّو وانطلقنا في شوارع المدينة شبه الفارغة وهو يقول: في مثل هذا الوقت المنعش يحلو لسيدي علاَّلا أن يتمدد محاطًا بقطيع قططه في ساحة الحرية، ذهبنا إلى الساحة فتشنا أركانها فلم نعثر له على أثر، لم أشعر بأي قلق، فالمدينة كبيرة ولأبي أماكنه المتعددة، "اليوم يوم ثلاثاء، ربما يكون في رحبة السوق الشعبي فهو يلجأ إلى هذا الفضاء بين الفينة والأخرى لإطعام قطيع قططه مما يخلِّفه الجزَّارون من بقايا الخراف والمعز التي يذبحونها في السوق ويبيعونها مباشرة"، وصلنا المكان فتشنا في مخازن الخضر والفواكه فوجدناها فارغة ومهجورة ولم نعثر له بها على أثر، وحين عدنا لركوب أَبُولُّو شعرت بآثار حيرة مرتسمة على وجه مصطفة أوبختي، بدأ القلق يظهر على تصرفات مصطفى أوبختي تجلى ذلك في طريقة سياقة أَبُولُّو، شعرت أنا الآخر بإحساس غريب لم أستطع تفسيره، مررنا بمسجد جامع اليهود حيث تعوَّد الجلوس على درجات مدخله يتأمل أفواج الداخلين والخارجين منه، ويستعيد ما عرفه هذا المكان من اجتماعات سرية لمجاهدي الثورة والتي كانت تُنظَّم من قِبل الشيخ مسعود شوراكي وتحت حماية عيونه التي لا تنام أبدًا.

قال لي مصطفى، سنمرُّ على مقبرة الشهداء، فهي أيضًا من الأمكنة التي يحلو له ارتيادها بين الفينة والأخرى، ربما يكون تذكَّر الرفاق من الثوار الشهداء ومن المجاهدين البرَرَة وذهب ليحدثهم ويخبرهم عن حال البلد والعباد في زمن الاستقلال هذا. في طريقنا إلى المقبرة ونحن نقطع الشارع الرئيسي الذي يوصل حتى باب وهران حيث المقبرة كان المارَّة من الشباب والشيوخ يُحيُّون مصطفى بإشارات من أيديهم أو بعبارة ترحيب يطلقونها في اتجاهه، وكان يرد على الجميع بكثير من الود، حين أدركنا المقبرة وهي

المقبرة الوحيدة المرتبة حيث القبور منظمة ومصبوغة بالأبيض الناصع، وشواهدها المصنوعة من الرخام الأصلي متشابهة ومكتوب عليها بعض المعلومات والتواريخ وآيات من الذِّكْر الحكيم خاصة بالشهيد أو المجاهد، كل ذلك بشكل جيد وصحيح دون أخطاء إملائية وبخط ديواني واحد، وعلى كل واحدة صورة للعلَم الوطني بألوانه الثلاثة الواضحة، غرست في المقبرة أشجار السَّرْو والأَرْز وبعض الأزهار وهناك ممرات ما بين القبور، من بعيد حيَّانا الحارس الأطرش بإشارة من يديه وقد تعرف فورًا إلى مصطفى أوبختي، وعاد ليُقَيِّل إلى ظل جدار الغرفة التي يتخذ منها سكنًا وفيها يحفظ العتاد المستعمل في حفر القبور وبعض قطع الرخام والأحجار وأكياس الإسمنت، بحركات من يديه سأله مصطفى إن كان قد شاهد السي عبد اللّـه فليتا في الأنحاء، فهم الحارس على الفوْر السؤال، فردَّ عليه بإشارة: فهمنا منها بأن والدي بالداخل، عند قبر رفيقه المجاهد الكومندار حسن البازوكا، ونحن نقطع المقبرة حكى لي مصطفى حكاية هذا المجاهد حسن البازوكا:

"استغرب الناس يوم الاستقلال وهم يشاهدون الكومندار حسن البازوكا يدخل المدينة نازلًا من الجبل مباشرة مرتديًا ثياب النساء وهو الذي سمعوا عنه كثيرًا من الحكايات الخارقة في الشجاعة والمقاولة المسلحة ضد الاستعمار، ويتداول أهالي المدينة قصة شهيرة عن سبب ارتدائه اللباس النِّسْوِي، فقد قيل بأن ذلك يعود إلى حادثة وقعت له أيام الثورة التحريرية مع الجيش الاستعماري، حيث حوصر هو ومجموعة من رفاقه في دشرة معزولة تُسمى الدومة على رأس الربوة المطلة على شاطئ بيدر بعد أن أفشى سِرَّ وجودهم في هذا المكان أحدُ الخونة، وبعد تفتيش

المنازل وزرائب الأغنام وإسطبلات الدواب، تم فصل النساء عن الرجال، إذ جُمعت النساء في حوش منزل وتم تجميع الرجال عند مدخل القرية، وعلى الفور تم إعدام جميع الرجال جماعيًّا أمام أعين النساء والأطفال من قِبل العسكر الفرنسي، وتُركت النساء لمصيرهن، والغريب أن "الكومندار حسن البازوكا" وفي لحظة الانقضاض المباغت على المجموعة، وللتمويه لبس لباس امرأة وغطى رأسه بمنديل كبير، ولم ينتبه العسكر الفرنسيون لأمره وضموه إلى مجموعة النساء، وهكذا نجا من الموت، يُقال إنه ظل بتلك الدشرة التي استُشهد جميع رجالها مرتديًا لباس النساء، حاملًا سلاحه إلى أن حلَّت ساعة الاستقلال فنزل بلباسه هذا احترامًا للمرأة وتقديرًا لها".

كنت أسمع الحكاية وبين الحين والآخر أحاول أن أقرأ بعض الشواهد، نزلت حدَّة توتري، سرنا بين صفوف قبور الشهداء والمجاهدين الذين ينامون في سَكِينة إلى ظلال أشجار السرو العالية والأَرْز، قبور لا تُنبت عليها الأعشاب المتوحشة، وأنا أتأمل تنظيم مقبرة الشهداء تذكَّرت فوضى المقبرة التي دَفنَّا فيها أخي مهدي حيث الناس تمشي فوق القبور، قلت في نفسي: المقابر على شكل العباد، الشهداء لهم مقبرة منظمة لأنهم كانوا منظمين وعباد اليوم لهم مقبرة فوضاها تعكس واقعهم المتوحش.

ما كدنا ندرك قبر المجاهد الكومندار حسن البازوكا الموجود في آخر طرف المقبرة، حتى لمحنا جسدًا مُمدَّدًا إلى جانب القبر، عرفنا على الفور بأنه لأبي، جرى مصطفى نحوه وجريت في أثره، ناداه عاليًا: سيدي علَّلا، سيدي علَّلا، فلم يُجِب وصرختُ أنا "أبي، أبي" فلم يُجب ولم يتحرك، هزه مصطفى هزًّا هادئًا من كتفيه فلم يتحرك، ثم عنيفًا فلم يتحرك، كان

مُمدَّدًا في وضعية مَن يعانق قبر صديقه والراية الوطنية لا تزال في قبضة يده اليمنى، وقطيع من القطط تحيط به، وإذ لاحظَت القطط ونحن نهز جسده ونحاول إيقاظه انطلقت في مواءٍ متواصلٍ وغريبٍ يشبه النُّوَاح.

مات أبي عبد اللّه فليتا، وكَمْ كنت أتمنى رؤيته في هذه الحياة، كم كنت أحلم أن أعود إلى هذه المدينة الحزينة وأضع يدي الصغيرة في حضن يده الكبيرة، ونمشي في شارع الاستقلال مطمئنين، ولا أتركها تفلت مني مرةً أخرى! تلك اليد التي ضاعت مني ذات لحظة زلزال ونحن نُهرع من مسجد جامع اليهود الذي انهار جزء كبير منه فرُدم تحت أنقاضه كثيرٌ من النساء والرجال.

ها أنا أنظر إليه وأشعر بأنني أمسك الفراغ الرهيب في يدي وفي قلبي.

بكيتُ بحرقةِ طفلٍ ضائع.

وأخفى مصطفى أوبختي عني دموعه وحاول مؤازرتي.

حين استعاد مصطفى بعض هدوئه بإشارة منه نادى على الحارس الذي جاء يمشي على رجل اصطناعية كلما خطا خطوة أحدثت صوتًا مزعجًا، بمجرد أن وصل وأدرك بأن عللّا فليتا قد مات، أسرع إلى غرفته لإجراء مكالمة هاتفية لإعلام الحماية المدنية، وعاد إلى ظل حائط المقبرة يحتسي قهوة العصر ويدخن، لم تتأخر سيارة الإسعاف عن الوصول إلى المكان.

نقلوا جثة والدي علّلا فليتا إلى قسم حفظ الجثث بالمستشفى الكبير بالمدينة، في انتظار الإجراءات القانونية.

كنتُ هنا ولستُ هنا.

سريعًا سَرَى خبر موت والدي في المدينة كما الريح.

مات عللَّا فليتا.

مات آخر الرجال المجاهدين البَرَرة.

تغيَّمت السماء، فجأة.

القطط ضائعة ضياعين أو أكثر، مثلها أنا أيضًا ضائع.

في المساء دق باب بيتنا رئيس البلدية مصحوبًا بالوالي وبشخصيات عسكرية، بنجوم وجبال على الأكتاف وأخرى مدنية من أعيان المدينة وبعض الغرباء الغامضين، قالوا لأمي: "الدولة هي من تتكفَّل بكل إجراءات العزاء ومراسم الدفن، فللمجاهد السي عبد اللَّه فليتا دَيْنٌ علينا جميعًا، هو فقيد البلاد كلِّها".

كنتُ أسمع!

وقبل أن يغادروا المنزل اختلى الوالي بمصطفى أوبختي وهمس في أذنه: "ستحضر الجنازة شخصية مهمة قادمة من العاصمة للإشراف على مراسم الدفن وتكريم المجاهد الفَذّ عَللَّا فليتا".

حين غادروا البيت، التفتت أختي نوارة إليَّ قائلةً بحزن: "كِي كانْ حيّ اشتاقْ تمْرَة وكِي ماتْ علَّقُولُو عَرجونْ" (لما كان على قيد الحياة اشتاق لحبَّة تمر وحين مات علقوا له عُرْجُونًا)!

أصبح جثمان أبي مِلكيَّة للبلديَّة، فقد قررت بأن تكون مراسم الدفن الرسمية بعد ثلاثة أيام، وذلك انسجامًا وتماشيًا مع أجندة مواعيد الشخصية المهمة التي ستشرف على المراسم بنفسها.

هذا الصباح، كل شيء تحرك في المدينة، التحضيرات جارية في الشوارع الرئيسية وفي المقبرة، فالوفد القادم من العاصمة مهم، من الحكومة والأحزاب والنقابات، كلهم قادمون لتوديع المجاهد الكبير إلى مثواه الأخير وتكريم زوجته المَصُون لالة رحمة!

مدينة شلف، الأصنام سابقًا، تتهيَّأ لهذا الحدث العظيم منذ أن وصل خبر مشاركة هذه الشخصية الرسمية الكبيرة في مراسِم الدفن والوفد المرافق لها، حركة غير عادية، وجوه غامضة ملأت الشوارع، رجال بعيون كثيرة لا تنام، كل شيء مُراقَب، الفنادق والحمَّامات والأسواق الشعبية، عند الباب الشرقي للمدينة باب الدزاير نُصِب حاجز ثابت ليل نهار من قِبل رجال الدَّرَك الوطني، ومثل ذلك عند مدخلها الغربي باب وهران، الدخول إلى المدينة بمصفاة أمنية مشددة، تفتش العربات والأشخاص تفتيشًا، الناس معلقين في استفهام عن كل هذا الذي يجري.

قال قائل: "أموتُ عَللَّا فليتا المجنون يثير كل هذا الضجيج في قمة الدولة بالعاصمة؟".

صباح يوم الجنازة، باكرًا أخرج آلاف التلاميذ من مدارسهم وجيء بهم وبمعلميهم وأساتذتهم ومديريهم لاستقبال الضيف الكبير، رافعين أعلامًا صغيرة ومرددين بحماس كلمات النشيد الوطني، علقت البلدية الأعلام الوطنية على طول الشارع الرئيسي وكذا بساحة الحرية، وعلى واجهة البلدية عُلقت صورة كبيرة لعللَّا فليتا حاملًا السلاح أيام الثورة،

رجال ونساء ريفيون بأعمار متفاوتة جُلبوا في سيارات الشحن الكبيرة كما تُشحن البضائع وقطعان الأغنام، وضع الجميع على رصيف الشارع الرئيسي، شارع الاستقلال الذي سيعبره الضيف الكبير والوفد المرافق له القادمون من العاصمة، من الجزائر البيضاء، زُيِّن الشارع بمصابيح ملونة بالأخضر والأبيض والأحمر وقد رُكِّبت منذ اللحظة التي تأكَّد فيها خبر مشاركة الشخصية المهمة لتظلَّ مُنارة ليل نهار، وعلى عَجَل تمت صباغة بعض الواجهات المهترئة للبنايات التي شاخت بسرعة، صباغة بئيسة.

تذيع البلدية أناشيد وطنية مُسجَّلة عبر مُكبِّرات الصوت رُبطت إلى أغصان أشجار الساحة الرئيسية ساحة الحرية، ونُصبت بعضها على سطوح العمارات وفي بلكونات بعض الشقق المطلة على الشارع الرئيسي.

أنا حميميد أو يونس كما تصر أمي على مناداتي حتى الآن، أقف وسط الجمهور، على هذا الرصيف، إلى جانب أمي ومصطفى أوبختي الذي أغلق المقهى، فقد صدر أمر بلدي وولائي بغلق جميعِ المَحَالِّ التجارية وعلى أصحابها أن يكونوا في استقبال الضيف الكبير والوفد المرافق له، أشعر بنوع من الفخر لهذا الاحتفال المخصص لأبي المجاهد حتى ولو كان ميتًا. من كثرة المشاعر الفياضة حيال هذه الحشود الكبيرة والأناشيد الوطنية المتصاعدة بحماس من حناجر صادقة أحسست برغبة في التبوُّل، وأنا أفكر في مثانتي المزعجة، فجأةً توقفت الحركة نهائيًّا في الشارع الرئيسي الذي يوصل حتى المقبرة الواقعة جهة باب وهران، انتبهت متناسيًا ضغط مثانتي وإذا بقافلة طويلة من السيارات السوداء الرسمية تخترق الشارع قادمةً من جهة الشرق، جهة باب الدزاير، محاطة بجيش من الحرس المسلح

راكبين دراجات نارية مُشكِّلين شبه جدار منيع، رجال الشرطة يتكلمون في هواتفهم الطالكي والكي بعصبية.

الحفل كبير لموت أبي! يا أبي قُمْ من موتك لترى الاحتفال بك، ستضحك من موتك!

نظرت على يميني فوجدت أخي مهدي الذي دفنَّاه في مقبرة الفوضوية والذي سافر معي حتى كَابُل واقفًا بجواري، يا اللّه هو بلحمه وشحمه وخجله، مبتسمًا بسخرية، لم تَرُق لي ابتسامته، أردت أن أنبِّه أمي لحضور أخي مهدي، فخشيت أن أفسد عليها فرحتها بهذا الاحتفال العظيم، تساءلت بيني وبين نفسي: هل جاؤوا به هو الآخر من المقبرة لاستقبال الشخصية المهمة، إنهم قادرون على جلب الأموات للاستقبال؟ كل شيء ممكن في هذه المدينة الملعونة، الحكومة قادرة على أن تُحْيي الميت لوقت معين ومحدد، ما يكفي لاستقبال الضيف الكبير ثم إعادته إلى قبره سالمًا مُعافى.

لم أنبه أمي لحضور أخي مهدي ها هنا على بعد مترين منها، وسط هذا الجمهور الغفير، حتى لا أفسد عليها سعادتها بموته، وحتى لا أُعيد إليها حزنها وألمها المزمن بوجوده.

قلت لمهدي: مَنْ أتى بك إلى هنا؟ لم يُجِب، كان مشدودًا شأنه شأن الحضور إلى الموكب الرسمي الذي يمر، وقد أثارته قافلة الدراجات النارية فبدا كالطفل الذي يتابع شريطًا مصورًا مدهشًا، مثله مثل الآخرين كان يردد كلمات النشيد الوطني مع بقية المنشدين المتحمسين من الريفيين ومن تلاميذ المدارس ومُعلِّميهم، كررت السؤال عليه: مَنْ جاء بك إلى هذا المكان يا مهدي؟ أنت ميت، مكانك في المقبرة لا في الشارع؟ يجب أن تكون في قبرك تنظر ساعة قيام القيامة لا أن تكون هنا في انتظار شخصية

سياسية مهمة، اللّـه سيغضب عليك؟ قد يزور مَلَكُ الموت قبرك فلا يجدك ويعاقبك أشد العقاب؟ ابتسم ابتسامة عريضة ساخرة ولم يُجِبني، نخزتني أمي قائلة: ليس هذا وقت الحديث في السياسة يا يونس، ألم تتعلم درسًا من أبيك الذي عاش الويلات لأجلك، لأجل اسمك الملعون؟

تذكَّرتُ صرصور والدي ورُفْقَته الرائعة.

ابتسم لي أخي مهدي ابتسامة واسعة، هذه المرة كانت ابتسامته وديعة هادئة، وكأنها أثاره تعليق أمي.

ضحكت أنا بصوت مسموع.

حين دققت النظر في مهدي بدا لي أصغر من قامته الطبيعية التي كان عليها قبل أن يموت وقد كان رَبْعَ القَدّ، بدا لي شبيهًا بقَزَم من أقزام حكاية الأقزام السبعة، حكاية قرأتها لي السيدة جانيت غروطو بصوتها المتهدج وأناملها السحرية تتحرك فوق جلد ظهري وعلى رقبتي وفي شعري، أردت أن أسأله عن سر هذا التحول في جسمه، وهل الإنسان حين يموت ينقص طوله إلى هذه الدرجة؟ لكني ترددت لم أُرِدْ إحراجه، فهو طوال حياته كان مُهتمًا بشكله وبأناقته وبعطره، ثم قلت له: هل جاؤوا بك في الشاحنة أم في المحمل اللوحي أم جئت راجلًا؟ لم يردَّ عليَّ، ثم أضفت معلقًا وأنا أحدق في ساقيه الصغيرتين: المقبرة بعيدة يا أخي وأنت حين دفنَّاك كنت مُهشَّم الساقين لا يمكنك أن تقطع كل هذه المسافة بساقين مكسورتين وعينين مفقوءَتين، لم يُولِ كلامي أي اهتمام، كان يحاول أن يقف على رأس أصابع رجليه كي يشاهد تفاصيل الموكب الرسمي بدقة، ومرةً أخرى التفتَتْ أمي نحوي محذرةً قائلة: قلت لك اسكت فالشوارع بآذانها، شعرت وكأني أفسد عليها متابعة مرور الموكب الرسمي المحتفل بموت زوجها المجاهد الكبير

عللَّا فليتا سليل عبد المطلب الكيَّاس الذي حاول اختطاف نابليون رهينة، ضحك أخي لكن هذه المرة كانت ضحكته عالية، عبارة عن قهقهة، مما أثار انتباه مصطفى أوبختي، الذي بدأ يصفق بحرارة ويلوِّح بذراعيه في السماء وهو ينظر تجاه تقدُّم الموكب الرسمي.

رفضت نوَّارة حضور الاحتفال، ولا أحد منا سألها لماذا؟

قلت في نفسي وأنا أتحقَّق من وجود مهدي الميت على الرصيف منشغلًا مع الأحياء بقدوم الشخصية الكبيرة: صدقت حنة منصورة، إن مهدي لم يأخذ اسمه من اسم المناضل المهدي بن بركة، بل سُمِّي بذلك تبرُّكًا بالمهدي المنتظر، حنة منصورة على حق، لو لم يَكُن مهدي من المهدي المنتظر ما كان الآن واقفًا بجواري وهو الذي ينام في قبره هناك، دفناه حتى بدون صلاة الجنازة، ربما لأننا لم نُصلِّ عليه صلاة الجنازة فقد عاد ليطالبنا بها.

من مكاننا هذا المميز الذي اختارته لنا البلدية باعتبارنا أهل الميت المجاهد عللَّا فليتا، فأنا ابنه وأمي زوجته ومصطفى صِهْره وهذا الذي هو وليس هو مهدي ابنه البِكْر الذي أسعد موته أمي كثيرًا، نقف غير بعيدين عن المنصَّة الشرفية التي أُقيمت بساحة الحرية، والتي تُنصب مع كل موعد احتفال بالأعياد الوطنية، وقد تنصب أيضًا للطمبولا حين يمرُّ بالمدينة سيرك عمار بأقفاصه العامرة بالأُسُود والقرَدة والفيلَة والأرانب والنمور.

المنصة إما للسياسيين أو لمهرِّج السيرك الإيطالي الشهير.

أنا متأكد بأن الكثير من المواطنين، وبمجرد أن سمعوا سيارة البلدية الخاصة التي على سطحها مكبر الصوت تمرُّ في الأحياء لتعلن للناس عن توقيت جنازة المجاهد عللَّا فليتا، اعتقدوا بأن البلدية وكما جرت العادة تقوم بالترويج لعروض للسيرك عمار الإيطالي الشهير، وربما تكون البلدية

هي نفسها وبذكائها الخارق وراء إشاعة خبر وصول السيرك عمار إلى ساحة الحرية حتى يحضر أكبر عدد ممكن من المواطنين.

الناس في بلدنا تحب التفرُّج على القرود والفيلة والمُهرِّجين الذين يُخرجون الأرانب من كُمِّ معطفهم والبيض من أنوفهم والحمام من أقفاص فارغة.

قال طفل بجواري لأبيه: هل هناك قرد؟

انزعجت أمي لحديث الطفل.

أخيرًا توقفت سيارات الوفد الرسمي بساحة الحرية، قدام مدخل بناية البلدية التي تعود إلى العهد الاستعماري، نزل الضيوف، كلهم يرتدون أطقمًا سوداء متشابهة وقمصانًا بيضاء وربطات عنق يغلب عليها اللون الأحمر، تحت تصفيقاتنا الحارة جدًّا، كانت أمي متحمسة وتصفق بقوة، فرحة وكأن الاحتفال ليس احتفالًا بموت زوجها بل احتفالًا بعُرْسها.

لاحظت بأن أخي مهدي الواقف بجواري قد بدا حجمه ينقص أكثر فأكثر، إذ حين أردت الحديث إليه هذه المرة لأُذكِّره بأن الاحتفال هو بموت أبي وليس بموته، اضطررت إلى التفتيش عنه بين أقدام الواقفين من حولي والانحناء كثيرًا للحديث إليه في أُذُنه اليُمنى، لم يَكُن له أذن يسرى فقد دفنَّاه بدونها، أكَّد لي ذلك مصطفى أوبختي الذي تولى إحضار الجثة من مستشفى المخيم الميداني لدفنها، مَنْ أكل أذنك اليسرى؟ هل أكلها الشيخ سليمان الأعور الجزائري الأفغاني؟

أسمع صوت الرصاصات الثلاث ثم إيقاع غناء السائق المُهرِّب الذي اسمه عبد الجبار أو عبد الغفار، دكتور في الفيزياء الفضائية ونحن نقطع المسافة ما بين كَابُل ومشهد.

خجل أخي مهدي من كونه بدون أذن يسرى، فحاول أن يخفي الثقب

المشوِّه المتبقي على يسار وجهه براحة كفِّه، قائلًا: لماذا لم تحضر لي معك قليلًا من البيستاش الفستق الحلبي من كَابُل؟ قالها وهو يعني شيئًا آخر غير الفستق الحلبي!! فهمته، وضحكت أنا أيضًا، ضحكنا معًا، التفتت أمي نحوي قائلة: لا تبتعد كثيرًا سنضيع وسط هذا الخلق الكثير. أمي تعاملني كما وأنني لا زلت طفلًا لا يتوقف عن معاركه في الزنقة، كأنني لا أزال أمير غبار الزقاق، أردت أن أقول لها: إن أخي مهدي قد صغر حجمه أكثر ولا أريد أن أضيِّعه كما ضيعت يد والدي، بحثت عنه وإذا برجل ضخم وقف بيننا كالجبل، حال بيني وبينه واختفى أخي خلفه نهائيًّا، فاستدرتُ خلف الجبل البشري للبحث عنه واستعادته كي أكون قريبًا منه في هذا الحفل المخصص لتوديع أبينا المجاهد عللًّا فليتا، الرجل اللحمي الجبلي الضخم يصرخ مُحيِّيًا الضيف ومرافقيه ومرددًا النشيد الوطني وبعض الشعارات التي تم تحفيظها لهم في مقر الاتحاد الوطني للفلاحين الجزائريين، وهو يكاد يدوس على أخي مهدي الذي تحوَّل إلى شيء صغير جدًّا، كحبَّة الحُمَّص، قلت للسيد الضخم جبل اللحم والشحم: "حذارِ لا تدَسُ على قبر أخي!"

الرجل الضخم أو الجبل البشري ذو الرائحة الكريهة يخفي عني المنصَّة، أو الجزء الكبير منها، أدور حول هذا الجبل من الجهة الأخرى فيضيع مني أخي مهدي وتضيع أمي لكني أراها من بعيد، مصطفى أوبختي يتسلل من بين الحشد مغادرًا الرصيف قائلًا لأمي في أُذنها بصوتٍ عالٍ: "هو موعد مخاضها"، على الرغم من الحشد رأيته يركب درَّاجته الهوائية أبُولُّو، ورأيتُني أركب من خلفه ونحن ننزل جهة البحر الذي كثيرًا ما نبَّهتني أمي إلى الابتعاد عنه، ومنعتني حتى أن أرسمه، أو أشاهده في الكتب المرسومة التي كانت تُعيرني إيَّاها السيدة جانين غروطو صاحبة الأنامل النارية، كل

ذلك لأن خالي يونس الذي منحتني اسمه بعد أن أسقطت الدولة اسمي الرسمي حميد، قد أكله البحر، قد مات غريقًا.

على المنصة الشخصية الرسمية، رجل وسيم جدًّا، يتناول الكلمة، صفق الجميع للشخصية الكبيرة، أبحث عن أخي مهدي الذي فقدَ حجمه نهائيًّا، وأفكر في البحر الذي رسمتُه على دفاتري بأشكال مختلفة لكن دائمًا بأمواج عالية، والآخَر الذي شاهدته في رسومات كتب جانين غروطو البديعة المرسوم بأمواج هادئة.

بحر السيدة جانين غروطو هادئ وبحري هائج.

أرى الرجل الذي يخطب فينا بحماس كبير كأنما يخرج من البحر، يخرج من رسوماتي، أنظر إلى مصطفى أوبختي الذي عاد مسرعًا على دراجته الهوائية أبولُّو شاقًّا هذه الحشود على الأرصفة ليقول لي: ألم أَقُلْ لك بأنه لم يغرق؟

كانت أمي تسمع لهذا الصوت وتُحدِّق في هذا الوجه الواقف بأُبَّهة أمام الجميع محتفلًا بموت المجاهد عللّا فليتا، بجوارها الجبل البشري لا يزال يصرخ مرددًا شعارات عن الثورة الزراعية، ثم فجأةً ارتفع صوتها فوق أصوات الجميع قائلة: إنه يونس، إنه أخي الغالي، لم يأكله البحر، أكلته السياسة.

قلتُ لها: مَن يعرف الطريق إلى غرقه يعرف سبيلَ النَّجاةِ منه.

ألجي/ الجزائر في 8 مارس 2023

المؤلف في سطور

أمين الزَّاوِي (الجزائر)

- روائيّ ومُفكِّر يكتب باللغتين: العربية والفرنسية.
- يشغل حاليًّا كرسيّ أستاذ الأدب المُقارَن بجامعة الجزائر العاصمة.
- أستاذ مُحاضِر زائر في عدَّة جامعات عربية وغربية: المغرب، الأردن، فرنسا وبريطانيا ورومانيا وغيرها.

2002 – 2008: المدير العام للمكتبة الوطنية الجزائرية.
2004 – 2008: رئيس مؤسسة أنَّا ليند للحوار الثقافي المتوسطي - فرع الجزائر.
2009: عضو مكتب الصندوق العربي للثقافة والفنون - بيروت -.
1987 – 1995: مُنتِج ومُنشِّط البرنامج التلفزيوني الفكري – الأدبي **"أقواس"**.
1991 – 1994: المدير العام لقصر الثقافة والفنون - وهران.
1993: مُقرِّر لجنة التحكيم الدولية لمهرجان المسرح قرطاج - تونس.

- **مدير لعدة مُلتقيَات دولية وعربية فكرية وأدبية:**
- على خُطَى جاك دريدا 2007.
- الأدباء العرب في المَهَاجِر المعاصرة 2007.
- البحر الأبيض المتوسط: فضاء الحوار والصراع 2007.
- عضو لجنة تحكيم جائزة الرواية العربية بالقاهرة 2018.
- عضو لجنة تحكيم الجائزة العالمية للرواية العربية البوكر 2020.
- عضو لجنة تحكيم جائزة العويس الثقافية 2022.

جـوائـز:

- جائزة رئيس الجمهورية الإيطالي "النجمة" للحوار الثقافي بين الشعوب 2007.

- وسام عباقرة الشرق – وزارة الثقافة اللبنانية 2008.
- جائزة مؤسسة لافناك La Fnac العالمية عن رواية الخنوع la Soumission 1997.
- جائزة الطلاب الثانويين بفرنسا عن رواية الخنوع 1998.
- جائزة القلم الذهبي لمدينة الجزائر 2010.

المؤلفات:

أ. الروايات و الأعمال الإبداعية بالعربية:

1 – **كيف عبرَ طائر فينقس البحر المتوسط:** (قصص) منشورات اتحاد الكُتّاب العرب، 1985.
2 – **صهيل الجسد:** (رواية) منشورات الوثبة، 1985.
3 – **السماء الثامنة:** (رواية) دار الحداثة – لبنان ومدبولي، القاهرة 2007.
4 – **الرعشة:** (رواية) منشورات الكنوز الأدبية، بيروت 1999.
5 – **رائحة الأنثى:** (رواية) منشورات دار كنعان 2002.
6 – **يصحو الحرير:** (رواية) منشورات دار الغرب، الجزائر 2002.
7 – **شارع إبليس:** (رواية) منشورات الدار العربية للعلوم – ناشرون- لبنان ومنشورات الاختلاف – الجزائر 2009.
8 – **حادي التيوس:** (رواية) منشورات ضفاف بيروت ومنشورات الاختلاف – الجزائر 2011. **(وصلت هذه الرواية إلى القائمة الطويلة للجائزة الدولية للرواية العربية 2012).**
9- **نزهة الخاطر:** (رواية) منشورات ضفاف بيروت ومنشورات الاختلاف – الجزائر 2013.
10 – **لها سر النحلة:** (رواية) منشورات ضفاف بيروت ومنشورات الاختلاف – الجزائر 2014.
11 – **الملكة:** (رواية) منشورات ضفاف بيروت ومنشورات الاختلاف – الجزائر 2015.
12 – **الساق فوق الساق – في ثبوت رؤية هلال العشاق:** منشورات

ضفاف بيروت ومنشورات الاختلاف - الجزائر 2016 (وصلت القائمة الطويلة لجائزة البوكر 2017).

13 - **حُرّ بن يقظان**: (رواية) منشورات ضفاف بيروت ومنشورات الاختلاف - الجزائر 2017.

14- **الخلان**: (رواية) منشورات ضفاف بيروت ومنشورات الاختلاف الجزائر 2018.

15- **الباش كاتب**: (رواية) منشورات ضفاف بيروت ومنشورات الاختلاف - الجزائر 2019.

16 - **نيرفانا**: (رواية) منشورات ضفاف بيروت ومنشورات الاختلاف - الجزائر 2020.

17- ***شوينغوم***: (رواية) منشورات ضفاف بيروت ومنشورات الاختلاف - الجزائر 2022.

ب- البحوث و الدراسات بالعربية:

1- عودة الإنتلجانسيا: منشورات نايا دمشق - سوريا 2007.

2- المثقف المغاربي: السلطة - المرأة - الآخر: منشورات راجعي - الجزائر 2009.

3- معركة التنوير: منشورات تافات - الجزائر 2019.

ج- الترجمة من الفرنسية إلى العربية:

- *هابيل Habel : (رواية) محمد ديب - منشورات دار الغرب - الجزائر* 2007.
- *بِمَ تحلم الذئاب A quoi rêvent les loups : (رواية) لياسمينة خضرا - منشورات دار الغرب* 2002.

منشورات باللغة الفرنسية:

الروايات Romans

1- *Sommeil du Mimosa (roman), إغفاءة الميموزا,* éditions le Serpent à Plumes, Paris 1997.

حُوِّلت إلى فيلم بعنوان: "شاي آنيا"، إخراج سعيد ولد خليفة.

2– La Soumission (roman) الخنوع (ترجمها إلى العربية عبد الرحمن مزيان دار نايا دمشق 2007) (prix Fnac Attention talent + Prix des lycéens France), édition le Serpent à Plumes, Paris 1998, 2ème édition Chez Marsa-Alger.

3- **La Razzia (roman-** الغزوة (ترجمها إلى العربية عبد الرحمن مزيان منشورات نايا دمشق 2007). éditions le Serpent à Plumes, Paris 1999.

4- **Haras de Femmes (roman)** حارة النساء Editions le Serpent à Plumes 2001.

5- **Les Gens du Parfum (roman)** ناس العطور (ترجمها إلى العربية محمد بوطغان تحت عنوان: عطر الخطيئة – منشورات دار العين 2016). Editions le Serpent à Plumes, Paris, Janvier 2003.

6- **Festin de mensonges (roman)** وليمة الأكاذيب Editions Fayard – Paris 2007 et aux éditions Barzakh Alger 2007.

7- **La chambre de la vierge impure (roman)** غرفة العذراء المدنسة Editions Fayard Paris 2009 et aux éditions Barzakh Alger 2009.

8- **Irruption d'une chair dormante (récit),** فوران جسد نائم, Editions El Beyt Alger 2009.

9- **Le dernier Juif de Tamentit (roman)** اليهودي الأخير في تمنطيط éditions Barzakh, Alger 2012.

10- **Le Miel de la sieste (roman)** عسل القيلولة éditions Barzakh Alger 2014.

11- **l'enfant de l'œuf (roman)** طفل البيضة aux éditions Le Serpent à Plumes 2017 et aux éditons Barzakh Alger 2017.

الدراسات :Essais

1 - **L'Empire de la peur (essai)** إمبراطورية الخوف éditions Jean-Pierre Huguet 2000.

2 - **La Culture du Sang (essai)** ثقافة الدم Editions le Serpent à Plumes, Paris, Janvier 2003.

3 - *Fatwa pour Schéhérazade et autres récits de la censure ordinaire* *(essai collectif)* فتوى ضد شهرزاد *éditions l'Art des livres – Jean-Pierre Huguet, éditeur, 1997.*

4- *Histoire de lecture (essai collectif)* تاريخ القراءة *éditions Ministère de la Culture, Paris 1999.*

5- *Un Incendie au Paradis (essai)* حريق في الجنة *éditions Tafat Algérie 2016.*

6- *Eternel Mammeri (essai)* الخالد مولود معمري *éditions Tafat Algérie 2017.*

7- *la Boîte Noire de L'Islam (Sacré et discorde contemporaine)* العلبة السوداء للإسلام – المقدس و الفتنة الكبرى المعاصرة sortira *(Avril 2018) aux éditions Tafat Alger.*

8- *Souffles de la raison* أنفاس العقلانية *aux éditions Tafat Alger 2019.*

تُرجمت روايات أمين الزاوي إلى ثلاث عشرة لغة، من بينها: الإنجليزية، الإيطالية، الألمانية، الإسبانية، الصينية، السويدية، التشيكية، الصربية، اليونانية و غيرها.



الأصنام

قابيل الذي رق قلبه لأخيه هابيل

... ولأنَّ قابيل قتل أخَاهُ هابيل، فقد قضى هذا الأخيرُ دون أن يُخلِّف ذُرِّيَّة، فنحن إذن جميعًا ومنذ بداية البشريَّة إلى الآن ننزل من صُلْب قابيل القاتل، بهذا المعنى فقد وَرِثْنا من أبينا الأول جينات جريمة الدَّم الأَخَويّ المسفوك.

تكتب رواية "الأصنام - قابيل الذي رَقَّ قلبُه لأخيه هابيل" لأمين الزاوي فلسفةَ الأُخوَّة، حُبّ الأخ لأخيه، حب حُمَيْمِيد لمهدي، هي التضحية في أسمَى معانيها الإنسانيَّة، تضحيةٌ تصل حَدَّ الجنون، كل ذلك يحدث على إيقاع زلزال مُروِّع ضرب مدينة الأصنام الجزائريَّة العام 1980. رواية تتوزَّعُ حكاية أبطالها جغرافيَّاتٍ مختلفةً من الجزائر، مرورًا بدمشق والسودان وصولًا إلى أفغانستان...

رواية "الأصنام - قابيل الذي رَقَّ قلبه لأخيه هابيل" نَصٌّ سَرْديٌّ جريء في معارضة أسطورة قتل الأخ لأخيه، وفي ضوئها يُفكِّك الروائيُّ مقاومة صعود ثقافة العُنْف والإرهاب.

تصميم الغلاف: إسلام أحمد


9 789774 907067



